٦١٣

الجامعة الاردنية
كلية الدراسات العليا

الاغتراب
في أدب حيدر حيدر

(١٩٦٨ - ١٩٩٥)

عميد كلية الدراسات العليا

إعداد
غادة محمود عبد الله خليل

إشراف
الدكتور سمير قطامي

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها
كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

تشرين ثاني/ ١٩٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قرار لجنه المناقشة .

نوقشت هذه الرسالة في يوم الاثنين بتاريخ ٣ / ١١ /١٩٩٧م

وأجيزت

أعضاء لجنه المناقشة:

الدكتور سمير قطامي	مشرفاً
الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين	عضواً
الدكتور إبراهيم خليل	عضواً
الأستاذ الدكتور صالح أبو أصبع	عضواً

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وعرفان

أتقدّم بمزيد من الشكر والعرفان إلى الدكتور سمير قطامي الذي تولّى
الإشراف على هذه الرسالة فجادَ بوقته وجهده، موجّهاً ناصحاً، وفتح قلبَه
ومكتبتَه أمام تساؤلاتي،
فكان صاحبَ الفضل في إنجاز هذا البحث وإتمامه.
كما أتقدّم بمزيد من الشكر والتقدير للسادة أعضاء لجنة المناقشة،
الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين والدكتور إبراهيم خليل
والأستاذ الدكتور صالح أبو أصبع
لتفضّلهم بقبول مناقشة هذا البحث وتقويمه
وإغنائه بملاحظاتهم وتوجيهاتهم.
كما أعبّر عن عظيم امتناني للكاتب حيدر حيدر الذي لم يألُ جهداً في
رفدي بكل ما من شأنه تصويب اتجاهي مثمنة له قراءة البحث
وإجابته عن الاستفسارات بروح مُحبّة.
كما وأتقدّم بالشكر للدكتور فيصل دراج الذي مدّني بملاحظاته القيمة
حول تجربة حيدر حيدر، فكانت نوراً استهديت به في بلورة خطوط رسالتي.
والشكر الجزيل، من قبل ومن بعدُ، للصديق مروان العلان
الذي تابع الرسالة بسعيه الدؤوب طباعة وتدقيقاً وإخراجاً
وكان لملاحظاته ورؤاه فضل لا ينكر.
وشكر خاص أتوجه به لكل الأصدقاء الذين حملوا معي قلق السؤال
فقرأوا هذا البحث بصبر، وقدّموا ملاحظاتهم المفيدة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتـــويـــات

– قرار لجنة المناقشة	ب
– الإهداء	جـ
– شكر وعرفان	د
– الملخّص	و
– مقدمة	١
– تمهيد: تطور مصطلح الاغتراب	٦
– التطور التاريخي لمصطلح الاغتراب	٦
– الاغتراب في الأدب	٢٠
ـ مطالعة الأدبيات	٢٨
– الفصل الأول: حيدر حيدر والاغتراب	٢٩
ـ حيدر حيدر أديباً مغترباً	٣٠
ـ تنامي ظاهرة الاغتراب في أدب حيدر حيدر	٣٦
– الفصل الثاني: الاغتراب عن الذات	٥٠
– مدخل	٥١
– نموذج الشخصية المستغرقة في ذاتها	٥٢
– نموذج الشخصية الهاربة من ذاتها	٥٧
– نموذج الشخصية الباحثة عن ذاتها	٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

–الفصل الثالث: الاغتراب عن المكان	٨٠
– مدخل	٨١
– التقابل بين المدينة الواقع والطبيعة الحلم	٨٢
– التقابل بين فضاءات المدينة وفضاءات الطبيعة	٩٥
– دلالات النهاية	١٠٤
الفصل الرابع: الاغتراب عن المجتمع	١٠٥
– مدخل	١٠٦
– اغتراب العلاقات الانسانية	١٠٩
– الاغتراب السياسي	١١٧
الفصل الخامس: تجليات الاغتراب في رواية «وليمة لأعشاب البحر»	١٣٥
الخاتمة	١٦٨
المصادر والمراجع	١٧٠
ملحق	١٧٧
الملخص باللغة الانجليزية	١٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

الاغتراب في أدب حيدر حيدر
(١٩٦٨ - ١٩٩٥)

غادة محمود خليل
إشراف الدكتور سمير قطامي

يهدف هذا البحث إلى دراسة الاغتراب في أدب القاص والروائي حيدر حيدر الذي امتد إبداعه على مدى ما يقارب الثلاثة عقود منذ عام ١٩٦٨، كتب فيها القصة القصيرة والرواية منتهجاً في جلّ كتابته أسلوب تيار الوعي، الذي ظهرت بعض تقنياته في أعماله الأولى، ثم أصبح ظاهرة مميزة لأسلوبه.

وقد توسّلت الباحثة بمفهوم الاغتراب في مقاربة أعمال الكاتب، ذلك أن كشف الاغتراب بأبعاده الاجتماعية والنفسية والسياسية كان همّاً ملحّاً في أعماق الكاتب، فقد اتّخذ حيدر حيدر من الفن سبيلاً لتحليل الاغتراب وتشريح حالاته، وبذلك ظهر فكرة محورية في أعماق شخوصه الفنية وفيما تطرحه من إشكاليات.

وقد أقامت الباحثة خطة دراستها على تمهيد وفصول خمسة وخاتمة.

يتناول التمهيد التطور التاريخي لمصطلح الاغتراب، ويطلّ على خلفيته الفلسفية والفكرية ويخصص الحديث عن الاغتراب في الأدب الغربي والعربي،ويأتي الفصل الأول بعنوان حيدر حيدر والاغتراب ليبحث ظاهرة الاغتراب في حياة حيدر حيدر و تناميها في أعماله الإبداعية ، أما الفصل الثاني فيتناول الاغتراب عن الذات كما عبّرت عنه أعمال الكاتب مختزلاً في ثلاثة أنماط للشخصية؛ الشخصية المستغرقة في ذاتها، و الشخصية الهاربة من ذاتها، و الشخصية الباحثة عن ذاتها ، وخصّصت الباحثة الفصل الثالث للحديث عن الاغتراب عن المكان ، كما تبدّى في نصوص الكاتب متمحوراً في التقابل بين المدينة(الواقع) والطبيعة (الحلم) ، وفي الفصل الرابع حلّلت الباحثة ملامح الاغتراب عن المجتمع ممثلاً في بُعدين: الاغتراب في العلاقات الإنسانية والاغتراب السياسي، أما الفصل الخامس فتناول بالتحليل تجليات الاغتراب ومضامينه في رواية «وليمة لأعشاب البحر» بدلالةبعض عناصرها كالزمن والمكان والأسلوب والسرد واللغة... إلخ، وفي الخاتمة عرضت الباحثة لأهم النتائج التي توصلت إليها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

يعالج هذا البحث قضية الاغتراب في أدب القاص والروائي السوري «حيدر حيدر» ويحمل عنوان «الاغتراب في أدب حيدر حيدر».

لعلّ قضية الاغتراب، إحدى أهمّ القضايا الفلسفية الفكرية، الشاغلة لاهتمام الإنسان في القرن العشرين، ولقد امتدّ تأثيرها ليصل حقول الأدب والفن على اختلافها بعدما كان مقتصراً على حلقات الفلسفة، وبذلك، أصبحت قضية الاغتراب مدخلاً مُلْهِمَاً لكثير من الباحثين، يمدّهم بالأفكار والرؤى الجديدة لمقاربة الأعمال الأدبية والفنية وفهمها . من هذا المنطلق وقع اختياري على موضوعة «الاغتراب» مفتاحاً لولوج عالم«حيدر حيدر» الأدبي وتحليل مفرداته، وقد تعزّز هذا الاختيار بأمرين هما:

أولاً: مناسبةُ قضيةِ الاغتراب، مدخلاً لتحليل أعمال الكاتب حيدر حيدر، إذ تبّين لي بعد اطّلاعي على أدب الكاتب أن قضية الاغتراب بمضامينها النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كانت الهمّ الأعمقَ حضوراً، والأكثر إلحاحاً في إبداعاته الفنية.

ثانياً: إن الكاتب حيدر حيدر لحقه إهمال وتقصير واضحان من جانب الدراسات النقدية، فلم تُدرس تجربته الإبداعية، لتوضع في سياقها الفني المناسب، ضمن خارطة «القصة والرواية» العربية، فالدراسات التي تناولت أدبه قليلة بل نادرة، وهي في مجملها، دراسات جزئية تفتقرللإحاطة والشمول، وتقتصر على التطرق إلى عمل من أعماله أو بعض منها، دون أن تأخذ على عاتقها هدف الإلمام بعالمه الكلي، وبالرغم من أن ذلك قد خلق لي صعوبة في استكناه العوالم التي تكشف عنها أدب الكاتب، فإنه قد قدّم لي نشوة السير في طريق بكر، و لذة البحث في عالم أدبي ثرّ، وتسليط الضوء على تجربة فنية غنية.

ولما كان مفهوم الاغتراب وسيلتي وأداتي لتحليل أعمال الكاتب، ارتأيت أن أبدأ بحثي **بالوقوف على الخلفية الفلسفية والفكرية للمفهوم**، فتتبّعت تطورّه منذ أن كان كلمة ذات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دلالات معجمية محدودة، إلى أن أصبح مصطلحاً فلسفياً واجتماعياً واسع المعنى متباين الاستخدام، متداولاً بين الفلاسفة وعلماء الاجتماع والنفس ونقاد الأدب والفنّ. وكان هذا البحث شيّقاً وشائكاً، إذ دلل تاريخ تطور المصطلح على مسيرة انتقلت به من وصف ميتافيزيقي خالص إلى مفهوم علمي يمكن تحديده ووصفه بدقة، ومن ثمّ إلى اتساع في الدلالة يفضي به إلى أن يصبح مقولة عائمة ومعنى عمومياً يجمع في ثناياه المتناقضات، لذا حرصتُ على استخلاص رؤية للاغتراب تمكّنني من جعله أداة ناجعة في تحليل أعمال الكاتب. **وكانت الرؤية الماركسية الأكثر فائدة في هذا المجال**، لاسيما أنها حللت مظاهر اغتراب الإنسان بوضوح كامل مركّزة على أسبابه المادية الكامنة في المجتمع.

وجهدتُ في جمع كل ما من شأنه إضاءةُ أعمال الكاتب حيدر حيدر ومسيرته الفنية من دراسات سابقة هي جِدّ قليلة، ومقابلات وحوارات في الصحف والمجلات العربية، وقد تفضّل الكاتب حيدر حيدر بإرسال أرشيف كامل يشمل مجمل اللقاءات الصّحافية والحوارات الأدبية حول أعماله المختلفة، يغطي الفترة من عام ألف وتسعمئة وثمانية وستين إلى عام الف وتسعمئة وخمسة وتسعين ، مما كان له أكبرُ العونِ في رسم صورة واضحة عن آراء الكاتب ومواقفه في الحياة والأدب والسياسة، بالإضافة إلى معرفة الجوّ الذي كتبت فيه أعماله، والموضوعات الفنية والثقافية التي أثارتْها في وقتها.

وفيما يتعلق بمنهج البحث فقد استضأتُ أثناء رحلة بحثي – ما أمكنني– بالمقاربات النقدية التي تنطلق من دلالات الشكل القصصي و الروائي «The content of the For m» وذلك في تأويل الإحالات الاجتماعية والنفسية والفكرية لصيقةِ الصلة بقضية الاغتراب في الأعمال المدروسة، واستفدت أيضاً وجهة النظر التي ترى في العمل الأدبي مجتمعاً قائماً بذاته، فتسلط الضوء على مستوياته الجمالية والنفسية والاجتماعية والفكرية الداخلية، ولاتحيل إلى خارج النص إلا بما يسمح به النص ذاته ويحيل إليه .

وقد جعلتُ بحثي في تمهيدٍ و فصول خمسة: أما التمهيد فقد توزّعته موضوعات ثلاثة : الأول التطور التاريخي لمصطلح الاغتراب وقد أضاء الخلفية الفلسفية والفكرية التي انبثق منها، وتناول الثاني قضية الاغتراب في الأدب بعامة وأما الثالث فاختص بمطالعة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأدبيات،وأعطى لمحة عن الدراسات السابقةالتي أفادت منها الباحثة .

وقد خصصت **الفصل الأول ،حيدرحيدر و الاغتراب،** للحديثَ عن حيدر حيدر الأديب المغترب، وتنامي ظاهرة الاغتراب في أعماله الأدبية الممتدة على مدى ثلاثة عقود من الزمان.

وعُنيتُ في **الفصل الثاني ببحث الاغتراب عن الذات** كما دلّلت عليه نصوص الكاتب مباشرة أو تلميحاً، وجهدتُ في هذا الفصل في استقصاء ملامح **الاغتراب عن الذات** بمضامينه الواسعة، مقترحةً ثلاثة أنماط رئيسة للذات المغتربة، رتبتها تصاعدياً حسب ارتقاء درجة الوعي و رد فعل الذات على ما تتعرض له من اغتراب، فابتدأتُ بنمط الشخصية المستغرقة في ذاتها ، ثم الشخصية الهاربة من ذاتها، وأخيرا الشخصية الباحثة عن ذاتها ، مضيئةً أسباب الاغتراب، وطرائق الذات في مواجهته في كل حالة، حيث اتضح لي اتصال الاغتراب عن الذات في نصوص حيدر حيدر بأسباب اجتماعية وسياسية بعيداً عن الأسباب الوجودية الخالصة، وأنهيتُ هذا الفصل بخلاصة حول الاغتراب عن الذات في أدب الكاتب .

وقد جاء **الفصل الثالث** ليفصّل البحث في **الاغتراب عن المكان،** ونظراً للحضور الرمزي المكثف لفضاء المدينة وفضاء الطبيعة في مجمل أعمال الكاتب، ارتأيتُ أن أفصّل الحديث في الاغتراب عن المكان ضمن ثنائية المدينة والطبيعة، فبحثتُ أولاً التقابل بين المدينة (الواقع) والطبيعة (الحلم) كما صوّرتها النصوص، ثم وضحتُ التقابل بين تفرّعات المكان في المدينة(فضاءات المدينة) وتفرّعات المكان في الطبيعة (فضاءات الطبيعة) وأجملتُ في النهاية الحديث عن دلالات الاغتراب ودلالات تجاوزه، كما شفّت عنها نهاياتُ القصص موضعَ البحث.

أما **الفصل الرابع،** فقد تناولتُ فيه **الاغتراب عن المجتمع** كما تبدّى في نصوص حيدر حيدر حيث ركّزتُ على استخلاص أبعاد الاغتراب في العلاقات الإنسانية ممثلة بعلاقة الرجل بالمرأة، وعلاقة القديم بالجديد، وهما العلاقتان الأكثرا حضوراً في نصوص الكاتب، ثم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تناولتُ بالتحليل مكوّنات الاغتراب السياسي المتعلق بعلاقة الحاكم بالمحكوم، ضمن مستويات ثلاثة: سمات السلطة السياسية وردود أفعال الشخوص، الواعية واللاواعية على اغترابها، فاغتراب الفلسطيني ، وذلك كما صُوّرت في النصوص المدروسة.

وأفردتُ **الفصلَ الخامس** لتحليل تجليات الاغتراب في رواية «وليمة لأعشاب البحر» منطلقة من استكناه دلالاته المختلفة في بعض مفرداتها التي تجسد مظاهر عديدة للاغتراب ، هذه المفردات هي على التوالي:

– الضمائر – الزمان – السرد – اللغة – الشخصيات – المكان – الأسلوب.

وفصلتُ في تَبيّان ملامح كل مفردة، ودورها في تصوير حالة الاغتراب النفسي والاجتماعي والسياسي، وما يعكسه تشكيلها الخاص من مضامين الاغتراب وأبعاده.

وفي الخاتمة عرضتُ لأهمّ النتائج التي خلصتُ إليها ، فقد اتضح لي بعد رحلة الاستقصاء الآنفة أن الكاتب حيدر حيدر هو كاتب اغتراب بحق، وأن قضية الاغتراب ، والتعبير الفني عنها، كانت هما محورياً في كل ما كتب.

وزيادة في الفائدة ، وإثراءً للبحث، قمتُ بزيارة الكاتب في مكان إقامته في «حصين البحر»/طرطوس، و أطلعته على بحثي، فتفضّل بقراءته، وأبدى ملاحظاته عليه. وقد تركتُ لديه مجموعة من الأسئلة حول الاغتراب في حياته وفي أدبه، فأجاب عنها وقد أفردتُ ملحقاً خاصاً بهذا في نهاية البحث.

ختاماً، آمل أن يكون هذا الجهد المتواضع قد سلّط بعض ضوء على تجربة فنية غنية، احتفت بالإنسان العربي، وحملت همّ نهوضه، واتخذت من إزاحة الأقنعة عن وجهه وكشف اغترابه سبيلاً إلى قيامته الواعدة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيد

- تطور مصطلح الاغتراب.

أولاً: التطور التاريخي
لمصطلح الاغتراب.

ثانياً: الاغتراب في الأدب.

ثالثاً: مطالعة الأدبيات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً:التطور التاريخي لمصطلح الاغتراب

– الاستخدام العربي لمصطلح الاغتراب :

لم يكن لمصطلح الاغتراب استخدام متخصص في الحضارة العربية، إذ كان للكلمة معانٍ معجمية مباشرة ،فمثلاً يرد الجذر غَرَبَ في لسان العرب تحت معانٍ متنوعة منها : الغَرب :الذهاب والتنحي عن الناس، الغَربة: النوى والبعد، غرّب في الأرض وأغرب إذا أمعن فيها، التغريب: النفي من البلد الذي وقعت الجناية فيه ،رجل غريب: ليس من القوم . الغريب : الغامض من الكلام. وهناك الاغتراب الديني المتضمَن في الرؤية الدينية ، فقد ورد في الحديث النبوي :« بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»(١).

لا نجد هنا استخداما مفهومياً للمصطلح، ولذلك فحين استخدمه الباحثون العرب في النصف الثاني من القرن العشرين مترجمين المصطلح «Alienation » إلى الاغتراب أوالاستلاب، كان يحيل إلى الخلفية الفلسفية والفكرية الغربية التي انبثق عنها .

يأتي الاهتمام بتوظيف المفهوم في الحقول الاجتماعية والأدبية في الوطن العربي متساوقاً مع دراسات فكرية واجتماعية ونفسية[٢]، تهدف إلى كشف أسباب عجز الإنسان العربي المعاصر عن تحقيق أهدافه واغترابه، وإحساسه بعدم القدرة والسيطرة في عالم يضيق يَوماً بعد يوم وتحكمه قوى لا يفهمها، وكذلك الكشف عن طرائق هذا الإنسان في مواجهة واقعه سلباً أو إيجاباً .

لقد استفادت الدراسات السابقة من إنجازات العالم الغربي، المنتج للمعرفة في هذه الحقبة الزمنية في الحقول المعرفية المختلفة، ووظفتها لدراسة الواقع والفكر العربيين، لتسليط الضوء على واقع الانكسار والمعاناة، وأزمة الحرية الشخصية والسياسية في العالم العربي.

---

١) أحمدبن حنبل: مسند الإمام أحمد، المجلد الأول، دار صادر للطباعة والنشر بيروت، لبنان ط١، دون تاريخ،ص١٨٤ .

٢) من مثل :دراسات علي زيعور في علم النفس، و حليم بركات وهشام شرابي في علم الاجتماع ، ومحمد عابد الجابري ومحمد أركون وعلي حرب ،في العقل العربي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويجد المطلع اليوم على المكتبة العربية تنوعاً في العناوين المتصلة بالاغتراب منذ أواخر الستينيات وبازدياد مستمر، فقد ترجم الكثير من الكتابات المتصلة بالاغتراب بمختلف ظواهره في العالم الغربي ، وأُلّفت دراسات عربية ناقشت المصطلح وعرضت له في بيئته الغربية، ومن ثم دراسات حاولت توظيف المصطلح نظرياً وميدانياً في مجالات علم الاجتماع والأدب والفلسفة(١).

ولا بد هنا من الإشارة إلى خصوصية المجتمع العربي، فالمجتمع العربي مجتمع لارأسمالي، وبنيته الاقتصادية والثقافية مختلفة، لذا فإن بعض مسببات الاغتراب لديه مختلفة، وستكون الصدمة الحضارية والعلاقة المكتسبة مع الغرب «على تنوّعها» أحد أسباب الاغتراب.

وسيكون من الضروري لهذا البحث أن يطل على الخلفية الفلسفية لمصطلح الاغتراب ، وأن يرصد تطورها ، مركزاً على توظيف المفهوم في حقل الأدب .

---

١)من الأمثلة على دراسات ظاهرة الاغتراب في الأدب العربي آ – الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي: عزيز السيد جاسم ب – أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد: أحلام الزعيم جـ – الاغتراب في الرواية الفلسطينية:بسام فرنجية د – الاغتراب في الرواية الأردنية: سمية خصاونة هـ – المتنبي بين البطولة والاغتراب: حياة محمد شرارة .

ومن الدراسات الاجتماعية الميدانية : آ – البيروقراطية والاغتراب الاجتماعي في بعض معاهد دول الخليج العربي : أحمد جمال ظاهر ب – الانحراف الاجتماعي بين نظرية علم الاجتماع والواقع الاجتماعي: سامي حمد جابر جـ – الاغتراب العمالي في منشأة صناعية جزائرية؛ عوامله ونتائجه: جازية كيران.

ومنها في ميدان الفلسفة : آ – ابن باجة وفلسفة الاغتراب. محمد إبراهيم الفيومي. ب – فكرة الاغتراب في الفكر العربي:سحبان خليفات ج– العلم والاغتراب والحرية:يمنى طريف الخولي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– الخلفية الفكرية والفلسفية لمصطلح الاغتراب :

يأتي مصطلح الاغتراب « Alienation » في اللغة الإنجليزية والألمانية بثلاثة معان مختلفة، يعكس كلٌ منها استخداماً خاصاً للمصطلح في مجاله: ففي القانون يعني الاغتراب التنازل أو التخلي عن الملكية الشخصية بيعاً أو إهداءً أو رغماً عن صاحبها، وفي مجال الطب العقلي يعني الاغتراب الاضطراب العقلي، أو الفقدان المؤقت للوعي ، أما المعنى الثالث فيتعلق بالعلاقات الشخصية إذ يعني الاغتراب حدوث فتور في علاقة إنسان ما بآخر ترتب عليه ابتعادٌ وانقطاع، وفي هذه الحالة يصبح الآخر غريباً بعد أن كان صديقاً. وغالباً ما يأتي الاستخدام اليومي للكلمة بالمعنى الأخير[١]، بالرغم من أن دوائر المعارف ما زالت تحتفظ بتنوّع معناها المعجمي قبل أن تصبح مفهوماً فلسفياخاصاً[٢].

ويحمل المعنى الأخير– اغتراب العلاقات الإنسانية ـ جذوراً دينية، فقد استخدم المصطلح في الأديان بمعنى مشابه، حيث يشير إلى انفصال الإنسان عن الله، وابتعاده عن المنهج الحياتي و الأخلاقي الذي ترسمه له الرؤية الدينية، لكنّ الانفصال متضمَنٌ كذلك في الفكرة الدينية لوجود الإنسان، فالإنسان انفصل عن عالمه السماوي نتيجة ارتكابه الخطيئة، فألقي به في العالم الأرضي، وبذلك فهو محكوم بالانفصال ومعاناة الانفصال ما وجد على الارض، ويمكنه أن يخفف اغترابه بالالتزام الديني، وهنا يأتي دور الأنبياء؛ إنهم مرشدو الإنسان في هذا العالم الغريب، وهم أقل الناس اغتراباً لأنهم على صلة بعالم السماء، أما تجاوز الاغتراب كلياً، فلا يكون إلا بالعودة إلى السماء بعد الموت[٣].

٤٨٢٤١٢

---

١ – ريتشارد شاخت : الاغتراب، ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط١ بيروت،لبنان ١٩٨٠،ص ٦٣–٦٨.

٢ – The Encyclopedia of Philosophy, (1) "Alienation", Edward, Paul, The Macmilan company &TheFree Press, New York 1967,P76

٣ – فيصل دراج :الاغتراب. الموسوعة الفلسفيةالعربية ، ط ١ ، مجلد ١، معهد الإنماء العربي بيروت، لبنان. ١٩٨٦، ص:٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد معنى آخر للكلمة في الدين الإسلامي، بالإضافة للمعاني السابقة.. فالمؤمن يأتي عليه وقت يحسّ فيه بالانفصال عن المجتمع الذي ابتعد عن المثال الديني ، وهكذا فإنه يكون غريباً وحيداً في هذا المجتمع وتزداد غربته كلما أمعن المجتمع في مخالفة المثال الديني[١].

ظلّ المصطلح مستخدماً بالمعاني السابقة دونما تطوير،حتى وُظّف في إطارنظرية العقد الاجتماعي في الطروحات الفلسفية و السياسية حول المجتمع المدني والدولة القومية، ويحمل الاستخدام الجديد ظلال مرحلة مختلفة في التاريخ الأوروبي تشير إلى تراجع بنية اجتماعية وقيام بنية اجتماعية أخرى، فتراجع نظام الإقطاع بنشوء القوى البرجوازية الجديدة، وتراجع دور الكنيسة نتيجة الاكتشافات العلمية المتلاحقة التي غيّرت رؤية الإنسان لنفسه ودوره على الأرض ترافَقَ بتنظير فلسفي جديد يرى الأفراد والمجتمعات بعيون جديدة ، وقدحملت نظرية العقد الاجتماعي هذه الصورة الجديدة للإنسان والمجتمع[٣]. لقد استُخدم مصطلح الاغتراب في نطاق نظرية العقد الاجتماعي بمعنى قريب من الاستخدام التقليدي وهو التنازل أو التخلي، فقد ورد المصطلح بهذا المعنى عند روسو«Rousse »(١٧١٢ـ١٧٧٨)،واستخدم من قبله هوبز«Hobbes» *(١٥٨٨ـ ١٦٧٩) ولوك « Locke» *(١٦٣٢ـ ١٧٠٤) كلمات مشابهة للتعبيرعن الفكرة ذاتها.

فالاغتراب في نظرية العقد الاجتماعي يعني: تنازل المرء عن حقه المطلق في الحرية ، أو عن بعض حقوقه لصالح السلطة السياسية ممثلة بفرد حاكم أو مجموعة حاكمة، والجدير بالذكر

---

١) فتح الله خليف :الاغتراب في الإسلام ، مجلة عالم الفكر. مجلد١٠، العدد:١،نيسان، المجلس الأعلى للشؤون الثقافية . الكويت،١٩٧٩ص:٨٥ .

٢)نبيل اسكندر : أزمة الإنسان المعاصر، دون طبعة، دار المعرفة الجامعية،الاسكندرية، مصر ١٩٨٨،ص٤٣-٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن هذا التخلي يكون اختيارياً وليس إجبارياً، لذلك فهو يحمل الخير لصاحبه، إذ يتنازل كل فرد عن حرّيته المطلقة – التي ستكون مهدّدة بحريّات الآخرين المطلقة أيضاً – وهو إذ يخسر هذه الحرية يكسب الأمن والاستقرار، واحترام الحريات الشخصية الذي تتكفل السلطة الحاكمة بالمحافظة عليه . إن الفرد هنا يتخلى عن الفوضى وسيطرة القوة لصالح النظام وسيطرة القانون.

وهكذا يكون التغريب في هذا السياق موافقاً لمشاعر الانسجام والتواصل الاجتماعي ولا يحمل ظلاً للنفور أو الإكراه.

وحتى عصور التنوير لم تحمل كلمة الاغتراب أيّ مدلولات فلسفية، فقد تأخر هذا إلى القرن التاسع عشر الذي شهد ظهور فلاسفة أعطوا الكلمة معاني جديدة، وأثاروا لأول مرة قضية الاغتراب إذ «يمكن القول بأن هيجل «G.W.F. Hegel»* وفويرباخ «Ludwing,Feuerbach» *و ماركس «Karl,Marx»، هم المفكرون الثلاثة الذين وضعوا تفسيراً شاملاً للاغتراب ، بحيث تعدّ تفسيراتهم نقطة البداية لكل النقاشات حول الاغتراب في الوقت الحاضر، في حقول الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس»[١]، لذلك فنحن في الصفحات التالية سوف نعرض لطروحاتهم ، لنقف على الخلفية الفلسفية التي انطلقت منها التفسيرات والتأويلات الحديثة للاغتراب.

آ– هيجل « Hegel » والاغتراب:

يعدّ هيجل « Hegel » (١٧٧٠ – ١٨٣١) الفيلسوف الأول الذي أصّل لمصطلح الاغتراب « Entfremdung » باستخدامه له بشكل «نَسَقيّ» [٢] ، وبالرغم من أن استخدامه

---

١) The Encyclopedia of Philosophy, P76.

٢) السيد علي شتا:نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع،ط١،دار عالم الكتب للنشر والتوزيع،الرياض السعودية ،١٩٨٤،ص٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للمصطلح لم يكن منبتّ الصلة باستخدامات من سبقه من المفكرين وخاصة روسّو، فإن المفهوم ارتبط لديه برؤية أشمل لما ينبغي للإنسان والمجتمع أن يكونا عليه، وبتصوره الخاص عن الطبيعة الجوهرية للإنسان وسبل تحققه، ولا شك أنه كان للنزعة الرومانسية المغرقة في الذاتية السائدة في عصره تأثيرٌ كبير على رؤيته الخاصة للاغتراب[١].

شرح هيجل قضية الاغتراب من منطلق العلاقة بين الذات والموضوع، وأول أشكال الاغتراب الذي انتقده هو اغتراب الفرد المتّـــحد مع بيئته الاجتماعية، المستغرق فيها تماماً وهنا ترى الذات نفسها عبرالأدوار التي تؤديها ضمن الجماعة التي تعيش بينها[٢]، هذه الشخصية لا تملك سمات خاصة بها ولا تشكل مواقفها بناءً على وعيها الخاص لأنها لا تملك حساً بالفردية، لذا يكون توافقها غير واعٍ، إنه توافق يجعل الفرد متماهياً في المجموعة التي يعيش بينها .

وفي مرحلة لاحقة لتطور فردية الإنسان، ينمو لديه الحسّ بالانفصال عن الآخرين، وعن البنية الاجتماعية بأنظمتها ومؤسساتها الاجتماعية والثقافية والسياسية، لقد بدأ يمتلك المسافة اللازمة للتأمل بينه وبين الموضوع. وفي هذه المرحلة ينظر الفرد للبنية الاجتماعية كشيء يهدد فرديته وحريته، ويبتعد عن المشاركة فيها ما أمكن، ويترافق إحساسه الفائق بذاته مع إهماله الفائق لنشاطه الاجتماعي، فيصبح مغترباً عن مجتمعه، وبالتالي عن نفسه، لأن هيجل يرى في البنية الاجتماعية تعبيراً موضوعياً عن ذات الفرد، فمن ينفصل عنها ينفصل عن ذاته.

ولا يمكن للفرد أن يتجاوز الحالة الاغترابية السابقة إلاّ بوعي أهمية البنية الاجتماعية بالنسبة له، والتضحية والتخلي عن الفردية لصالحها، وحتـى يتحقق ذلك ـ في رأي هيجل ـ «لا

---

١) يونان رزق:أوروبا في عصر الرأسمالية.دون طبعة،دار الثقافة العربية،القاهرة، مصر،١٩٨٣ ص ٢٢٩ـ٢٣٠ .

٢) شاخت: الاغتراب ،مرجع سابق ص ٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بدّأن يجعل الفرد مضمون مجتمعه وثقافته مضمونه هو نفسه، ويجعل نفسه جزءاً من هذا المضمون»[٢].

ب – الاغتراب عند فويرباخ «Feuerbach» :

طوّر فويرباخ « Feuerbach » (١٨٠٤ – ١٨٧٢) فكرة وردت في سياق بحث هيجل حول الاغتراب وسبل تجاوزه، فقد تراجع هيجل عن رأيه السابق في أن الدين بما هو محبة وتسامٍ يشكّل وسيلةً لتجاوز الاغتراب، وركز على العلاقة الواقعية التي تربط الفرد بمجتمعه، مبدياً رأيه في أن الإنسان الذي يشغل تفكيره بما هو غير واقعي وغير أرضي، سواء أكان الدين أم غيره هو إنسان مغترب[٢]. هذه الفكرة بالذات هي التي فصّل فيها فويرباخ واعتبرها المسبب الحقيقي لأشكال الاغتراب كافة.

يرى فويرباخ أن مايقوم به الإنسان المتدين هو تخيل عالم تتمثّل فيه أحلامُه وطموحاتُه وتطلعاتُه وإمكاناتُه الخلاّقة ومُثُلُه العليا، وأمام إحساسه بالعجز عن تحقيقه في واقعه، يفصله عن ذاته ويجعله خاصاً بالسماء، ليكرس من ثم إحساسه بالنقص أمام كمال خصّ به الإله، وبذلك حكم على نفسه بالقصور، وفي رأيه أنه لا يمكن للإنسان أن يتجاوز اغترابه عن ذاته إلاّ بإدراك أن ما هو إلهي هو إنساني في الأصل، فالإله مَثَلُ الإنسان الأعلى ، لكنه في الدين تحوّل إلى موضوع عبادة، ومثلما اختصّ الإلهُ بالصفات الإيجابية التصق الضعف والنقص بالإنسان. والإشكالية هنا في أن الإنسان ينظر لقصوره على أنه سمة إنسانية أساسية، ويؤكده. وهكذا يكون الدين هو السبب في اغتراب الإنسان عن ذاته.

وفيما بعد حلّل فرويد « **Freud** »(١٨٥٦– ١٩٣٩) تأثير الدين بشكـــل مماثل لتحليل فويرباخ حيث رأى بأن الانسان حين يجابه قصوره، ولا يجد القدرة على حلّ الإشكاليات

---

١) شاخت، الاغتراب . مرجع سابق ص : ١١٠ .
٢) المرجع نفسه : ص ٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي تواجهه يلجأ إلى خلق فكرة الإله أو القوة العظمى التي تحكم عالم الإنسان ، ويرى فرويد أن الحاجة إلى هذه الفكرة تنتهي كلما ازدادت قدرات الإنسان ومعرفته العلمية، وفهمه لظواهر الكون.[١] وينتهي فرويد إلى النتيجة نفسها التي انتهى إليها فويرباخ « الدين هو ماهية الإنسان وهي في دور طفولتها»[٢]. إنه دلالة عجز الإنسان وبؤسه وهربه من المواجهة.

ج – الاغتراب عند كارل ماركس «Karl Marx»:

بنى الفيلسوف الألماني كارل ماركس «Karl Marx»(١٨١٨ – ١٨٨٣) رؤيته لقضية الاغتراب بعدما تمثّل إسهامات هيجل وفويرباخ، واحتوت مخطوطاته لعام ١٨٤٤ انتقاداً لرؤية هيجل مع شرح لرؤيته الخاصة التي نقلت النقاش حول القضية إلى أرض الواقع المادي، وبذلك يكون ماركس «أول من أعطى مصطلح الاغتراب معناه الاجتماعي بعد أن كان مفهوماً ميتافيزيقياً لاهوتياً»[٣]. فلدى ماركس، تكمن أسباب ظاهرة الاغتراب الدينية والاقتصادية والاجتماعية في طبيعة المجتمع الرأسمالي وبنيته الطبقية القائمة على أساس العلاقة الاستغلالية في مجال العمل خاصة.وركّز في تحليله على الظروف التي تجعل الفردَ العامل منفصلاً عن عمله ونتاجه، وبالتالي مغترباً عن ذاته ومجتمعه .

لقد أعطى ماركس أهمية أساسية لعمل الإنسان في النظر للاغتراب ، وهذه الأهمية تأتي لأن ماركس يقرّ مع هيجل بأن خصوصية الإنسان وفاعليته لا تتبدى إلاّ بالعمل ، وفي حين يقف هيجل عند ضرورة وعي الفرد أهمية العمل في تكوين شخصيته المميزة وذاتيته المتفرّدة، فإن

---

١) إريك فروم : الدين والتحليل النفسي. ترجمة فؤاد كامل ، ط١ ، مكتبة غريب، القاهرة مصر . ص١٥–١٦ .

٢)حسن حنفي : الاغتراب عند فويرباخ، مجلة عالم الفكر. مجلد١٠ العدد: ١، الكويت، ١٩٧٩، ص ٥٢.

١) قيس النوري :الاغتراب مصطلحاً ومفهوماً وواقعاً،مجلة عالم الفكر. الكويت ، مجلد ١٠، عدد ١، ١٩٧٩، ص٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ماركس يركز على نقد شروط العمل في المجتمع الرأسمالي التي لا تتيح للفرد أن يطوّر شخصيته أو أن يتمتع بذات متميزة، فينحصر همّه بالمحافظة على ذاته الفيزيائية(١).

فانفصال الإنسان عن عمله يعني في رأي ماركس، انفصاله عن جزء جوهري وأساسي من ذاته وفقدانه لطاقاته وقدراته سواء لإشباع الحاجة العضوية البسيطة بالنسبة للعامل، أو لتحقيق الثراء بالنسبة لرب العمل. وينعكس نمط العمل على العلاقات الاجتماعية فتصبح مختزلة في **المصلحة الخاصة**، ذلك أن الإنسان المنظور إليه كأداة، سينظر بدوره للآخرين كأدوات تؤدّي دوراً وقت الحاجة. وعلى الصعيد الذاتي يؤثر هذا النمط في تنمية الإنسان لحساسيته الفردية وارتقائه، فالعامل في ظل شروط الاستغلال لن يجد الوقت الكافي ليقرأ أو يسمع الموسيقى مثلاً، أما المالك الذي سيطرعليه حب الملكية فسيعطي مجمل وقته لمراقبة العمل والربح ومراكمة الثروة. وحتى يتم تجاوز الاغتراب لا بدّ من تغيير الشروط المادية التي أوجدته، أي لا بد من تغيير بنية المجتمع (٢).

كان استخدامُ ماركس وهيجل للمصطلح ذا تأثير كبير في طروحات الاغتراب الحديثة، فقد عُمّم المصطلح ليدل على حالة شاملة من الاغتراب يعيشها الإنسان الأوروبي في كل مستوى من مستويات حياته، هنا يتحدث الباحثون عن تغيّر جذري حصل في البنية الذهنية الأوروبية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. هذا التغير انعكس في الأدب والشعر، ومن ثم في العلوم.الإنسانية الناشئة، ثم وصل تأثيره إلى العلوم الطبيعية. لقد جاء هذا التغير رد فعل على بنية اجتماعية وثقافية سيطرت طوال القرن التاسع عشر، وكانت نتاج قرون من السير المتواصل نحو التقدم العلمي، وتبلور النظام الصناعي الرأسمالي ممثّلاً في الطبقية

---

١) شاخت ، مرجع سابق ص١٣٥ .

٢) مجاهد عبد المنعم مجاهد. :من الاغتراب إلى الاشتراكية إلى الاغتراب ،مجلة عالم الفكر، عدد ٤٤، ١٩٦٨، ص ٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصارخة، و التنافس الاستعماري المحموم للسيطرة على العالم[١] .

وقد عبّرت الاتجاهات الجديدة الرافضة عن ازدرائها للتقاليد الاجتماعية والثقافية والعلمية والأدبية السائدة، بخوضها في مسائل لا تخضع لمنطق العلم التجريبي، برز هذا الاتجاه أول ما برز، في الأدب و الفن (في روايات كافكا و أعمال بيكاسو والتكعيبيين مثلا).وكانت نظرية فرويد في اللاوعي مؤشراً على انتصاره، فقد دللت هذه النظرية على «أن عناصر الاحلام غير المترابطة والمشتتّة، يمكن أن تنتج منطقاً جديداً». [٢]

لقد اعتمد الاتجاه السابق على الخيال والحدس والمشاعرأكثر مما اعتمد على العلم، وحمل في طياته رفضاً لواقع يصدم الإنسان وينتزع إنسانيته ويغربه عن ذاته . وشكلت ثورات العمال، والثورة الاشتراكية من بعدها نوعاً من التصدي للنظام السابق، ومحاولة للخروج من حصاره، ثم جاءت الحروب الكونية، ليبدو المجتمع الأوروبي بعد الحرب العالمية الثانية نموذجاً للاغتراب وتزعزع القيم، وفقدان الثقة بالذات والعلم والإنجاز.ومنذ الأربعينات من القرن الحالي بدأ الضوء يتسلط على مسببات هذا التخبط، الذي وجد التسمية الشائعة له في الاغتراب، وأعيدت قراءة أوراق ماركس حول الاغتراب، ليجد فيها الكثير من المفكرين رؤية صائبة .

فقد رصد إريك فروم « **Erich Fromm** »(١٩٠٠-١٩٧٩) أنماط اغتراب الإنسان في المجتمع الرأسمالي التي تطال العلاقات والسّلوك واللغة[٣]، فعلاقة الإنسان بالطبيعة علاقة سيطرة واستعباد، وعلاقته بالآخرين يغلب عليها طابع الاستغلال فهو ينظر للآخرين بصفتهم وسائل لغاياته الشخصية.أما اغترابه عن ذاته فيتبدى في حالتين متمايزتين: في الحالة الاغترابية

---

١) مالكم برادبري وجيمس ماكفارين :الحداثة ،ترجمة مؤيد حسن فوزي، دون طبعة،دار المأمون للترجمة والنشر. بغداد. العراق. ١٩٨٧ص٥٩ .

٢) المرجع نفسه ص٨٤ .

٣)فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر.ترجمة سعد زهران سلسلة عالم المعرفة الكويت١٩٨٩ ص ٤٠ – ٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأولى ، يفتقد الإنسان الشعور بذاته وفرديتها وعفويتها، ويعاني إحساسه بعدم التحقق وانفصاله عن إمكاناته وإنسانيته ، أما في الحالة الاغترابية الثانية فيستغرق في النظام الاجتماعي ، ولا يشعر بانفصال ذاته عنه لأنه لم يطور إحساسا بذاته، بل انساق تماماً في الدور الاجتماعي المطلوب منه[١]،إنها الحالة التي أشار إليها هيجل من قبل (٢) .

وكذلك الأمر في رؤية ماركوز «Marcuse» (١٨٩٨ – ١٩٨٠) لواقع المجتمع الصناعي المتقدم الذي يزيف حاجات الإنسان ، ويحرص على إبقائه خاضعاً لسيطرة غير مباشرة، هي سيطرة المؤسسات وأجهزة الدعاية «فالنظام التقني يرسخ دعائم نظام كامل من السيطرة والتنسيق، وهنا تظهر الحاجات التي لا تعبر إلا عن مصالح فئة محددة، كأنها حاجاتُ كل فرد في المجتمع(٣)، واغتراب الفرد يظهرفي تبعيته للنظام الاقتصادي والسياسي ،وفي دعمه اللاواعي لأهدافه اللاإنسانية ،بانسياقه للدور الاجتماعي المطلوب دونما تفكير.

ويمكننا استشفاف الانتقاد السابق للفرد الذي اضمحلّت رؤيته الخاصة وتفكيره الخاص، في الفلسفة التي برزت أكثر ما برزت بعد الحرب العالمية الثانية التي راح ضحيتها الإنسان الفرد في المقام الأول، إنها الفلسفة الوجودية «Existentialism» التي حملت احتجاجاً متضمناً على الظرف الذي يوجد فيه الإنسان خاضعاً لقوى خارج ذاته وفاقداً حسّه التأملي بقضايا وجوده، فقد ميّز «**هيدجر**Martin Heidegger»(١٨٨٩ – ١٩٧٦) بين إمكانيتين للوجود الإنساني: الوجود الحقيقي والوجود الزائف، والسمة الأساسية للوجود الزائف تتمثل في استغراق الفرد في الحاضرالذي تقرره التوقعات والمواثيق غيرالشخصية، أي خضوع الفرد الكامل للنظام الاجتماعي السائد على حساب الوجود الأصيل للذات، الذي هو الإمكانية الأخرى لوجود الإنسان.

---

١) شاخت ،مرجع سابق ص ١٧٩ – ١٩٤.

٢) انظر ص ٩ من هذا البحث.

٣) ماركوز: الإنسان ذو البعد الواحد ، ترجمة جورج طرابيشي ،ط ٣ ، دار الآداب، بيروت. لبنان ١٩٧٣ ص ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ناقش «سارتر Jean Paul Sartre » (١٩٠٥-١٩٨٠) **قضية الاغتراب** من زاوية وجود الذات المحاصر بالآخرين، ولأن ماهية الفرد الوحيدة هي الحرية لدى سارتر، فعليه -الفرد- أن يقاوم تأثير الآخرين ويحمي حريته .

وقد عدّل سارترفي كتاباته اللاحقة على رؤيته للحرية وأسباب اغتراب الإنسان عنها. وبيّن أنّ أسباب ابتعاد المرء عن ذاته، لا تكمن في التهديد الذي يحمله الآخرون فحسب، بل وفي طبيعة الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية التي تُخضع الإنسان لظروف لا تساعد على تحقيق ذاته، وتسلبه إمكاناته على التحقق، وبذلك فحرية الإنسان ليست مطلقة طالما أنه يخضع لهذه الأنظمة، وفي شرحه للاغتراب الحاصل في مثل هذه الحالة تأثر سارتر بطروحات ماركس[١].

وبشكل عام، أعادت الوجودية طرح الأسئلة الأقدم لدى الإنسان المتعلقة بوجوده في هذا الكون، ونهايته المحتومة دون إرادة منه ، ورأت أن القلق والإحساس بالاغتراب جرّاء «الإلقاء في هذا العالم» [٢] متضمن في الوجود الإنساني الذي يعبر عن وجوده بفعله، لهذا أعطت الوجودية أهمية جوهرية للفعل. ففعل الإنسان هو اختياره، وهو الذي يشكل ماهيته ودليل حريته، والفعل يتضمن المسؤولية عن الفعل وعن موقف الإنسان في حياته.

وقد طورت الدراساتُ الاجتماعيةُ الحديثةُ بأبحاثها التحليلية والميدانية معانٍ جديدةً للاغتراب معتمدة بالأساس نظرية العملُ المغترب لماركس، وظاهرة «الأنومي Anomie »كما شرحها دوركايم ، فقد حدّد « دوركايم Durkheim » (١٨٥٨ - ١٩١٧) سبب ظاهرة الاغتراب في المجتمع الرأسمالي، بالتغير الذي طرأ على بنية المجتمع الأخلاقية والثقافية، المترافق مع تحلل المجتمع التقليدي القديم ونشوء المجتمع الحديث، فقد تحللت القيم والمعايير الأخلاقية التي تحفظ توازن

---

١) شاخت: مرجع سابق، ص٢٨٩ ـ ٢٩٤ .

٢) عبد الرحمن بدوي: دراسات في الوجودية.ط١، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة مصر. ص ٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنسان وتضع حداً أخلاقيا لطموحاته اللامتناهية، فأثناء انتقال المجتمع من حالة حضارية إلى أخرى،تنعدم سلطته على الأفراد ولا تعود المعايير الأخلاقية السابقة ذات تأثير عليهم، وهنا يصبح لازماً إعادة بناء نظام قيمي يوجه الأفراد أخلاقياً، وقبل الوصول إلى تنظيم جديد تحدث حالة الأنومي « **Anomie** » التي هي حالة تحلل المعايير[١].

ومن أهم معاني الاغتراب في الدراسات الاجتماعية الحديثة[٢]:

١. **فقدان القوة أو السيطرة:**"Powerlessness" ويتعلق بإحساس الفرد بانعدام قدرته أو تأثيره على مجرى الأحداث والمواقف الاجتماعية في محيطه ،مثلاً إحساس العامل بانعدام تأثيره في النظام الذي يسيّر العمل ويسيّر حياته بالتالي .

٢. **انعدام المعنى :**"meaninglesness" ويتعلق بانتفاء قدرة الأشخاص على فهم الواقع والأحداث،الأمر الذي يجعلها بلا معنى، وينعكس هذا على سلوك الأشخاص بغياب الوضوح في الرؤية في اتخاذ القرار والتنبؤ بآثاره .

٣. **اللامعيارية :**"Normlessness" -"Anomie" وتشير الى حالة انعدام تأثير القيم الاجتماعية على الأفراد، وعندما تغيب المعايير الجمعية تصبح السيطرة للرغبات الخاصة، وتطال الفوضى مجمل العلاقات الاجتماعية .

٤. **الانعزال الاجتماعي :** "Isolation"ويتعلق باغتراب الفرد عن القيم الثقافية السائدة في مجتمعه، ويصنف أحيانا نوعاً من المعيارية، إذ تكف القيم الاجتماعية عن أن تكون مؤثّرة في الفرد، وقد يصل رفض القيم بالفرد إلى حالة التمرد والثورة .

٥. **الاغتراب عن الذات:** "Self-estrangement"ويصف الحالة التي يحس فيها الفرد بأن ذاته وقدراته يُنظر إليها كأداة ووسيلة، خاصة في مجال العمل فلا يقترن العمل بتحقيق الذات، ولايرضي الإنسان حاجاته الحقيقية، ولا يطور إنسانيته .

---

١) قيس النوري، مرجع سابق ص٢٢ – ٢٥ .

٢) السيد علي شتا ، مرجع سابق ص ٢١٧ – ٢٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبذلك لم يعد الاغتراب صناعة برجوازية، إذ تتبدى هذه الظاهرة في كل المجتمعات ،وتظل الحاجة ماسة للكشف عن أسبابه في كل مجتمع، أو حقبة تاريخية، للإسهام في التخفيف منه والتغلب عليه.

وفي نهاية استعراضنا للتطوّر التاريخي لمصطلح الاغتراب وخلفيته الفلسفية والفكرية في بيئته الأوروبية يمكننا استخلاص نمطين عامين له سنوظفهما في هذا البحث ،وهما:

١ – الاغتراب عن الذات:

ويعني الاغتراب في هذه الحالة وجود مسافة بين الذات في الواقع وبين إمكانياتها، وانفصالها عن جزء حيوي منها أو عن ماهيتها، والماهية هنا تعني مجموع إمكانات الإنسان وطاقاته وقدراته المبتدعة تاريخياً التي تسمح له بالوصول إلى لون معيّن من الحياة السوية(١)، أو هي «تحقيق للإمكانات الأصيلة للكائنات»(٢). وقد يكون هذا الاغتراب واعياً أو غير واعٍ، وتختلف مسبباته، فقد تكون موضوعية خارجية أو نفسية داخلية أو تشابكاً بينهما(٣) . أما مظاهره فتتعدد : من انسياق تام في الدور الاجتماعي، أو تبرير لحالة الاغتراب، أو تمرّد على أسبابه.

٢ – الاغتراب عن المجتمع :

ويعني غياب العلاقة المتوازنة السوية بين الفرد ومجتمعه، أنظمة وقوانين وأفراداً آخرين ، ويتبدى في عدة أشكال منها :غياب المشاركة في النظام الاجتماعي لأسباب القمع السياسي، أو التبرير الديني أو إحساس اللاجدوى في التأثير.ومنها نمط العلاقات الاستغلالية سواء بين الرجل والرجل أو بين الرجل والمرأة.واغتراب المثقف .

إذن ؛ يتفق الاغتراب في النمطين السابقين ومعنى الاستلاب إذ يعني افتقاد علاقة الانسجام مع

---

١) إريك فروم. المجتمع السليم. ترجمة محمود محمود. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر ١٩٦٠. ص ٢٨ وما بعد.

٢) هربرت ماركوز. فلسفة النفي. ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ط ١ دار الآداب، بيروت، لبنان ١٩٧١ ص ٦٠.

٣) بشير ناصر – الاغتراب كنقيض لتحقيق الذات ، مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث العلمية، دمشق سوريا ، المجلد ١١ ، ع (١-٢)، ١٩٨٩ ، ص ١٠٢ - ١٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذات،أومع المجتمع أو مع البيئة والمحيط، وفيما يختص بعلاقة الإنسان بمكانه واتصافها بالاغتراب ، فقد أفرد البحث فصلاً كاملاً لتحليل هذه العلاقة في أدب الكاتب، وذلك لحضورها الكثيف في جل أعماله، ولوظيفتها الرمزيّة البالغة الحضور.

وعلى النقيض من مصطلح الاغتراب أو الاستلاب ، استخدمت الباحثة كلمة **التحقق** لتدل على الحالة المقابلة للاغتراب (فحقق و أحقق في اللغة تعنى أحكمَ وصحَّحَ)، مما يتفق ومعنى المراد في البحث وهو الوصول لحالة انسجام صحيح مع الذات والمجتمع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً:الاغتراب في الأدب

لم ينفصل بحث الاغتراب – في الأدب وحياة الأدباء – عن خلفيته الفلسفية والنفسية والاجتماعية، وأول مظاهر الاغتراب في حياة الأديب تبدو في انعزاله عن مجتمعه أي بمعنى إحساس الأديب بالمسافة التي تفصله عن مجتمعه في مجال القيم(١)، الأمر الذي قد يصل به إلى مرحلة التمرّد والثورة فنياً أو واقعياً، نجد مثال ذلك في تخطي أبي نواس للقواعد الفنية الكلاسيكية للقصيدة العربية، وتخطيه للقيم السائدة في مجال السلوك اليومي ومجاهرته بذلك مما حفظته لنا خمرياته ومجونياته. ويُعزى اغتراب الأديب، بمعنى انعدام التوافق مع ذاته أو مجتمعه، لأسباب نفسية أو موضوعية، وشعراء المتصوفة خير مثال على ذلك، إذ تتضمن تجربة الصوفي عراكاً دائماً مع نفسه، منطلقه التقسيم المثالي لماهية الإنسان بين الروح والجسد، وحيث أن الصوفي يرى في روحه جزءاً من روح الله المطلقة المسجونة في الجسد البشري، فإنه يحاول جاهداً أن يحرّرها من سجنها، فيحارب جسده ويختصر مطالبه الدنيوية إلى الحد الأدنى، ويظهر الاغتراب كذلك في علاقاته الاجتماعية، فالمران الروحي يتطلب نوعاً من العزلة ونظرته المستهزئة للطقوسية الدينية السائدة تجعله مستنكفاً عن المشاركة الاجتماعية، فيعيش على مسافة من الحياة الاجتماعية لأنها تبدو له فارغة وعابرة ودنيوية بحتة، ولذلك فإن موضوعات شعره وكتاباته « تنبع من احتقاره للواقع.... و بحث عن معنى الحياة، ونظر في القلق، واللاجدوى من الحياة، وفي قدر الإنسان ومصيره»(٢)، ومن هنا يأتي التوق لتجاوز الواقع عبر الشعر حيث تظهر مكنونات اللاوعي لديه،فهو «يرى نفسه غريباً بين قومه، منعزلاً، وجزيرةً ضمن محيط فسيح؛ يرى نفسه متروكاً لذاته يعيش مأساة الإنسان المهجور الملقى بلا عون، المقهور أمام المصير والوضع البشري»(٣). فالصوفي لم يجد قناعته في الرؤية الدينية السائدة وتحمل تجربته الاحتجاج على قدره، وكونه إنساناً عاجزاً أمام القضايا المصيرية

---

١) قيس النوري : مرجع سابق ص ١٧ .

٢) علي زيعور:الكرامة الصوفية والاسطورة والحلم دار الطليعة بيروت ط ١ ، ١٩٧٧ ص٤٣ .

٣) المرجع نفسه ص ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كالموت، طامحاً للخلود ولأن يكون على صورة المثال(الله).

وتُظهر دراسة حياة المبدعين مستويات عدة للاغتراب، ومظاهر مختلفة للتعبير عنه، بين اختيار القطيعة التامة مع المجتمع كما في تجربة أبي العلاء المعري، أو المغامرة لاحتلال الموقع الذي ترى الذات بأنها تستحقه كما في تجربة المتنبي، أو التمرد والثورة الفعلية على المجتمع كما في تجربة الصعاليك، أو في النقد المقنّع كما في تجربة عبد الله بن المقفّع. وإذن « ليست هذه الجفوة بين الأديب والعصر ظاهرة جديدة في الأدب والفنّ، فما أكثر الأدباء والشعراء والفنانين الذين لم تنشأ بينهم وبين عصرهم صلة تفاهم، ولكن الجديد في الأمر أن هذه الظاهرة لم تعد حالة خاصة فريدة، وإنما أصبحت ظاهرة مشتركة وتجربة عامة لدى أدباء العصر»(١).

وفي تقصي ظاهرة الاغتراب في إبداعات الأدباء شعراً ومسرحاً ورواية وقصة تبقى العلاقة متداخلة بين اغتراب المبدع ومظاهر الاغتراب في إبداعه،خاصة في مجال الشعر الغنائي إذ تبدو القصيدة وكأنها بوحُ الكاتب بمكنون تجربته.

ويمكننا أن نرصد الاغتراب ظاهرة متميزة في القصة و الشعر والمسرح قديماً وحديثاً، فتحمل قصة جلجامش،على سبيل المثال اغتراباً وجودياً عميقاً، إذ تدور الملحمة حول سؤال وجودي يتعلق بالإنسان، ودوره في الكون، وقلقه العميق إزاء الموت، وطموح الخلود والبقاء، وفي الشعر القديم نجد أشعار الصعاليك خير ممثل على الاغتراب عن المجتمع، فهم برفضهم لجانب من قيم المجتمع وتمردهم عليه، ومحاولتهم البحث عن بديل للدفء الاجتماعي إنما يعبرون تعبيراً صارخاً عن الاغتراب، فتجربتهم تتضمن الخروج على الكلّ الاجتماعي بما يعنيه هذا من تضحية بالأمن، وتعريض الذات لخطر أكبر، ووضعها في اختبار دائم أمام نفسها وأمام الطبيعة. وفي المسرح تبدو شخصية «أوديب»في مسرحية «أوديب ملكاً» لسوفوكليس ممثلة للاغتراب تبدأ وتنتهي به ، إذ تُرفض هذه الشخصية قبل مقدمها للعالم، وتعيش الشطر الأكبر من حياتها مغرّبة عن حقيقتها وتنتهي بالتشرد والنفي.

---

١)حسام الخطيب : محاضرات في تطور الأدب الأروبي. . دون طبعة. جامعة دمشق، دمشق سوريا . ١٩٧٥ . ص ٣٣٣ – ٣٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ أكثر مسرحي ارتبط اسمه بمناقشة الاغتراب هو «بريخت Brecht» ذلك أن كشف الاغتراب ومعالجته مسرحياً هدف أساس لمسرح بريخت. حاول بريخت في مسرحه أن يكشف الاغتراب الذي تنطوي عليه الحضارة الغربية القائمة على رأس المال، ورأى أن للمسرح وظيفةً مغايرة عن المسرح التقليدي الذي يكرّس السائد، والوضع القائم، عبر شحن المشاهِد عاطفياً، ودمجه بالأحداث على خشبة المسرح، وهذا الدمج يغرّب المتلقّي عن ذاته فيذوب في ذات البطل، في حين يؤسس بريخت مسرحه بإيجاد مسافة بين العمل المسرحي والمتلقي تمكّن الأخير من إعمال الفكر من أجل التغيير. «وتأسيساً على ذلك فإن بريخت عندما يعالج قصة ما، فإنه يقدمها بشكل يحث المتفرّج على أن يسأل عما يحدث في مجتمعه وفي علاقاته السياسية والاقتصادية والطبقية»(١).

لقد كان بريخت واعياً تماماً لمشكلة الاغتراب كما حلّلها ماركس *، وقد حاول معالجتها تقنياً على مستوى التكنيك المسرحي، وفنياً على مستوى الأبطال المغتربين، باعتبار أن الوعي بالاغتراب،هو الخطوة الأولى لمواجهته وإزالته، ولذلك قدّم بريخت في مسرحه أفكاراً واضحة حول الاغتراب، وتشييء الإنسان في الحضارة الغربية، نمثّل لذلك بمقطع من الأغنية المسرحية التالية:

« ما هو الأرز؟
هل أعرف ما هو الأرز؟
كيف لي أن أعرف، من يعرف ما هو الأرز؟
كل ما أعرفه هو سعره!
ما هو الإنسان؟

١– منى سعيد أبو سنة : الاغتراب في المسرح المعاصر ، مجلة عالم الفكر ، مرجع سابق ص ١٥٥ .

* انظر ص ١١ من هذا البحث.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كيف لي أن أعرف ، من يعرف ما هو الإنسان؟

كل ما أعرفه هو ثمنه»(١).

ولا شك أن مسرح اللامعقول « Absurd Theatre » * لدى روّاده «صموئيل بيكيت Samuel Beckett » * * و «ايونسكو Ionesco » * * *كان طرحا لقضية اغتراب الإنسان في الحضارة الغربية من زاوية أخرى، حيث تتحول حياة الإنسان إلى ممارسة للتفاهة، وانتظار للّلاشيء، وإحساس بالعبث«Absurdity»(٢).

وقد تمثلّ وعيُ الكتاب بقضايا الإنسان وعياً أفضل ، في عصر يشهد تقدماً مطّردا في العلوم الإنسانية، وإرساء الحريات الاجتماعية والسياسية والدينية، مما جعلهم يعبرون عن قضية الاغتراب بمغزاها الفلسفي والاجتماعي والنفسي، بتركيز أكبر. وكان للرواية نصيب وافٍ من هذا الطرح، وهنا تُعد روايات كافكا Kafka * * **من أوائل الروايات التي شخّصت الاغتراب، معبّرة عنه بأحداث فانتازية فـ«جريجور» في «المسخ» على سبيل المثال، الموظّف المواظب الذي يقوم بواجباته والتزاماته على أكمل وجه، يفيق على نفسه ذات صباح فإذا هو

---

١) منى سعيد أبو سنة : الاغتراب في المسرح المعاصر ، مرجع سابق ص ١٦١ .

* مسرح اللامعقول: مفهوم جديد للفن المسرحي، ثار على الأصول الكلاسيكية والرومنسية، وانطلق من مبادئ جديدة تعتمد على صدم المشاهد وتحريك لاشعوره، وعرض واقع وجوده واغترابه. أشهر رواده: جينيه، آداموف، بيكيت، ايونسكو.

** صموئيل بيكيت (١٩٠٦ –) كاتب مسرحي ايرلندي اهتم في مسرحه بتصوير اللامعقول في حياة الإنسان. إهم أعماله: في انتظار جودو ، اللعبة ، الأيام السعيدة.

*** يوجين ايونسكو: (١٩١٢ –) مسرحي روماني، من أهم أعماله: المغنية الصلعاء، الدرس، ضحايا الواجب، الجوع.

٢) موسوعة المصطلح النقدي : ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ، المجلد الأول ، ط٢ دار الرشيد للنشر . منشورات وزارة الثقافة والإعلام . بغداد ، العراق . ١٩٨٢ ، ص ٦٠٩ وما بعد .

**** كافكا (فرانز) ١٨٨٣ – ١٩٢٤: أديب تشيكي، كتب بالألمانية ، عالج في رواياته تفاهة الحياة وسخفها ، منها المحاكمة و القلعة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد تحوّل إلى حشرة كبيرة، والعجيب في الأمر أن «جريجور» لا يدهش ولا يستغرب لهذا التحوّل، بل يتأزم لأن شكله الجديد سيعيقه عن الذهاب للعمل،و يفكّر بالكيفية التي سيتدبّر بها أمره أمام رئيسه وأمام التزاماته العائلية. إن ذاتاً محدودة الأفق وشائعة مثل «جريجور»، تجعلنا نقف ونحدّق في شرطوجودها بعد المأزق الذي وقعت فيه حيث تتحدد قيمة الذات هنا بالدور الاجتماعي والوظيفة التي تقوم بها على تفاهتها، وحيث لهاث الحاجة والاستهلاك لا يتوقف عند مسألة إنسانية، وحيث الأهم من ذلك وهو أن الذات لم تعد ترى نفسها إلاّ ضمن الخطوط المرسومة لها اجتماعياً، إذ لم تشكّل قضية وجودها مسألة هامة بالقياس إلى إحساسها بالواجب والتزامها به بالرغم من كرهها لعملهاولشروطه القاسية. لم يكن تحوّل «جريجور» إلى حشرة إذن، إلاّ الحدث الذي فجّر الدلالات السابقة الكامنة في نموذج الشخصية المستغرقة والمنساقة تماماً لدورها الاجتماعي، والمغتربة عن إنسانيتها دون وعي منها، وما المصير الذي لقيه «جريجور/الحشرة» إلاّ المصير الطبيعي للفرد الذي ينظر إليه كأداة، فإذا ما تعطلت فقدت مبرر وجودها، فحين يستيقظ «جريجور» حشرة ضخمة عاجزة يكون همّه الأساسي في الخروج من السرير قبل أن يفوته قطار العمل، وحين يتعذّر عليه ذلك، يفكر:«ماذا عليه أن يفعل الآن؟.. افرض أنه ادعى المرض ، سيكون ذلك مدعاة للسخط وإثارة الشكّ، فهوخلال خمس سنوات من العمل لم يمرض مرة واحدة، سيحضر رئيسه بنفسه مع طبيب الشركة ليتأكد من مرضه وسيلوم والديه على كسل ابنهم، ويفند كل الأعذار بمساعدة الطبيب الذي يرى أن كل أفراد الجنس البشري أصحّاء ويدّعون المرض.. ولن يكون مخطئاً في حالته، فهو يشعر بالعافية تماماً عدا بعض الخمول الناتج بالتأكيد عن نوم طويل.. حتى إنه جائع على غير العادة »(١)، ولقد أصابه عجزه عن مواصلة وظيفته السابقة بالحزن الشديد : «كان جريجور ينام بصعوبة في الليل أو في النهار، لقد كان مسكوناً بفكرة أنه سيعود ليتولى شؤون العائلة ثانية، حين يفتح

١- كافكا : المسخ ، من كتاب قصص التحول في الأدب العالمي الحديث . دار شرقيات للنشر و التوزيع ، ط١ ، القاهرة . مصر ١٩٩٤ ، ص ٣٥-٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب»(١)،في حين تعاملتْ عائلته مع هذه الورطة بشكل عملي، فرتبت أمورها المادية سريعاً، وأقصت جريجور في غرفته محاولة نسيان وجوده ، إلى أن تخلص الأب منه في لحظة انفعالية بضربة من قدمه، ذلك أن شروط الحياة الاقتصادية والاجتماعية أجبرت العائلة على موقفها هذا إذا ما أرادت أن تحافظ على وجودها المادي والاجتماعي. في أعمال أخرى لكافكا«القلعة» و«المحاكمة» يتعمق تصوير الذات المنزوعةالإرادة والمسيّرة بقوانين خارجية تحكمها بسطوتها وتنصاع الذات لها دونما سؤال، إن ما يثير الدهشة عند قارئ «المحاكمة» هوفانتازية الحدث إذ يتوجه البطل ليحاكم دونما ذنب ودون أن تكون له قضية، ، غافلاً عن أن هذا السلوك يحدث في واقع الحال ولأسباب خارج الذات أيضاً، لكنه لا يثير الغرابة بحكم الاعتياد، وما يفعله «كافكا » هو تصوير اغتراب الذات العادية بوضعها في شروط غير عادية لتخلق الصدمة المرجوّة عند القارئ المستغرق.

وللأدب الوجودي أعظم الإسهام في التعبير عن الاغتراب، وارتهان وجود الإنسان لمصير خارجي: الموت، ويمكن أن نعدّ «سارتر» و «كامو» أوسع الوجوديين تعبيراً عن إشكالية الانسان، وموقفه في الحياة، حيث كان الأدب ساحتهما لتصوير آرائهما الفلسفية.

وفي الأدب الوجودي بعامة، يصور العبء الكبير الملقى على كاهل الإنسان الذي يريد أن يكون نفسه، ويريد أن يصنع لنفسه ماهيته الخاصة أو أن يختار التزامه الخاص، فهو غريب حتى عن ذاته وعن الحقيقة في مجال القيم، فيجهد باحثاً عنها، مدركاً وحدته وإشكالية العلاقة بالآخرين بين ضرورتها وتأثيراتها السلبية، لكن البطل الوجودي يختار في النهاية، فبطل «الغثيان» يختار في النهاية خلاصه الخاص عن طريق الفن حين يقرّر تأليف كتاب يقول البطل:« نحن جميعاً الذين كنا نستسلم للوجود والكينونة.. لقد فاجأنا الألم في المباذل في الانسياق اليومي.. وأنا أيضاً أردت أن أكون، بل لم أرد غير هذا، تلك هي كلمة حياتي الدقيقة»(٢)، «أريد كتاباً – رواية، وسيكون ثمّة أناس يقرأون هذه الرواية ويقولون أن أنطوان

---

١) كافكا: المسخ مرجع سابق ص ٩٣ .

٢) جان بول سارتر ، الغثيان ، ت سهيل إدريس ط٣ ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان، ١٩٨٦، ص ٢٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دوكنتان هوالذي كتبها»(١)، ومن ذلك أيضاً ما اختاره الطبيب في رواية «الطاعون» لألبير كامو * عندما قرّر مواجهة المرض (الموت) وجهاً لوجه بالرغم من عبثية تلك المواجهة، ففي حواره مع رجل الدين يؤكد على مسؤوليته والتزامه تجاه البلاء (المرض) الواقع على الإنسان :«إن ما أكرهه إنما هو الموت والشرّ كما تعلم، وسواء أردت أم لم ترد فنحن معاً لتحمّلهما ومحاربتهما»(٢).

كذلك يصف «كولن ولسون » نموذجاً للشخصية المغتربة وجودياً المبثوثة في الأدب، في كتابه الموسوم بـ«اللامنتمي The Outsider » فيقول:«...أما اللامنتمي فإنه لا يرى العالم معقولاً ولا يراه منظماً ..إن اللامنتمي شخص استيقظ على الفوضى، ولم يجد سبباً يدفعه إلى الاعتقاد بأن الفوضى إيجابية بالنسبة للحياة».يدرس ولسون في هذا الكتاب نماذج أدبية تمثل شخصية اللامنتمي لكافكا،توماس مان، سارتر، ألبيركامو، هيرمان هيسّه، جيمس جويس، همنجواي، ديستويفسكي، تولستوي وغيرهم(٣).

لقد غدا واضحاً أن الفن الذي كان كمرآة تعكس الطبيعة لدى أدباء سابقين، قد أصبح لدى هؤلاء مرآة يرى المرء فيها وجهه هو(٤).

والأدب الحديث بتصدّيه لاغتراب الإنسان وكشفه عن الأسئلة المخبوءة والمتروكة

---

١) سارتر، الغثيان، مصدر سابق ص ٢٤٧ – ٢٤٨.

* ألبيركامو (١٩١٣ – ١٩٦٠): أديب فرنسي ولد في الجزائر، تميّز بقلق الجيل المعاصر وخيبته المتولدة من صدمة الحرب العالمية الثانية، وعبّر عن شعوره ذلك في مؤلفات مختلفة منها: أسطورة سيزيف:دراسة نفسية، رواية الغريب، الطاعون.

٢) ألبيركامو، الطاعون. ترجمة سهيل إدريس ط١، دار الآداب، بيروت، لبنان ١٩٨١، ص٢١٦.

٣)كولن ولسون:اللامنتمي ترجمة أنيس زكي حسن ط٣دار الآداب بيروت ١٩٨٢ص١٤

٤) كولن ولسون، فن الرواية، ت محمد درويش، دون طبعة، دار المأمون للطباعة والنشر، بغداد العراق ١٩٨٦، ص ١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للنسيان، وطرحه للأسئلة المحرّمة، إنما يسلط الضوء على الجانب اللاعقلاني واللامنطقي الذي يسيّر حياة الإنسان دون وعي منه في الغالب، وما موجات الفن الحديث من الدادية* والسريالية* والرواية الجديدة إلا ردود أفعال مضادة للاغتراب بالرغم من اختلاف دواعيه.

و تتضح خصوصية معاناة الاغتراب في الروائية العربية، إذ تكشف الروايات عن مسببات الاغتراب من استعمار وقمع سياسي وفكري، حيث كانت إشكاليات الحرية والاستقلال السياسي والحرية الاجتماعية من الهموم الأساسية للكاتب العربي، وما زالت، لذا جهدت الرواية العربية الحديثة في طرح الموضوعات الحساسة في حياة الإنسان العربي بلغة جديدة، تهدف إلى انتزاع العربي من لامبالاته أو وعيه الزائف، وتصويب نظره إلى مكامن العطب النفسي والسياسي والاجتماعي(١)، هذا ما تقدمه ضمناً روايات «عبد الرحمن منيف» و«غالب هلسا» و«واسيني الأعرج» و «حيدر حيدر» و«جمال الغيطاني» و «صنع الله ابراهيم» وغيرهم .إن ما تريد قوله رواية مثل «اللجنة» للكاتب «صنع الله إبراهيم» ضمن العالم الصادم الذي تكشف عنه، بمزاوجتها بين الواقع والتخييل هو: هذا هو واقع الحال ،على هذا القدر من القذارة والسوء والانحدار. وعلى صعيد الشكل تستعين الرواية الحديثة بكل ما يمكنها لخدمة هدفها، وما استخدام تقنيات الحلم والتداعي واستنطاق اللاوعي والتشظي البنائي إلاّ وسيلتها لذلك.

---

* الدادية DADAIASME: مذهب في الفن والأدب، نشط سنوات معدودة بعد عام ١٩١٧ في سويسرا وفرنسا، وتميّز بالتأكيد على حرية الشكل تخلصاً من القيود الكلاسيكية.

* السوريالية SURREALISME: لفظة بدأ استعمالها عام ١٩١٧، وشاعت في أوساط الأدباء القائلين بتحرير الشعر من المنطق والأغراض الجميلة والأخلاقية، ليعبر عن حركة فكرية أصيلة تغوص في اللاشعور،، تزعمها أندريه بريتون.

١) محمد برادة :الرواية العربية: واقع وآفاق ط١ دار ابن رشد للطباعة والنشر١٩٨١ص١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً: مراجعة الأدبيات

ما تزال الدراسات التي تناولت الأدب العربي من زاوية الاغتراب قليلة، ويجد الباحث أن معظمها عبارة عن دراسات في الصحف والمجلات، وهي دراسات غير موسّعة وغير كافية، على أن هنالك بعض الكتب والدراسات التي بحثت الاغتراب في الشعر والرواية لا غنى للباحث في الاغتراب عنها، ومن هذه الدراسات «الاغتراب في الرواية الفلسطينية- ١٩٥٥ - ١٩٧٨» للكاتب بسام فرنجية، فهذا الكتاب يتحدث عن اغتراب المبدع الفلسطيني انطلاقاً من خصوصية وضعه السياسي والاجتماعي بوجود الاحتلال، ويطلّ كذلك على اغتراب المبدع العربي إزاء واقعه المتردي، ويركّز البحث في حالات اغترابية لكتّاب فلسطينيين تباينت أوضاعهم وتجاربهم، وبذلك يقدّم الكتاب قراءة للنتاج الفكري لجيل من الروائيين متتبعاً غربة شخوصهم الروائية ومتلمّساً اغترابهم في جوانب مختلفة، ومن هؤلاء: جبرا ابراهيم جبرا، غسان كنفاني، إميل حبيبي. وهناك دراسة حول الاغتراب في الرواية الأردنية ١٩٦٧ - ١٩٩٠ وهي رسالة ماجستير للباحثة سمية خصاونة / جامعة اليرموك. وقد حرصت كاتبتها على تصنيف أنواع الاغتراب في الروايات العشر التي تناولتها إلى ثلاثة أنواع فتحدثت أولاً عن الاغتراب الذاتي، وهو الاعتراب عن الذات عند شخوص الروايات، ثم تناولت الاغتراب السياسي عندهم وأخيراً الاغتراب الحضاري وقسّمته إلى قسمين: الاغتراب الحضاري المادي، والاغتراب الحضاري الفكري، حيث بحثت هنا التأثير الغربي في بيئة الشخوص الروائية ونفسياتهم. ويُعدّ كتاب «الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب» من الكتب التي تناولت موضوعة الاغتراب في الأدب بإسهاب، حيث يحتوي الكتاب مقدمة في الاغتراب في الأدب العربي تناول فيها نماذج أدبية مغتربة في التراث الأدبي العربي قديماً وحديثاً، وفي حديثه عن الاغتراب في شعر السياب استفاد الباحث وجهة النظر الاجتماعية للاغتراب فبحث مظاهرها التالية في حياة وشعر السياب: أ-الموضوعية ب - انعدام القدرة جـ - انعدام المغزى د - تلاشي المعايير هـ - الاغتراب عن الذات وحدّد من بعدُ منابع الاغتراب في شعره، وعزاها لأسباب ذاتية شخصية، وموضوعية اجتماعية، ثم بحث مراحل الاغتراب في حياته وشعره ومظاهر اغترابية تبدّت فيهما، وأنهى بحثه بتوضيح مفهوم الاغتراب عند السياب.

وبعد، فقد وجدت الباحثة أن دراسات الاغتراب قد عنيت ببحثه في بيئات ثقافية محدّدة، ولم تجد من بَحَثَ أدب حيدر حيدر من هذه الزاوية، بالرغم من محوريتها في أدبه مما شجعها على اختيار هذا المدخل دون غير لبحث أدب الكاتب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

حيدر حيدر والاغتراب:

أولاً: حيدر حيدر أديباً مغترباً.
ثانياً: تنامي ظاهرة الاغتراب
في أدب حيدر حيدر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ حيدر حيدر، أديباً مغترباً:

حيدر حيدر أديب و كاتب سوري ، ولد عام (١٩٣٨)، يعيش الآن في مسقط رأسه في قرية حصين البحر، على شاطئ البحر المتوسط، بعيداً عن صخب المدينة، متفرغاً للكتابة والقراءة والتأمل ، وخلال حياته الحافلة ؛ أصدرحيدر حيدر نيفاً و عشرة أعمال أدبية بين مجموعة قصصية ورواية هي على التوالي:

١. حكايا النورس المهاجر. مجموعة قصصية ١٩٦٨.

٢. الفهد. رواية. ١٩٦٨.

٣. الومض. مجموعة قصصية. ١٩٧٠.

٤. الزمن الموحش. رواية. ١٩٧٣.

٥. الفيضان. مجموعة قصصية. ١٩٧٥.

٦. الوعول. مجموعة قصصية. ١٩٧٦.

٧. التموّجات . قصتان. ١٩٧٨.

٨. وليمة لأعشاب البحر. رواية. ١٩٨٢.

٩. مرايا النار. رواية ١٩٩٢.

١٠. غسق الآلهة. مجموعة قصصية. ١٩٩٥.

١١. شموس الغجر . رواية. ١٩٩٧ تحت الطبع .

وفي العام ١٩٩٣ صدر للكاتب كتاب بعنوان «أوراق المنفى/ شهادات عن أحوال زماننا»، يضم بين دفتيه مجموعة من المقالات الصحفية والأدبية والرؤى والمشاهدات الشخصية، كتبت في الفترة بين ١٩٧٣ – ١٩٨٨، لكن جلّها كتب خلال عام ١٩٨٢ قبيل الاجتياح الاسرائيلي لجنوب لبنان وأثناءه وبعده، حيث كان الكاتب يعيش في بيروت ويكتب لجريدة «السفير». وتنبع أهمية هذا الكتاب من كونه يقدم صورة واضحة لمواقف الكاتب وآرائه في مجمل الأحداث التي هزّت العالم العربي في العقد السابع والثامن، ويبين لنا مواقفه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الصراع الدائر، ويرسم صورة لرحلة الكاتب منذ مغادرته لوطنه: سوريا، عام ١٩٧٣ إلى حين عودته إليها بصورة نهائية بعد ثلاثة عشر عاماً، واختياره الحياة في مسقط رأسه، قرية حصين البحر قرب مدينة طرطوس .

في بلدته الصغيرة «حصين البحر» كانت بداية المشوار، يقول حيدر حيدر: «أنا من أسرة فلاحية فقيرة، من قرية «حصين البحر» على الساحل السوري، درست بعد وفاة والدي في دار المعلمين في حلب، بعد أن باعت أمي جزءا من أثاث البيت لكي أتمكن من الدراسة، اشتغلت في التعليم فترة من الزمن، وكانت ميولي للقراءة تشغلني كلياً. بداية قرأت لأفهم العالم، ولم يكن في بالي أني سأتحوّل إلى كاتب» (١).

ولقد كان لهذه النشأة الريفية أثرٌ واضحٌ في أسلوبه الأدبي فيما بعد، حيث ظلّ فضاء الريف(الطبيعة) رمزاً للحلم الجميل الذي يبدّده الواقع.

وقد أكثر حيدر حيدر من السفر والتجوال، فقد كان السفر بالنسبة له حلماً جميلاً وواسعاً يستحق المجازفة لأجله، يقول: «كنت مأخوذاً بالرغبة في التعرّف على العالم»(٢).ولم يكن التنقل بالمعنى السابق اغتراباً لدى حيدر ؛ بل كان الاغتراب في نظره المعاناة النفسية التي يعانيها الفرد العربي والمثقف خاصة، جراء تراجع الثورات والهزائم المتلاحقة وتصاعد الحركات الأصولية «الغربة في الروح لا في المكان»(٣)،بالإضافة إلى معاناته الخاصة أدبياً خارجاً على التقليد الاجتماعي والأدبي،وراغباً في التغيير وهزّ القديم « ثمة غربة وجودية أو منفى داخلي يمكن أن يعزل الفنان عن العالم ، خصام أو اشتباك يشير إلى انعدام التكيف أو التلاؤم مع المحيط الخارجي المضاد للحلم»(٤). كانت دمشق المحطة الأولى للمسافر المتشوق

---

١)جريدة السفير، بيروت. لبنان، ٢٠ آب ١٩٨٧.

٢) حيدر حيدر: أوراق المنفى ، ط١ دار أمواج بيروت لبنان ، ١٩٩٣. ص ٥ .

٣) المصدر نفسه ، ص ٦ .

٤) المصدر نفسه ، ص ٣٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لاكتشاف نفسه والعالم، وانطلاقاً من الشكل الذي ظهرت عليه المدينة / الرمز في الأعمال القصصية الأولى لحيدر، نكتشف الغربة التي عاناها الفتى الريفي في مدينة الضجيج، يقول الراوي في «الزمن الموحش»: «دمشق تيهٌ»(١).

وفي الجزائر ، المحطة الثانية، وفي مدينة عنابة بالتحديد يعمل حيدر مدرساً في مدرسة أبناء الشهداء،مشاركاً في ثورة التعريب، ومختزناً تجربته التي سيعبّر عنها في كتاباته التالية :الفيضان، الوعول، وليمة لأعشاب البحر.

يكتب في مذكراته ،التي ستصبح جزءاً من «وليمة لأعشاب البحر» مع تصرّف بسيط « في الرأس أطياف أسطورية باهرة عن ثورة المليون شهيد... وأول ما يصدمك في الشارع أو المقهى ، اللغة اللهجة، خليط مضطرب من الجزائرية المحلية والبربرية والفرنسية وتيارات الفصحى ، والصدمة الثانية، الوجوه الكتيمة المنقبضة، والغاضبة بلا سبب، أما الثالثة فالتعريب السلفي وما يعتقدونه أنه العودة إلى الجذور والأصل والتراث الأول»(٢)، وقد أثرت عنابة/ الطبيعة الإفريقية عميقاً في الكاتب الذي نشأ في طبيعة نقية على شاطئ المتوسط «هنا في هذه الإفريقية الغريبة، المدهشة، المفزعة ينحدر الإنسان نحو الطفولة، يرمي الوعي والتحليل ويندمج في هذا المطلق البكر للشمس والغابة والبحر والعشب.. تشعر بأنك وليد هذه العناصر الطبيعية.. تهرب إلى الماء المالح لتتطهر من دنس الرحم القديم/ فكرة الجنون المتأصلة بما هي عودة إلى الحرية ولوثة اغتراب تشرق على سفوح روحك هنا» (٣).

ومن تجربة الجزائر يكتب حيدر حيدر عن العربي الذي لا يحصد إلا الفشل ،ولا يراكم إلا الخيبة، وعندما يزداد إحساسه بالنفي ، يتخذ من الكتابة سلاحاً مشهراً في وجه الخلل

---

١)حيدر حيدر: الزمن الموحش.ط٤ دار أمواج للطباعة والنشر.بيروت.لبنان ١٩٩٣ ص٦١ .

٢) أوراق المنفى، مصدر سابق، ص ١١٢ – ١١٣.

٣) المصدر نفسه ص ١١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتشوّه «بكشف هذا العار الذي يرى في البشر قطيعاً بهيمياً يأكل ما يُقدّم له بمشيئة الرعاة تستطيع الكتابة أن تقول: لا» (١).

وفي المحطة الثالثة «بيروت» يعيش حيدر حيدر في خضم حرب أهلية طاحنة، وتحمل مجموعته «الوعول» حساً تفاؤلياً بهذه الحرب التي رأى فيها صراعاً بين القوى التقدمية والقوى الرجعية، يقول أحد مقاتلي قصة «وقت للجمر»: « لا تحزني يا جدتي سنبني لبنان الأجمل، وطن الفقراء، الذي يحترق ليس وطننا، إنه وطن التجار والطائفيين وكلاب اسرائيل»(٢)، «ولأول مرة يصعد البحر من حفرته السرمدية، يكسر شرطه المائي وينهض ليجتاح قمم الجبال العصية»(٣)، وتمتدّ تجربة حيدر في بيروت حتى معايشته الاجتياح الاسرائيلي عام ١٩٨٢، ليشاهد عن كثب حصار القوى التي راهن عليها ويرى إجهاضها، وليكتب مقالاته حول الأحداث منتمياً للمقاومة الوطنية الفلسطينية واللبنانية،يكتب: «هذه المعركة الفريدة والفذة في تاريخ العرب المعاصر، قالت لعموم الثوريين في عموم بلاد العرب المنتهكة بالعسكر ومصادرة الحريات : أوقفوا ثرثراتكم اللامجدية وتمنطقوا بالأسلحة»(٤).

وقد كان للهزيمة في بيروت الأثرالجليّ في نفسية الكاتب ورؤيته لحاضر ومستقبل الإنسان العربي،حيث غدا التشبث بمشروع الكتابةخشبة الإنقاذ التي حفظته من هاوية اليأس المطلق «في فسحة السلام والحرب، فسحة الحياة والموت، كان علي أن أواصل مسيرة الحياة، مسيرة الكتابة، وبالكتابة ربما كنت أتوازن وأنا أترنح مولداً من الكلمات هرمونات مضادة للموت والجنون»(٥)، ويكتب من منفاه في نيقوسيا: «في ذاك الزمن كنت الرجل الذي لا

---

١) أوراق المنفى، مصدر سابق ص ٧.

٢) حيدر حيدر : وقت للجمر/ مجموعة الوعول.ط٢ . دار الحصادللنشر والتوزيع. دمشق . سوريا ١٩٨٩ ص ٣٧، ص ٨٨ .

٣) المصدر نفسه، ص ٩٥

٤) أوراق المنفى، مصدر سابق ص ٢٢٣.

٥) المصدر نفسه، ص ٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطن له لأني كنت بلا أمل، لست مغالياً إذا قلت بأن الهاجس الوحيد كان الكتابة والموت، بعد أن تبدّد من رأسي حلم الثورة السياسية المستحيلة التي اغتيلت من محيط الشمس إلى خليجها»(١).

وفي العام ١٩٨٧ قرّ قرار حيدر بالعودة إلى الوطن، إلى حصين البحر، موطن الطفولة الموغلةفي البعد، حاملاً خيباته، باحثاً عن معنى العمر والتجربة التي خاضها عن جدارة «هاأنتذا في الربع الأخير من القرن العشرين، في العقد الخامس من ميراثك الدونكيشوتي لحروبك الخاسرة، تقول لنفسك وأنت في هدأة الغلس الأول، إلى الجحيم هذه الحروب الفراغية، سأنكفئ نحو رحاب النفس»(٢).

كان حيدر حيدر يدرك حجم اغترابه وهوّة العبث التي يمكن أن يسقط فيها، لذا تشبث بصخرة الفن.. خياراً أخيراً للكاتب الذي يرفض الصمت، والدخول في النسيان، والتواطؤ مع التهميش الذي يعانيه مثقف الوطن العربي،يكتب: «ستكتشف عبر الكتابة الاشتباكية المتعارضة أن أسوأ شيء ربما، هو أن تكون كاتباً أو مثقفاًجذرياً في بلاد العالم الثالث وفي بلاد العرب تخصيصاً»(٣) ، فالمعادلةبالنسبة للكاتب العربي هي؛ إما الكتابة أو الصمت أو الانتحار «أنا لست مستقيلاً ما دُمت أبدع، وقد أكون على الهامش في أزمنة التشوّه والانحطاط ولكنني حيّ وشاهد، وأكتب الكلمات التي تقرأ سواء كانت في الكتب أم على الجدران، وفي العزلة أو أقولها في الشوارع والمقاهي والغرف المأهولة، أو على أبواب البحر»(٤).

---

١) أوراق المنفى، مصدر سابق ص ٧.

٢) أوراق المنفى، مصدر سابق، ص ٣٤٨.

٣) المصدر نفسه، ص ٢٢ .

٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعد تجربة بيروت امتدّ صمت حيدر حيدر عشرة أعوام تقريباً، حيث صدرت له رواية «مرايا النار» عام ١٩٩٢، ومن ثم مجموعة «غسق الآلهة» ١٩٩٥، ويحمل العملان تصويراً دقيقاً للنفسية المحطمة في مواجهة وعيها على دمارها واستلابها، وتجريدها من دورها الإنساني المؤثر؛ فالشخوص تتنقّل في مدن مجتاحة بالحروب الأهلية والدمار، باحثة عن معنى وجودها وخلاصها بلا جدوى، لتنتهي أخيراً فريسة القتل المجاني ،أو الانهيار الروحي الشامل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ تنامي ظاهرة الاغتراب في أعمال حيدر حيدر

ينتمي حيدر حيدر إلى أدباء العقد السادس الذين حملوا في أعماقهم ثورة على واقع الهزيمة، وجهدوا ليحققوا هذه الثورة في إبداعاتهم، وظهر أثر ذلك في إنتاجهم الأدبي المغاير لما سبقه شكلاً ومضموناً، فبعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، بدا الأدباء أكثر صراحة في طرحهم للقضايا الاجتماعية و السياسية الحساسة، لاسيما أنهم أعطوا للأدب دواً هاماً على صعيد التغيير والثورة الاجتماعية، وكان التغييرفي الشكل الفني من أهمّ نتائج رؤيتهم الجديدة للواقع ولدور الأدب فيه، حيث كان لاطلاعهم على الثقافة العالمية ومنجزات علوم الاجتماع والنفس والانثربولوجيا أثر واضح في موقفهم من الحياة وفي إثراء إبداعاتهم ،وكان الأديب حيدر حيدر جزءا من هذه الحساسية الجديدة(١).

كتب حيدر حيدر قصص المجموعة الأولى «حكايا النورس المهاجر» في أعقاب حرب حزيران ١٩٦٧، وطرحت في مضمونها العام مجمل ما طرحته الكتابات الأدبية قبيل وبعد هزيمةحزيران، من إدانة للواقع القائم ببعديه الذاتي النفسي ،والجماعي الحضاري (في قصة الشاهد والجمعة الحزينة)، وحملت كذلك إدانة للأنظمة العربية التي خذلت شعوبها (في قصتيّ الشموس الساطعة و كابوس نهار قائظ) ، وعرضت صوراً تفصيلية لأشخاص غارقين في همومهم الذاتية (في قصتيّ الوعل يقتنص صغيراًو هذا البلد الأمين)، والتحولات الانهزامية (في قصتيّ الصدع والهجرة وشجرة الكرز)، بالإضافة إلى التوظيف المبكر لرمزية الطبيعة عبر شخصية «فياض» في قصة «النهر الحليبي». ولا نلمح في هذه المجموعة حضور مكان محليّ خاص، حيث يتوزع فضاء الفعل بين فضاء مفتوح:ساحة معركة، وضفة نهر، ومقبرة خارج المدينة، و فضاء طلق:البار و المقهى والغرفة،أما الشخوص فيحيلون إلى أنماط عامة، حيث يلحظ نمط الشاكي المتسائل (الشاهد ورمزي خير الله)، ونمط الصدامي المواجه(سيد حجاب) ونمط الغريب المنعزل (فيّاض).

---

١) محمود الأطرش. اتجاهات القصة في سوريا بعد الحرب العالمية الثانية. رسالة دكتوراه. جامعة القديس يوسف، بيروت لبنان ١٩٨٠ ص ٢٠٧ – ٢١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقبل هذه المجموعة كتب حيدر حيدر قصصاً متفرقة في مجلة «الآداب»،يقول: «قصصي الأولى نشرتها في «الآداب» وكنت في حوالي التاسعة عشرة من عمري، القصة الأولى التي نشرتها في الآداب نَقَدها «وحيد النقاش» فاتهمني بالوجودية وبالبعد عن الواقع، بعدها بقيت خمس سنوات لم أكتب شيئاً وانصرفت إلى قراءة الشعر»(١).

وقد جاءت المجموعة الأولى ممثلة لهذا التحوّل في لغته الشعرية وصورها الغنية التي تجعل النص أحياناً أشبه بالنشيد:

«فوق أراضي الغرباء مشى، لم تكن له مدرسة، ولا عرف سقف بيت، وما كانت له عشية، وفي لياليه كان ينسج للآلام والأحزان راية..»(٢). «أيتها الأميرة التي عرشها حجر وتاجها شوك، إنني أتشرّد الليلة من أجل أحزانك وأحزاني»(٣)، بل يتحول فعلاً إلى نشيد في بعض القصص:

«أنا مرارة البشر..المنشورة فوق نهر الزمن

أنيني حكاية أطفال ماتوا..وأمطاري توق جنيّات مخبّآت في مدائن الرجال

كذلك كان.. كذلك سيكون حتى يموت الدهر..»(٤)

وفي حين كانت أغلب «حكايا النورس المهاجر» مدينية وكذلك فضاءاتها، فإن رواية «الفهد»الصادرة في العام نفسه، تروي قصة فلاح يثور على النظام الاقطاعي، مستلهمة بذلك قصة واقعية معروفة في مدينة اللاذقية قي الأربعينات من هذا القرن، شاركت هذه الشخصية ضمن «الفَرَارِي» في الحرب ضد الفرنسيين، وعادت إلى القرية بعد طرد الاستعمار الفرنسي

---

١) جريدة السفير، بيروت. لبنان، ٢٠ آب ١٩٨٧.

٢)حيدر حيدر . مجموعة حكايا النورس المهاجر ط٢ دار الحقائق. بيروت – لبنان. ١٩٧٩ ، ص ٣٩.

٣) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق ص ٢٠ .

٤) حكايا النورس المهاجر، مصدر سابق ص ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لتنعم بحقها في السلام والأرض، حيث تكتشف أن واقع الاحتلال والإهانة والاستغلال الذي كان أيام الحكم الفرنسي ما زال مستمراً في السلطة العربية الجديدة، وفي اللحظة التي يثور فيها «أبو علي شاهين» على الدركي ويضربه رداً على الإهانة، يكون قد حكم على نفسه بالموت أو الفرار، ليجد نفسه مطارداً في الجبال، منفياً عن بيته وطفله وأرضه. يتخذ حيدر حيدر من هذا الحدث وسيلة لتصوير التأثير العميق الذي تحدثه حالة الحصار والنفي داخل نفسية «أبي علي شاهين»، الذي يصبح كالكائنات البرية المتوحشة فاقداً حتى إحساسه بقيمة موقفه الذي أورثه هذه التبعات المؤلمة واللاإنسانية «داهمه الحزن والفقد القديمان، لو تفتح الأرض له شقاً ويغور فيه، لو أن حشرة وقعت يوماً في رحم أمه واستراح.. لماذا لا يتعطل دماغ الإنسان ويصير بلا حسّ كالحجر.. وما فائدة الإنسان من كل التعب ، من كل الصراخ؟ آنذاك يبدو العالم هنيئاً ومعمماً بالسلام: لا خوف ولا قتل ولا مطاردة»(١).

وتحمل هذه الرواية موقفاً انتقادياً حاداً ومباشراً لحالة الاستلاب والخنوع التي تسيطر على نفسية الفلاحين، وكأني بها وهي تصور حالة الصمت والرفض المكتوم، تستبطن الجماهير المغيبةعن الفعل في حرب حزيران«٦٧» ودور السلطةومسؤوليتها في حصول الهزيمة، وتستبطن كذلك موقفاً من الثقافة الدينية التبريرية خاصة، في تصويرها الرمزي للقاء «أبي علي شاهين» بالشيخ، الذي يعيش في مكان منعزل ناءٍ متعالٍ على الناس، محايداً وبعيداً عن الصراع الدائر، يتنبأ بمقتل شاهين والنسيان الذي سيلفّه «سيغني لك الناس ردحاً من الزمن لأن موتك أسطورة افتقدوها ثم ينسون»(٢). تمتاز رواية «الفهد» بنَفَسِها الملحمي التراجيدي وكأنها مرثية طويلة لشخصية أبي علي شاهين الذي وُلد قبل أوانه « ولدته الأرض جنيناً غضاً كهليون التلال البري»(٣).

يسير الحدث في رواية «الفهد» تراتبياً حيث يروي لنا الراوي غير المشارك في الحدث، قصة «الفهد»، منذ اللحظة التي واجه فيها الدرك إلى اللحظة التي قُتل فيها ..بتصاعد طبيعي في حين اعتمد

---

١) حيدر حيدر . الفهد. ط ٣ دار الحصاد للنشر والتوزيع دمشق، سوريا ١٩٩١ ، ص ٩٢ .

٢) المصدر نفسه ص ١٠١ .

٣) الفهد، مصدر سابق ، ص ٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكاتب في مجموعة«حكايا النورس المهاجر»تقنية الاسترجاع «Flash BacK » بصورة أساسية ويحمل هذا التباين دلالة مضمونية واضحة، فمجموعة «حكايا النورس المهاجر»تروي قصص غياب واغتراب وتردٍ وانفصام نفسيٍ، فجاء الزمن متقطعًا،والحدث مسترجعًاعبر التداعي،أما« الفهد فتروي قصة بطولية »،وترصد تصاعد أحداثها منذ البداية إلى الذروة فالانكسار.

وحين صدرت مجموعة «الومض» في عام ١٩٧٠، بدت وكأنها قد أخذت على عاتقها كشف الاغتراب في حياة العربي المهزوم في حرب حزيران ١٩٦٧ باستقصائها لنماذج مخذولة، ضائعة تائهة، باحثة عن ملاذ بلا جدوى، حيث تصوّر قصص هذه المجموعةالأسباب الموضوعية التي تقود الإنسان العربي لهاوية الاغتراب.تطرح هذا السؤال:لماذا الإنسان هنا مشوّه على هذا النحو المفزع واللاإنساني؟ ولماذا هو محروم من أن يكون ذاته؟

تحاول قصص «الومض» السفر في نفسية الإنسان العربي وموروثه، لكشف ترسّبات الاغتراب في الروح والذاكرة، وفي الحاضر والماضي. إن معظم أبطالها يصدق عليهم وصف (ضحية)، حتى وهم يتقدّمون إلى موتهم باختيارهم، ذلك أن اختيار الذات والحرية والقيم الإيجابية يعني ـ في عالم قمعي ـ المواجهةَ الداميةَ مع رموز القمع. فيعاني بطل قصة «الصخور» خيبة مريرة بعد ضياع الأهداف التي عاش وعمل لأجلها، توصله هذه الخيبة إلى حالة من التردي وتشتت الوعي والتخبط بين أحلام الماضي وخواء الحاضر،.وفي قصتي «طقوس العار» و «صيف محترق» عودة إلى آثار هزيمة حزيران ووصف لقمع السلطات ونزويتّها، ففي « طقوس العار» يحرم الجنود الذين استعدّوا طويلاً للمعركة من مواجهة العدوّ بأمر السلطات المتواطئة.وحين يخالفون الأوامر ويبدأون القتال، يتعرضون للمحاكمة والتعذيب والسجن، ويعاني الجندي في «صيف محترق» أحاسيس المهانة حين يدرك لعبة السلطات في الهرب من المواجهة وأمام عجزه ينتحر، وفي قصص «القتيل» و«الومض» و «الخسوف» يعبر الكاتب عن علاقات المدينة القاتلة لروح للإنسان، أما في قصتي «حميمود» و«العكر» فيتم قتل رموز النقاء والضمير (حميمود و خلدون).

عانت الأعمال الآنفة الذكرمن توزّع شخوصها ورموزها بين خطّين متقابلين لا يلتقيان؛ الأول منهما يمثّل القيم الخيرة، والثاني منهما يمثل الاغتراب والقيم المزيفة، واعتمدت القصص

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القصيرة على تقنية Flash Back بدرجة أساسيةبالإضافة للغة الشعرية الموحية والتلاعب في الزمن والغموض الذي يكتنف بعضها فتغرق في ضبابية تختلط فيها الوقائع بالأحلام كما في قصص «حالة طلق» و «الصيد وحكايا البشر» و «الصخور».

صدرت رواية «الزمن الموحش» سنة ١٩٧٣، كان الكاتب يعمل حينها في الجزائر، وقد جاءت هذه الرواية التي تدور أحداثها في دمشق عقب هزيمة حزيران ١٩٦٧، كاختزان طويل الأمد لتحليل نتائج الهزيمة في أعماق الشخصية العربية، وفي البنية الاجتماعية النفسية السياسية للمجتمع العربي، وإذا ما كان الشكل الروائي يحمل في ذاته بُعداً أيديولوجياً (١) فإن رواية «الزمن الموحش» المتشظية البناء هي رواية الواقع المتشظي والضائع والمشوش والمحاصر بالعدوّ الداخلي القابع في أعماق الذات ،والخارجي (إسرائيل)، ففي ظل الواقع الجديد المتأزم الذي فرض نفسه على الإنسان العربي بشكل عام والأديب بشكل خاص، بعد هزيمة المُثُل والحلم في حزيران بدأ الأديب العربي يشعر «أن التقنيات التقليدية للقصة لم تعد صالحة لاستيعاب جميع العلاقات الجديدة»(٢)، لذلك كان توجّه الكاتب حيدر حيدر وغيره من كتاب الرواية إلى استلهام تجارب الرواية الجديدة «Novelette » ورواية تيار الوعي«Stream of Consciousness» خاصة، في التعبير عن واقع الحال فنياً، بما يعكس هذا التعقّد والتغيّر الدائب، ويضيء مستوياته الواعية واللاواعية، النفسية والفكرية والسياسية. وقد وضع الكاتب حيدر حيدر نصب عينيه هدفاً كبيراً استهدى به طوال رحلته الفنية،يقول: «الخيبة، الخذلان، التفكك الروحي، كل هذه المصطلحات هي مسائل أساسية في هموم كتاباتي، البحث عن أسباب الفشل وآلياته همّ عميق بالنسبة لي، على المستويين الفردي والجماعي»(٣)، وعن

---

١) فريال جبوري غزول، ايديولوجيا بنية النص، مجلة فصول، مجلد ١ العدد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ١٩٩٣، ص ١٠٩

٢) إبراهيم السعافين، تطوّر الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام. ط ٢ دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. لبنان، ١٩٨٧. ص ٥٣٩ .

٣) جريدة السفير، مرجع سابق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استلهامه لتجربة تيار الوعي في الكتابة الروائية «التي تركز أساساً على ارتياد مستويات ما قبل الكلام من الوعي، بهدف الكشف عن الكيان النفسي للشخص(١)، بما يعنيه هذا من الانتقال من مرحلة الوصف والتسجيل، إلى مرحلة رصد الأعماق النفسية لشخصيات العمل الأدبي، يضيف حيدر حيدر: «هذه الرواية الجديدة، كما نعتقد، يمكن أن تكون في مضمونها رواية الفضيحة والعري والحرائق والهزيمة والصدمة في الحرية والجنس والفكر الغيبي، وفي كسر المحرّمات التاريخية»(٢)،فالرواية الجديدة تعتني بالحياة النفسية للشخوص لرصد أعماقها وكشف خباياها، وأداتها في ذلك تجربة التداعي الحرّ المقتبسة من الطب النفسي(٣). والتركيز على العالم النفسي الداخلي للشخوص في الرواية يشير إلى تغير في زاوية النظر للعالم حيث يتمّ إعطاء اهتمام أكبر لدور الكائن البشري الفرد، والإحساس الفردي وردّ الفعل الفردي، وإلى تحوّل في وجهة النظر للإنسان بإعطاء الدور الأساسي له في تشكيل العالم وتغييره(٤).

من هذا المنطلق، تبدو رواية «الزمن الموحش» رواية نفسية بالدرجة الأولى ، تتراجع فيها الأحداث الخارجية، والوصف الخارجي لصالح إضاءة الأحداث النفسية الجوانيةوالتشريح الداخلي لذوات الشخوص المشروخة التي تمثل شاهداً على جيل بأكمله، هو الجيل الذي تفتح على الهزيمة، وكأن الرواية تحرص على إيقافه في العراء وتركه يعبّر عن ضياعه وآلامه ومكبوتاته على امتداد الرواية. وقد جاءت نتائج تحليل «سعيد يقطين» لبنيـة روايـة «الزمن الموحش» لتؤكّد على ذلك، فقد ميّز الناقد بين صيغتين للخطاب الروائي هما الأكثر حضوراً بين الأنماط

---

١) السعيد الورقي، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، ط١ الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، مصر، ١٩٨٢، ص٩.

٢) أوراق المنفى ، مصدر سابق ص ٦٨.

٣) والتر ألين، الرواية الانجليزية. ت: صفوت عزيز جرجس، دار الشؤون الثقافية العامة(آفاق عربية) بغداد العراق ص ٣٥٦.

٤) المرجع نفسه، ص ٣٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السبعة الممكنة للخطاب الروائي، هاتان الصيغتان هما: المسرود الذاتي: حيث يتحدث المتكلم عن ذاته وإليها عن أشياء تمّت في الماضي ... والمعروض الذاتي :حيث يتحدث المتكلم إلى ذاته عن فعل يعيشه وقت إنجاز الكلام(١)، مما يعني أن الشخصيات تعرض أو تسرد ذكريات وآراء وأفكاراً محاورة نفسها، وحيث يسود ضمير المتكلم ليكشف دواخل الشخصيات، وتغيب شخصية الراوي الذي يسرد الأحداث ويرصد الشخصيات بمعرفة كلية، وفي هذه الحالة «لا نجدنا أمام حدث يسرد ذاتياً، ولكن أمام أفكار تقريرية يصدر بها الحدث أو القول»(٢).

وبذلك، فنحن في رواية «الزمن الموحش» أمام عمل «تحكمه رغبة جنونية في تعرية واقع تبدت خرافاته خرقاً بالية، لم تعد قادرة على وقاية المحكوم من رياح الشكّ المدمرة.. ولقد أظهرت حرب ١٩٦٧ هشاشتها وتهافتها..»(١)، لذا فالشخصيات مسكونة بهاجس الخلاص والحرية والبحث عن قيم جديدة وحرق العالم القديم «إذا لم تتغيّر العلاقات القديمة فنحن نبحر في سفينة مصدّعة تتخللها المياه يوماً بعد يوم والنتيجة هي الغرق»(٢).

حملت الأعمال التالية لرواية «الزمن الموحش» اتجاهاً نحو التعبير الرمزي ذي الإحالات السياسية المتضمنة، وبعد أن كشفت الرواية، الزمن الحضاري العربي وأضاءت استلابه للماضي والموروث، جاءت مجموعتا «الفيضان» ١٩٧٥ و«الوعول» ١٩٧٦ لتسلّطا الضوء على واقع القمع السياسي المحلي بدرجة أساسية، والثورات المسروقة، ولعلّ أكثر ما يميّز هاتين المجموعتين هو الاستفادة من الأحداث الفانتازية لتصوير الواقع اللاإنساني الذي يحاصر الشخوص ويستلّ أنفاسهم وتصوير نفسيات المخذولين والخائبين والسائرين إلى الموت. فهنالك البرابرة الذين يستولون على المدينة، والرجل الذي يتحوّل إلى صرصار، والمشفى الذي تسحب فيه دماء الناس، والفأر الذي بحجم المدينة، وعقبة بن نافع الذي يتحوّل إلى مشرّدٍ في أحياء المدينة، والشهيد الذي ينهض من قبره ليشاهد مدينته تبيع قمصان الشهداء بعد انتهاء الثورة، والروائح والأحماض والغازات الملوّثة في سماء المدينة، والتجارب الغريبة التي تجرى على البشر.

---

١) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ط٢ المركز الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٩٣، ص ٢٧١ – ٢٧٣.

٢) المرجع نفسه، ص٢٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتستبطن المجموعتان كذلك نتائج الثورة الجزائرية، نموذج الثورات العربية في القرن العشرين، وخديعة الإنسان الذي انتمى إلى أهداف وقيم، فضحى بحياته لأجلها وحصد الفقر والنفي في النهاية، فالشهيد الذي ينهض من قبره ليطالع مدينته المحررة يصطدم بمدينة أصبحت سوقاً للبضائع والقيم، فيقرّر العودة إلى قبره، والمناضل «بن جلّون» الذي فقد بصره في حروب الثورة، يعيش منفاه خلف حاجز العتمة، هو وكل مشوهي الحرب الآخرين، و«الأزرق» تصطاده الشرطة الوطنية. وفي ظل هذه النتائج يغدو التيه والتخبط سمة أشخاص المجموعتين، فهم يفتقدون التوازن الروحي الداخلي بفقدانهم القيم والأهداف التي ظنّوا أنها تستحق الكفاح، ففي «الفيضان» يبحث «محمد الجنابي» بين الحلم والواقع عن قبيلة تقيم العدل في الأرض، وفي «الوعول» يعيش البطل في دوامة من الكوابيس والاتهامات والشكوك تحت وطأة المطاردة والحصار وذكريات المذابح والقتل، فيقتل حبيبته ويقف في العراء متروكاً لأحاسيس العبث واللاجدوى والاجتثاث من الجذور. إن الضوء الوحيد الذي تعبّر عنه المجموعتان يتمثل في خيار دخول النار والصراع من أجل اقتلاع قوى السلب، مما يعكس رؤيا حيدر حيدر التي تتلخص بأن الحياة صراع لا حياد فيه، وأن الحياد بذاته موقف هروبي، هذا ما تفصح عنه القصص بالرمز، أو بالقول المباشر كما في قصتي «وقت للجمر» و«من هنا تعبر الحرب».

وتظهر المؤثرات الأولى للحرب الأهلية اللبنانية واضحة في قصتي «من هنا تعبر الحرب» و«وقت للجمر»، و تكشف عن الأمل الذي عوّل الكاتب عليه في انتصار قوى الثورة المبشرة بالقيم الاشتراكية على رموز الطبقات المسيطرة. إن ما لم تقدر عليه الثورة في الجزائر، قد تقدر عليه الثورة في لبنان، هذا ما ألمحت إليه القصص. وفي قصة «الميراث» تستعاد تجارب ثورية في التاريخ العربي، ثورة «أبي ذر الغفاري »و«الجعد بن درهم»، ومن ثم القرامطة لتؤكد النظرة المشار إليها مسبقاً، بأن التاريخ صراع يلعب فيه الإنسان الفرد دوراً أساسياً.

ولقد رصدت «التّموجات»تراجعاً مهماً آخرفي الحركات الثورية العربية، فلقد كان المدّ الثوري الفلسطيني في بداية السبعينيات قادراً على تزويد الثوريين العرب بالأمل في اجتياز هاوية الهزيمة ومواجهة الذات والعدو، ويعطي البطل «نافذ علان» في قصة «حقل الأرجوان» مثالاً

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على اجتياز اليأس وعقدة الدونية إلى الفعل وإثبات الذات حين اختار معركته السياسية مع العدو الإسرائيلي، والاجتماعية مع الثقافة السائدة في بيئته الاجتماعية ذات الجذور السلفية الغيبية، ونلاحظ هنا أن سرد سيرة «نافذ علان» يتمّ بأسلوب تصاعدي تراتبي مشابه لسرد سيرة «أبي علي شاهين» في رواية «الفهد» ، ذلك أن حياتهما تتقدم من الاستلاب إلى اختيار المواجهة، وتتصاعد حتى النهاية العاصفة: الموت البطولي بعد حياة اتسمت بالكفاح. وكما انتهى «الفهد» غيلة بسبب وشاية خاله، كذلك ينتهي «نافذ علان» غيلة بسبب وشاية مختارحارته، وتبدو القصة الثانية «التموجات» مكملة للقصة الأولى، فترصد لنا بأسلوب حكائي متشظٍّ مفكك س، مستويات زمنية مختلفة لشخصية «بشر الغزاوي» بين صعوده: فدائياً قاتل ببسالة في معركة «تل الزعتر» وهبوطه: رجلاً منتفجاً، مسكوناً بوهم العظمة والثورية، وعبر هذين النموذجين، يتابع القارئ الخط النازل للحركة الثورية الفلسطينية، من أهداف التحرر إلى أطماع السلطة والمكاسب في رؤية انتقادية حادة خارجة من دائرة تمجيد «الفدائي» الفلسطيني المطلق الذي وقعت فيه قصص وروايات لكتاب آخرين.

وفي العام ١٩٨٠ صدرت رواية «وليمة لأعشاب البحر»، العمل الأضخم في نتاج حيدر حيدر، حاملة صورة مجهرية مفصلة للواقع العربي بشرائحه الطبقية المتصارعة ومستوياته النفسية الحضارية المختلفة، مرسيةً تقليداً في طريقة تعبير الكاتب ومراوحته بين القصة والرواية، فقد قدم حيدر حيدر مجموعات قصصية سبقت رواية « الزمن الموحش» وهي في أغلبها قصص رمزية تدعمها اللغة الشعرية، تحيل إلى إشكاليات الحرية وتحقق الذات والاغتراب، في واقع عاش هزيمة نفسية هشمت صورته لذاته وقيمه، ثم جاءت «الزمن الموحش» لتكون عملاً تفصيلياً صادماً واضحاً في إحالاته الواقعية بعيداً عن الرمز، حاملاً معالجة أكثرعمقاً ، وفيما بعد كتب حيدر حيدر مجموعات قصصية غلب عليها الرمز أيضاً وأحالت إلى نتائج الثورة الجزائرية والمحاولات العربية المجهضة في النهوض، لتأتي بعدها رواية «وليمة لأعشاب البحر» مسهبة في تحليل الفشل الجزائري والعربي بعامة، السياسي منه والاجتماعي، بلغة مباشرة واضحة صادمة للوعي التقليدي طامحةً «كتابة التاريخ الفني للمخاض السياسي والاجتماعي في كل من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجزائر والعراق خلال العقدين الفائتين، وفي هذه التأرخة الروائية يقذف حيدر حيدر بسائر المحرمات الجنسية والسياسية والدينية في عرض الحائط ويتحرر من سائر الرقباء»(١)، الأمر الذي سيتم إيضاحه بتفصيل في الفصل المخصص لتحليل مظاهر الاغتراب في الرواية.

ويهمنا هنا أن نرصد الملمح التالي في رحلة حيدر حيدر الكتابية، ففي رواية «وليمة لأعشاب البحر» وكل الأعمال السابقة لها، كانت رؤية الكاتب للاغتراب عن المكان، الاغتراب عن الذات، والاغتراب عن المجتمع، تعبر عن خطين واضحين للصراع؛ الأول يتجلى في اعتداء رموز الاغتراب على الحياة والثاني يتمثل في دفاع رموز اللااغتراب عن هذه الحياة ومواجهتهم البطولية لكل رموز الاغتراب، حتى في القصص التي عرضت للاغتراب اللاواعي كـ «أغنية حزينة لرجل كان حياً» على سبيل المثال، وفي رواية «الفهد» وبالرغم من النهاية البائسة التي انتهى إليها «شاهين» دون أن ينتبه أحد لموته، فقدحمل النص نبوءةً ظهرت في تشبيه الكاتب للفهد بالجنين المولود قبل أوانه، وقد كان الفهد ثائراً سياسياً انفعالياً، فلاحاً أمياً، وعلى صعيد الوعي الاجتماعي لم يكن ليختلف عن غيره من فلاحي قريته، بينما نجد الشخصيات في «حكايا النورس المهاجر» أكثر وعياً على اغترابها السياسي بربطه بالجانب الاجتماعي «، وكذلك تحاول الشخصيات في مجموعة «الومض»، تلمّس أسباب اغترابها، (في قصص صيف محترق، العكر، الصخور، الومض)، وفي رواية «الزمن الموحش»، بالرغم من حس التشاؤم الذي يكاد يصل حدّ اليأس لدى أبطال العمل بلا استثناء، وبالرغم من نبوءة المستقبل المعتمة «ولادة الجنين ميت»، فإن شخصية «منى» تظل محملة بالمعاني الإيجابية التي سلمت من التلوث، وحافظت على نقائها الداخلي، مع ملاحظة التطوّر في وعي الشخصية على جذور اغترابها النفسية والحضارية الاجتماعية والسياسية، وكذلك في مجموعتي «الفيضان» و «الوعول»، ثمة الإنسان الرافض والمحارب، بعنف وصدامية، رموز اغترابه، غير مبال بالنهاية الذاتية الفردية، إيماناً منه بالقادم الأفضل، وقدحملت شخصية «نافذ علان» في

---

١) نبيل سليمان، الواقع ، التخييل، الأدلجة في الرواية العربية الحديثة، ط ١ دار الحوار، اللاذقية. سوريا. ١٩٩٢ ص ٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قصة «حقل الارجوان»حسّ التفاؤل بموتها البطولي، في حين عبّر الحضور الرمزي لشخصية «غيلان الدمشقي» الشاهد لانهيار «بشر الغزاوي» في قصة التموجات عن الحس المتفائل الايجابي بما يحمله في الذاكرة الجمعية من صورة مشرقة للثائر الصلب.

وحين نصل في استقصائنا لرواية «وليمة لأعشاب البحر» التي تؤرخ فنياً لانهيار حلم العربي بالثورة الجذرية ومواجهة المعوقات القديمة في السياسة والاجتماع، فإننا لا يمكن أن نغفل ادلالة التي تحملها شخصية آسيا(المستقبل)، في مواجهة التردي الذي وقعت فيه الشخصيات الأخرى (الحاضر). حيث تطل آسيا بصفات الصلابة والتفتح العقلي والصبا ذات حضور قوي يطبع الرواية كلها بإمكانية التحقق التي ينبض بها الواقع حين تواجه الذات نقصها بروح التجاوز، وتمتلك وعياً صائباً على إشكالياتها الحقيقية.

هذا الحس التفاؤلي الذي يمكن استشفافه في الأعمال السابقة، يختفي تماماً في آخر عملين كتبهما حيدر حيدر، وهما رواية «مرايا النار» ١٩٩٢ومجموعة«غسق الآلهة» ١٩٩٥.

تكشف لنا رواية «مرايا النار» – المكتوبة بأسلوب تيار الوعي المتراوح بين الاسترجاع والحلم والهذيان واستشراف ـ العوالَم الداخلية لأشخاصها الثلاثة: ديمانة وزوجها و ناجي العبد الله، راصدة الاستلاب والقصور النفسي الذي يحوّل الثلاثة إلى كائنات فاقدة لتوازنها وتماسكها الداخلي، واقعة في مأزق وجودها دون أن تتمكن من استيعابه أو السيطرة عليه، نتعرف في الرواية على الجذر الاجتماعي/ النفسي/ السياسي لمأزق هذه الذوات– ديمانة وزوجها المسكونين بالإرث الاجتماعي المحاصر، وناجي العبد الله الهارب من مذابح بيروت الواقع فريسة أشباح الموت والانتهاك وأحاسيس الخصاء وعبث الوجود المحكوم بقوة البارود والتقاليد القديمة.

وفي مجموعة «غسق الآلهة» تكاد تطالعنا النفسية المحطمة ذاتها، فالفضاء مدن لوّثتها الحروب، وانعدم فيها الأمن، أفرادها يشعرون بالاختناق ويعجزون عن إقامة علاقات سوية، ملاحقون بأحاسيس الدونية والنقص وانتفاء القيمة، تجتاحهم حالات العبث والسأم والاشمئزاز من الحياة، ينتحرون أو يقتلون بمجانية. شخوص قصص «غسق الآلهة» لا يكرهون الحياة لذاتها، بل يعيشون في أجواء اجتماعية ونفسية وحضارية، تجبرهم على الانسحاب من الحياة، وتحولهم إلى كائنات مشوهة ممسوخة، دواخلها معطلة عن النبض.فشخوص «غسق الآلهة»

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحملون موروثاتهم من طفولة منتهكة، وحروب أهلية وتهميش لوجودهم وإنسانيتهم فتنكمش طاقة الحياةفي أعماقهم وتظل ذواتهم نهباً للخوف والألم : «الطيوف والأخيلة والظلال.. موشورات ما كان يحدث في الخارج من سلب ونهب وقتل وتذويب بالأسيد، ومعارك التهريب.. واستشراء العنف ، تجليات حتمية لانهيار العالم وعطب الضمير وفساد الدماغ، كانت هذه التجليات الموسيقية المحمولة داخل شحنات من الرصاص، تنعكس على الشاشة الحساسة داخل أغساق ليالي الوحشة وغياب إيفا»(١)، إن الخلل الروحي الذي أصاب الذوات هنا يفصح عن جذوره النابتة من ظروف لا إنسانية، تقهرها دون إرادة أو قدرة.

إن حس الاغتراب المتعمق في العملين السابقين، بحملهما أصداء المذابح في لبنان ١٩٨٢ إنما يشير إلى الأثر المتعاظم في نفسية الكاتب للهزيمة في بيروت ٨٢، والهزائم اللاحقة لها، بما يضيّق أكثر فأكثر من أفق الحلم الذي احتله الاغتراب الروحي/ النفسي والاجتماعي/ السياسي.

---

١) حيدر حيدر، طائر الموت/ مجموعة غسق الآلهة، ط١ دار أمواج للطباعة والنشر، بيروت. لبنان. ١٩٩٥ ص ٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الاغتراب عن الذات

أولاً: الشخصية المستغرقة في ذاتها.

ثانياً: الشخصية الهاربة من ذاتها.

ثالثاً: الشخصية الباحثة عن ذاتها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدخل

يُعنى الاغتراب عن الذات بوصف حالة الإنسان حين يُغرَّب عن قدراته ويُحال دونه ودون تطوير ذاته وممارسة حريته واختياراته واختبار إمكاناته، لذا يعيش الإنسان في هذه الحالة تناقضاً بين الطموح والواقع، بين ما يريد وما يحقّق، ويعاني عدم الرضى ومشاعر الإحباط والضياع واليأس.

في هذا الفصل نهتم بوصف حالات الاغتراب عن الذات لدى الشخصيات في النصوص قيد البحث، مضيئين مظاهر الاغتراب وحركة الشخصية لتجاوزه أو لتكريسه وتقبّله، ومستكشفين الأسباب الذاتية والموضوعية الكامنة خلفه، للخروج بأهم وأبرز الأنماط والنماذج المتكررة فيها وقد تبدت في ثلاثة نماذج أساسية هي:

أولاً: نموذج الشخصية المستغرقة في ذاتها.

ثانياً: نموذج الشخصية الهـــاربة من ذاتها.

ثالثاً: نموذج الشخصية الباحثة عن ذاتـــها.

تعكس النماذج السابقة حركة تصاعد في الوعي فالشخصية الأولى لا تعي اغترابها، وتقف عند حدّ المعاناة والألم، والثانية انتبهت إلى ظروف حياتها اللاإنسانية وإلى اغترابها عن ذاتها، لكن حركتها وقفت عند حدّ المعرفة والهرب من مواجهة الواقع والذات، لنصل أخيراً إلى الشخصية الثالثة وهي التي وعت أسباب اغترابها واتخذت موقفاً بمجابهتها ومحاولة تجاوز الاغتراب وقهره ، بغضّ النظر عن نجاحها في مسعاها أم فشلها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً: نموذج الشخصية المستغرقة في ذاتها

تتصف هذه الشخصية (النموذج) بحسّ الاسترخاء في همّها الشخصي أو أوهامها الذاتية ولذلك تغفل عما يحيط بها، وتفتقد المسافة اللازمة لتأمّل آلامها من أجل الخروج بحلّ لها أو الوقوف على أسبابها، وتتنوع مظاهر التعبير عن هذا الاستغراق.. بين إدانة الظروف والحظ والقدر، أو اللهاث وراء الرفاهية المادية والاستسلام للدعة والقناعة والرضى بالأمر الواقع، أو اختيار الخلاص الفردي الآني والمؤقت، وتستعين النصوص أحياناً بالرمز لتكثيف حالة الاستغراق والغياب عن الواقع، وعن تحقيق الذات. وكذلك تحيل النصوص إلى أحداث واقعية دالّة في تاريخ العرب المعاصر، كاشفة الخلفية الاجتماعية والسياسية التي انطلقت منها الشخوص. والنماذج التالية تمثل الشخصية المستغرقة في ذاتها بأبعادها المختلفة، وحركتها العاجزة وانغلاقها على همّها الفردي، مع ملاحظة أن الاستغراق مثلما تمثله شخصية واحدة فقد تمثّله جماعة أو طبقة أو جيل.

– مظاهر الاغتراب وحركة الذات لتجاوزه:

تستمرئ الشخصية المستغرقة في ذاتها إحساسها بالعجز وتعبّر عن طموحاتها الشخصية بوساطة أحلام اليقظة .ونجد مثالاً لها في قصة «هذا البلد الأمين» ، فبعد أن بدّد «رمزي خير الله» أمواله على أصدقائه غير المخلصين وخانته زوجته، اتخذ حانة أبي ناصيف مرفأً له ، وفي حالة الثّمالة يردد أوجاعه وخيباته، ويحلم باغتصاب النساء وتحرير الأوطان ويدين القدر : «من سنين حطّ الزمن فوقي وما قام»(١)، ولا يرى غير الخمر ملاذاً «بعد أن خانني الزمن والزوجة.. بقي الخمر وحده لا يخون» (٢).

تدور الشخصية السابقة في مدارها الخاص والمغلق نادبة حظها ، معبرة عن عجزها في أحلام اليقظة ونشوة الخمر وترداد قصص الماضي البطولية التي لا يصغي إليها أحد. يتكرر هذا المثال في قصة «النمل والقات» المستفيدة من الرمز لتكثيف دلالة الاسترخاء والخدر

---

١) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق . ص ٩٦ .

٢) المصدر نفسه ص ٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فـ «محمود بن عبد الله الزبيري» ذو الجسد البالغ الضخامة يسترخي تحت شجرة ماضغاً قطعة من القات المخدر، وكلما استغرقه الخدر تنوّعت أحلام يقظته التعويضية..حلم البطولة والفروسية، الثراء والسطوة، الثأر من الأعداء وإرضاء الغريزة.. وأثناء ذلك وجد النمل الضئيل طريقه الى الجسد الضخم «وهكذا بدأ محمود بن عبد الله الزبيري يثأر من أعدائه واحدا واحدا، وهو مستلق فوق عرشه، بينما النمل الصغير الحقير يصعد الجسد السابح في غيبوبته وأحلامه، كان النمل يشق دروبه متقاطراً على مهل وهو يغزوه بطمأنينة»(١).

لا تبدوالشخصية المستغرقة فاعلة إلا في الحلم، وما يعمّق هذه الدلالة النهاية التي انتهت إليها كلتا الشخصيتين . فـ «رمزي خير الله» غرق في نهر دمشق الصاخب ، و«محمود» انتهى وليمة لجيوش النمل السعيدة.

يتخذ العجز شكلاً آخر يتجلى في القناعة وإحساس الرضى والسعادة، بالرغم من تخلّي الذات عن مسؤولياتها الأخلاقية، مثال ذلك شخصية «مسرور» في رواية «الزمن الموحش» ، فمسرور الفلسطيني قدم دمشق مع من قدم هرباً من الاحتلال الاسرائيلي ١٩٦٧، واختار الاستقرار فيها بتزوجه من امرأة دمشقية، يخرج في الصباح إلى عمله ويعود مساء إلى بيت جيد التأثيث، وفي بيته الشبيه بالكهف «القبو» ينأى عن الصراع الدائر. والتناقض الذي تطرحه شخصية «مسرور» يظهر إلى السطح مع مقدم والده من فلسطين وما يحمله هذا القدوم من دلالة،حيث يتقابل جيلان متناقضان.. فالجيل الذي يمثله «مسرور» انساق لمتطلبات الذات والهمّ الشخصي الخاص، وبدا عاجزاً وضئيلاً أمام الجيل السابق له «كبحرٍ صافٍ في صيف هجرته الريح، بدا مسرور ، غريباً في براءته وبساطة حياته التي تصل حدود السذاجة، غير أن انكساراً خفياً كان يطلّ من أخاديد وجهه الهرم.. » (٢).

وفي قصة «التّموجات» انسياق آخر يطال حياة شخصية قاومت ببسالة في معارك «تل

---

١) حيدر حيدر: مجموعة الفيضان. ط٣. دار الحوار للنشر والتوزيع. اللاذقية، سوريا ١٩٨٦ ص٧.

٢) الزمن الموحش . مصدر سابق . ص ١٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزعتر» ونجت من المذبحة، إن شخصية «بشر الغزاوي» الاستعراضية والمستمتعة بالتنظير السياسي ، لا ترى الدائرة المقفلة التي أصبحت تدور فيها: خمر ونساء وفنادق الدرجة الأولى والتغني بالماضي الشخصي «ويتابع وهو عارٍ بثياب البحر.. كيف كان يقود المظاهرات، وكيف اعتقل لأول مرّة من البوليس المصري في غزة.. كان يشرب الخمر بوحشية ، ويخوض شجارات دامية مع أولاد الحيّ وكان دائماً هو المنتصر..» (١). تتبدى القناعة هنا في إحساس الشخصية بأنها قدّمت كل ما يمكنها أن تقدّمه لشعبها وقضيتها وتتأكد الدلالة في استحضار شخصية تاريخية ثائرة «غيلان الدمشقي» المنفيّ عن دمشق والمنصت بسخرية لبطولات صاحبه «بشر الغزاوي»، وفي الحالتين السابقتين: حالة «مسرور» وحالة «بشر» تنفصم الشخصيتان عن مسؤولياتهما وتطغى هموم الأنا الذاتية، إذ بالرغم من عدالة المطالب الذاتية فإن الاستغراق فيها يغدو وبالا على الشخصية ذاتها، لقد انتهى «مسرور» بأن قتل زوجته «ديانا» بدافع الغيرة والشكّ، وفي فعل القتل غير دلالة سنتطرّق إليها في موضع آخر من البحث، وانتهى «بشر الغزاوي» بالسقوط من نافذة فندق في الطابق السابع مخموراً مذعوراً.

عرضت النماذج السابقة لشخصيات مفردة، استغرقت في ذاتها وحلمها أو شقائها الفردي، وأغمضت عيونها عما حولها وعن حقيقة ما يدور، لكن النصوص القصصية تطرح أيضاً حالة الاستغراق والخدر الجماعي الذي يتبدى، أكثر ما يتبدى، في شكل الجموع التي تعيش على التبرير والقيم الزائفة، وتنساق إلى الاستهلاك والعنف غافلة عما يهدّدها ويتربص بوجودها، وغافلة كذلك عن إهدارها لإنسانيتها كما سيتضح أثناء استقراء الأمثلة.

يسهر الناس في قصة«النهر الحليبي»على اجترار ماضيهم البطولي، وهذه الاستثارة عبر الحكايا تقوم بدور حلم اليقظة، إذ يشعر المستمعون بالنشوة والبطولة مع توهج الحكايا.. «فتمتلئ النفوس بالهيجان والغضب وتتوتر العضلات شوقاً الى حرب بسوس جديدة، ويتحوّل العنف راية منشورة فوق تلال النفوس» (٢). أما في قصة «العكر» فيعيش الناس

---

١)حيدر حيدر. التموجات. ط٢. دار الحوار للنشر والتوزيع. اللاذقية سوريا ١٩٨٦ص١٦٦

٢) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق . ص ٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قيمهم المتناقضة برضىً غامر «كان الناس يحبون ويضحكون ويخونون ، يُصلّون ويسكرون بطمأنينة رخية تحت خيمة الأمـــان..» (١). وكذلك الأمـــر في «الصيـــد وحكايا البـــشر»: « التائهون يتكاثرون كجراد الجوع، يحصدون أنفسهم والآخرين.. يشهدون الزور ثم يرتلون الآيات..»(٢). ذات الصورة تتكرر في قصة «خميمود» «.. من أموالِ الزكاة يشترون الأراضي ويعمّرون البيوت ويتزوجون الفتيات النضرات بينما فقر العامة ماضٍ»(٣).

يتمظهر الاغتراب كذلك في شكل العجز الكامل والشلل الذي يقيد حركة الناس الذين تحولوا إلى «قطعان صامتة باحثة عن عشبها وحظائرها في أوائل المساءات..» (٤).

إن الاغتراب عن الذات بالاستغراق في مطالبها البيولوجية يجعل من الناس صوراً مخاتلة، فهم ينتمون بشكلهم إلى البشر لكن انفعالاتهم واستجاباتهم غريبة. تسأل المرأة العارية في المدينة: «لماذا الناس ليسوا هم؟» (٥) وفي «الزمن الموحش» صورة أوضح للناس الذين يعيشون أعمارهم في «النسيان واللاشعور خارج الزمن الحقيقي المخصص للجسد والنفس، أنهم لا يدركون كثيراً المعنى الكبير لوجودهم، إذ يسأل أحدهـــم: لماذا أنت هكذا؟ يجيب جميـــع الناس هكذا» (٦)، وفي قصص «القتيل» و «أغنية حزينة لرجل كان حيّاً» و «غبار الطلع» و«طائر الموت»عنف وخوف غيرمبررين يحكمان علاقات الناس وذواتهم «الناس مسرعون، لكن الخوف مرتسم في قسماتهم، حركاتهم مضطربة كأنهم مطاردون»(٧)، لكن أحداً لا يفكّر بالسؤال: لماذا؟ «لاذوا بالصمت أو اللامبالاة، عقّلهم الخوف والحزن الكتيم»(٨).

---

١)حيدر حيدر. الومض.ط١. اتحاد الكتاب العرب. دمشق سوريا ١٩٧٠. ص ١٢٩.

٢) الومض. مصدر سابق ص٧٠.

٣) المصدر نفسه.ص ١٠٨.

٤) غسق الآلهة مصدر سابق.ص ٢٩ .

٥) الومض . مصدر سابق ص ١٤٤.

٦) الزمن الموحش. مصدر سابق . ص ١٦٣ .

٧) الومض. مصدر سابق ص ٥٣.

٨) المصدر نفسه. ص ١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نلاحظ من الأمثلة السابقة للاغتراب عن الذات ، نموذج الشخصية المستغرقة في ذاتها، أن حركة هذه الذات نحو الخلاص والتجاوز معدومة، وإذ تستشعر الذات أن المعاناة قدرها الخاص الذي لا رادّ له ، تلجأ للتبرير وأحاسيس العجز لتداري تردّيها، أما الذات الراضية فتستعين بمفهوم القناعة والقدر لتبرر سكونها وصمتها أمام مسؤولياتها، أو هي تعيش وهم عظمتها وتحققها الخادع والزائف الذي يتكشف عن نهايات بائسة ومؤلمة، فالوسائل التي اصطنعتها الذات لمواجهة ترديها زادت في تكريسه، وأوجدت له المسوغات باسم العجز أو الخوف ولم تؤجل الخراب إلا قليلاً، هذا ما تحمله دلالات انطفاء الأفراد المستغرقين في ذواتهم، الجموع المخدّرة والغائبة عن ذاتها.

القسم التالي من البحث سيضيء جانباً آخر من اغتراب الذات ، هو اغتراب الشخصية الواعية على أسباب اغترابها ، ومكمن تهديدها وحصارها ومعاناتها جرّاء الاستغراق والنسيان، لكن حركتها في التغيير تظل محدودة وفردية وسلبية كذلك، فهي ذات مصدومة بنفسها وبواقعها، لكن إحساسها بالعجز أوقف الحركة الإيجابية لديها، فهربت نحو خلاص فردي أو ظلّت تحدّق في أخطائها وتعددها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً: نموذج الشخصية الهاربة من ذاتها

ترفض الشخصية الهاربة من ذاتها ما تتعرض له من تغييب وإهمال وتهديد واعتداء ، لكن فعلها محدود لا يصل بها إلى التوازن النفسي والانسجام الذي تريد، ذلك أن اكتشافها لأسباب الاغتراب ومصادره يضعها أمام مواجهة كبرى تعجز أمامها ، لذا تفضل الهرب فتهاجر، أو تسكر، أو تدين عجزها وقصورها، تُنظّر للخراب والعبث، أو تحاول الانسياق والنسيان وقتل ما ينبض في داخلها.

– مظاهر الاغتراب، وحركة الذات لتجاوزه:

تختلف ردود أفعال الشخصيات حين تكشف عن جانب من جوانب الاغتراب، وتقف على أسبابه أو بعض أسبابه.. في قصة«الشاهد والجمعة الحزينة» يخرج البطل مع من خرج من أهل مدينة داهمها العدو، يصدمه منظر اللاجئين الهاربين «بشرمذعورون يحملون أمتعة، بعضهم يسيرحافياً وبعضهم الآخرلفّ حول حوضه أقمشة،حول الذهب الذي يملكه..» (١)، يستوقفه كذلك المنطق الاتكالي التبريري «الله والأمير سيدا المدينة»(٢)، فتتضارب في رأسه دروس التاريخ المشبعة بالبطولة، وموقف الفرار المخزي الذي يشاهد «فارس.. بيزنطة.. بواتييه.. حطين.. القادسية.. ذي قار.. وثَبَتْ أمام ذاكرتي كسجون تاريخية لا أستطيع كسر قضبانها، كنت داخلها كفأر يلوب ثم يدوخ ثم يسقط..» (٣)

وحين يشاهد الجندي بعد ذلك، يدرك أن تجاوز وضعه لا يكون إلا بالبندقية/ المواجهة، لكنه لا يتقن استخدامها إذ علّموه في المدرسة أن «الله وقيصر والجند يحققون النصر..» (٤) وأمام عجزه يشعر أنه مطرود من دائرة التاريخ، خارج الفعل والتأثيرواتخاذ قرار يمسّ ذاته ومصيره، مكتشفاً أنه لم يُعدّ للحظة مواجهة، وأنه قاصر عن العمل ، وحين يرى الجرحى

---

١) حكايا النورس المهاجر مصدر سابق . ص ٧ .

٢) المصدر نفسه ص٨.

٣) المصدر نفسه. ص٩.

٤) المصدر نفسه ص١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القادمين من المعركة والقتلى يتفاقم إحساسه بالنفي واستلاب الإرادة «لأول مرة ألمح الدم، كما لأول مرة ألعن أبي الشيخ وقيصر والتاريخ ونفسي..»(١). هو ابن مدينة علمته الفخر بنفسه وأجداده.. لكنها لم تسلّحه إلا بأخبار التاريخ، يردد كلام والده الشيخ ومعلمه كلمات تحمل الخلاص، لكنه اكتشف وقت هجوم العدو قصور الكلمات وفرار والده ومعلمه، واكتشف عجزه عن الدفاع عن نفسه وعن أي فعل سوى تأمل ما يحدث من فجائع وإدانة الذات على اكتشافها المتأخر.

وللشخصية الهاربة من ذاتها في قصة «الصخور» نمط آخر، يقول البطل: «سأهاجر، ذلك هو العزاء للذين فقدوا القدرة على الانتحار» (٢)، هذا القرار اليائس والهارب يأتي عقب هزيمة نفسية. تضيء لنا الشخصية– عبر ضمير المتكلم والاسترجاع– فصولاً من حياتها السابقة، ابتداء بالحلم بالمثل الأعلى «في شعاب مدينتي كنت أرى الإنسان طفلاًومارداً وهو في حالتيه سيّد التغيرات.. أيّ فرق بين النبي والانسان ؟»(٣)، مرورا بالحدث الأهم وهو التضحية بالفرديّ والخاص «الحب» مقابل الجماعي«المدينة»: «دربّتني المدينة على قتل نزواتي الفردية لأهبها ما تبقى من ثمالة العمر» (٤)، من ثم يأتي فصل العمل والتبشير بغدٍ قادم يحمل الخير للجميع يقول البطل: «كنت أجوس في الدروب الوعرة مبشراً، أتشرد في شتاءات الأيام وأنام مع الجياع والمنبوذين أغري الأطفال بالشموس الوضيئة ، وأعدهم بخمر الميلاد والخبز الأبيض»(٥)،لكن وعوده لم تتحقق ،فبعد ستة عشر عاما من الانتماء لتلك المدينة المهجورة ، للبشر والأحداث والمستقبل ، لا يجني إلا الرياح «جميع الأطفال ماتوا في زحمة العرس والذين حلموا بالبيوت الشمسية وقمح السهول يسكنون ضفاف الشوارع ويعجنون الدموع المقهورة» (٦). بذلك تهدم المثل الأعلى ، وانكسر حلم العدل والحرية وضاع الانتماء

---

١) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق. ص ١٤ .

٢) الومض. مصدر سابق ص ٩.

٣) المصدر نفسه ص١٣.

٤) المصدر نفسه ص ١٦ .

٥) المصدر نفسه.ص ١٦ .

٦) المصدر نفسه ص ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«أنا الآن محايد حقيقي»(١). من هنا تغدو مطالبته بإجهاض الجنين مفهومة، وكذلك رحيله عن مدينته. إن حركة الشخصية بعد أن تعرّضت لاغتيال الحلم هي حركة هروب: الرحيل النهائي، تروم خلاصاً فردياً بعد أن هُزم الحلم الجماعي، وتكشفت المدينة التي ظنّها حبيبة وفية عن مومس «عقيم ليس في رحمها مثال» (٢).

نجد موقفاً مشابهاً في قصة «الصدع والهجرة»، فالشخصية التي انتمت إلى مدينتها وحلمها بالعدل والحرية، نزعت للخلاص الفردي بعد الهزيمة، وفي حين عبرت الشخصية في «الصخور» عن الهزيمة بالقسوة على الذات، والسخرية منها ومن حلمها، ورأت في الهجرة بديلاً عن انتحار عجزت عنه، فإن الشخصية في قصة «الصدع والهجرة» تبرر وتنظّر لرحيلها وتندم على ما مضى، بل ترى في رحيلها تحرراً من الوهم، أما الماضي وحلم الثورة وتغيير وضع الإنسان ونفسيته فهو وهمٌ ذاتي وحلم طفولي «.. إيه يا صديقي القديم، كانت أياماً يانعة رغم مرارتها ، وكنا أطفالاً ، الآن لم نعد، انكسر الطوق، صار بالإمكان أن نقفز بحرية، نتنشق عبير السهول.. نحب الفتيات ونحلم بالمدن الجديدة»(٣)، وبذلك يغدو همّه الملحّ أن يخطف فتاته من حقول طفولتها ويسافر بعيداً عن مدن الشرق «سنبني أجمة صغيرة مريحة خلف الحدود وننجو»(٤).والهجرة للغرب تشكل منفذاً في قصتي «الوعول» و «نصب تذكاري لرجل منتحر» للشخصيتين المتشابهتين «غزالة» في «الوعول»،و«جميلة» في «نصب تذكاري لرجل منتحر»، إن الهجرة إلى أوروبا «التي تدير حركة الشمس والعقل»(٥) تغدو فعل حرية بالنسبة لغزالة، الفتاة الشرقية «وأنا الطفلة القادمة من سجون القبائل، مدن

---

١) الومض .مصدر سابق . ص ١٨ .

٢) المصدر نفسه ص ١٣٦.

٣) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق .ص ١١٤.

٤) المصدر نفسه ص ١١٧.

٥) الوعول مصدر سابق . ص ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرجال المستبدين، أهدم حدود الإرهاب لأكون نفسي، أمتلك شراع سفينتي وأوغل في غمر البحر..»(١)، وفي بحر العالم الجديد تبدأ طقوس التطهر والانعتاق «بلا ندم أقذف أصفادي في عمق هذا الماء وأتعرى، إنني فرحة بجسدي الجميل وقد صار ملكي واستحم في المياه الخضراء طليقة وسعيدة كطائر كان مهيضاً ، هو ذا يمتلك جناحيه والفضاء الشاسع ملكه»(٢). إن حالة الانطلاق هذه مضادة لحالة الكبت والحصار التي عاشتها في الوطن/ الأسرة والمدرسة والشارع «.. لماذا يكون علي أن أظل وفية لوطن الأجداد؟ كان وطناً مسلوباً مني وكنت فيه غريبة..»(٣) ومع ذلك فالفتاة الهاربة من إرثها وظلمة وطنها لا تجد العزاء في بلد الشموس الذي يعاني مشاكل مغايرة «من العمل المضني السالب إلى البحث عن الطعام، ضجر، رتابة، ركض، مترو، مقهى، سندويش، نوم فأكل فجنس فتبوّل، إنسان في عالم الممحاة والصّخب» (٤) .

تكتشف «غزالة» بعد معايشتها الحياة الأوروبية أن الرفاهية والحرية الشخصية لا تعوّض غياب الحيوية والبساطة والحب في المدينة الصاخبة، المتكشفة عن قلب كالجليد، تصف ذلك بقولها: «.. عالم سلبي ، متوحش، مُشيّأ وعنصري.. صدقني هنا الإنسان يتساوى مع الأحذية والمعلبات»(٥) لكنه بالمقارنة يظل أفضل من حصار وطنها، وينسحب تقييمها هذا على علاقة الحب التي عاشتها في الوطن حيث رفضت الانتماء إليها في المهجر، فهي تمتّ للعالم القديم الذي قتلته في داخلها، في الوطن تعلمت أن تحب تعويضاً عن السجن والملاحقة، ومع الرجل الذي أحبته «تعلمتُ كيف أكون نفسي، كيف أطير ولكن في سمائه»(٦).

---

١) الوعول . مصدر سابق ص ١١٦.

٢) المصدر نفسه ص ١١٦

٣) المصدر نفسه ص ١٢٤

٤)المصدر نفسه ص ١٢٢ .

٥)المصدر نفسه ص ١٣٨.

٦)المصدر نفسه ص ١٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تشعر «غزالة» بأن العلاقة السابقة بينها وبين حبيبها قد أصبحت عبئاً عليها، تقول: «أريد أن أستقلّ،أن أتخلص من شراكك»(١).. إن حلم الذات/ غزالة يتلخص في طلب الأمان الذاتي «أرغب بيتاً في الجزر البعيدة عن الجزائيم»(٢) بعيداً عن وطن منذور للحرب والتراث القديم وقسوة الأحداث التي عاشتها من ذلّ وحصار وسجن أفقدتها الانتماء والرغبة في التغيير .

في قصة «نصب تذكاري لرجل منتحر» نرى «غزالة» باسم آخر، إنها «جميلة» الجزائرية التي استوطنت باريس ، هنا يتكرر موقف الخلاص الذاتي والتنكر للمثل السابقة، «غزالة» و «جميلة» تختاران ذاتيهما متغافلتين عن الوجه الآخر لهذا الاختيار ، وهو خذلان الرجل المحب الطالب لمرفأ أمان، الهارب من جحيم المعركة ونار الهزيمة، ترفض الأولى الرجل الذي لاذ بها مرددة: أريد نفسي. وتسأل الأخرى الرجل المسافر إليها: «متى تنوي العودة؟ »(٣). إن حسّ الهروب في الحالتين السابقتين يعني نهاية الحب وانتفاء التوازن ، والابتعاد عن المسار الحقيقي للذات التي لا ترى إلاّ أناها الخاصة.

تكرّس شخصية «منى» في «الزمن الموحش» الأبعاد السابقة، فهي تغادر دمشق بلا عودة، لأنْ لا أفق لتحقق الذات والفرح والتوازن «منذ سنوات قررت التلذذ بعذاب نفسي، لم يعد بإمكاني الانتماء الى أحد..»(٤)، لذا تتقوقع على ذاتها وتحلم «تحدثني عن هجرات نائية وعن أوطان لا كذب فيها ولا خيانات، مدن مغلفة بالشعر والعمل يسكنها أناس بسطاء

---

١) الوعول. مصدر سابق . ص ١٣٨ .

٢) المصدر نفسه ص ١٥٠.

٣) غسق الآلهة. مصدر سابق ص ١٢٩

٤) الزمن الموحش . مصدر سابق.ص ١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبتسمون كالأطفال.. في تلك الأوطان يقطن الحب المقدس والعمل المقدس»(١)، وفي وطنها حيث الناس ملاحقون بحاجاتهم العضوية، مستغرقون في البيع والشراء، لا يطمحون لما هو أفضل، تجد «منى» نفسها غريبة ، وترى كيف تصبح الذات مقبرة للحب والعواطف في فضاء مدينة غافلة عن قصورها النفسي، ليأتي قرار الرحيل بديلاً عن معايشة العجز أو الانتحار أو التواطؤ مع السائد، إنها لا تبحث عن خلاص فردي، فهي تدرك استحالته، إنما تهرب من مشاعر العبث واللاجدوى وحبٍ مستحيل .

يسيطر إحساس العبث على علاقات الحب بما هي تكثيف لحياة الذات الخاصة، على شخصيات قصتي «غبار الطلع» و «طائر الموت» حيث يتوضّح التأثير القاتل لمحيط الإنسان على نفسيته، فالرجل والمرأة في «غبار الطلع» يتنفسان الحصار والتهديد.. «الإحساس الواجف بأننا قد نسقط غيلة على ناصية أو في منعطف مظلم أو في فراشنا، هذا الجنون اشتبك في خلايا علاقتنا . هذه المرأة وأنا..»(٢)، وفي أجواء مشابهة يعيش الرجل والمرأةفي «طائر الموت»حيث لم ينجح الحب في منح الذات الأمان والخلاص.. فالاثنان يعيشان الخوف «نحن منذورون لموت مجاني»(٣)، وإزاء هذا التهديد تنكفئ الذات على شعور بالتفاهة والخواء وفقدان المعنى والعبث وتلاشي أبسط أحلام الإنسان «.. إلا أن حبنا المهووس في ذلك الخريف الملعون لم يهبني الأمان وطمأنينة الروح ، ثمة اعتكار في الأعماق اللامرئية ، لا أدري كنهه وجوهر منبعه الأصلي»(٤).

وإن حالات الحب الموؤد في «الزمن الموحش» و «غبار الطلع» و «طائر الموت» و «غسق الآلهة» وأيضا في «الوعول» و «نصب تذكاري لرجل منتحر» تجعل أصحابها يطرحون الأسئلة حول أصل الخلل ، أهو خارجي... أم داخلي؟ أهو كامن في الظرو ف الموضوعية أم في

---

١) الزمن الموحش . مصدر سابق ص ١٩٣.

٢) غسق الآلهة. مصدر سابق . ص ١٦ .

٣) غسق الآلهة. مصدر سابق ص ٢٧ .

٤) المصدر نفسه . ص ٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذات أم في كليهما؟ لكن المعاناة الذاتية لا تنتظر طويلاً للوصول إلى إجابات ليتغلب إحساس العبث واللاجدوى والهزيمة النفسية والعجز عن المواجهة، ومن ثمّ الرحيل والغياب.

وثمة مظهر آخر للاغتراب يتجلى في نموذج الشخصية الهاربة من ذاتها، يعبر الهرب عن نفسه هنا بمظهر آخر: الاعتداء والقتل، في هذه الحالة تعتدي الذات على الجزء النابض فيها، الذي يذكرها بما ينبغي أن تكون عليه، ويشعرها بالمسافة المتوجب قطعها لتحقق الذات، إن القتلَ أو الاعتداءَ في هذه الحالة – رمزاً كان أم حقيقة – هو تجسيد للعجز عن عبور المسافة، ومحاولة للنسيان. فالذات التي لا تستطيع الفعل الأصعب؛ الإنجاز وتجاوز الاغتراب، تلجأ إلى الفعل الأسهل؛ إبعاد ما يذكّرها باغترابها. نجد هذه الحالة في نصين قصصيين هما «النهر الحليبي» من مجموعة «حكايا النورس المهاجر» و «غسق الآلهة» من مجموعة باسمها.

ففي الأولى نطلّ على مدينة تدير ظهرها للنهر، على حواف النهر يعيش «فيّاض» حياة بسيطة مطمئنة ، ناسياً لغة التفاهم مع مدينة اعتدت عليه. تحكي القصة اعتداء المدينة على الإنسان النقي «فياض» الذي نما مع قطعان الغزلان، وكان سعيدا راضياً إلى أن اصطاده رجال المدينة.. وأجبروه على الحياة فيها، وحين هرب اصطيد مرة أخرى، وعطّلت قدماه كيلا يغادر إلى البراري مرة أخرى.. عاش «فياض» على هامش المدينة قرب النهر حياة بسيطة مفتقداً لغة التفاهم مع أهلها، مكتفياً بذاته، ومع الأيام أصبح «فياض» «صعلوك المدينة وكاتم أسرارها»(١) يبقى شاهداً على الأحداث التي تعصف بالمدينة التائهة يعرج بقدمه ويرقب الأحداث الصاخبة: القتل والانتحار والهجرات الجماعية.. التي تقود أخيراً إلى هجرة شاملة حين يعمّ المحل وتنقطع الأمطار، وحين هاجر أهل المدينة كلّهم. ظلّ «فياض» وحده يطوّف في الأزقة، تتغير الحال، فجأة يهطل المطر، ويضج النهر بالنساء العرايا واللون الأبيض، ويستعيد «فياض» قدميه سليمتين، ويعمّ الفرح. هذه الأحداث الرمزية تجعل من «فياض» دالّة، ابتداء من اسمه المرتبط بعطاء الطبيعة، والنشأة المستوحاة من قصة حي بن يقظان ـ أرضعته غزالة في البراري فنما بين القطيع ـ وحين أسرته المدينة عاش غريباً على أطرافها، لكنه غدا بصمته

١)حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق . ص ٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومراقبته لما يجري ضمير المدينة الحي، المنفي والمُبعد والمُعتدى عليه. إن الدلالات والأحداث السلبية تترافق مع إبعاده والاعتداء عليه ونسيانه على طرف المدينة خارج دائرة التأثير والفعل، ليغدو «فياض» رمز الضمير ونقاء الذات والرغبة في حياة غير مشوهة، أما المدينة فقد هاجر أهلها بحثاً عن أرض أخرى تاركين فياضاً وراءهم، وقد حملت هذه الهجرة دلالات فقدانهم لأنفسهم واغترابهم عن ذواتهم، إذ حين رحلوا جميعاً ضجّت الأرض والسماء بالفرح.. وشفيت قدما «فياض» فعاد إلى طبيعته وحريته مؤكداً رمزية الطبيعة،حيث يعود الإنسان إلى حقيقته التي فقدها في خضمّ صعوده الحضاري «يحس «فياض» بنشوة الحرية تسبح في رأسه وتغمر أضلاع المدينة السجينة تتسرب النشوة إلى قدميه فيصرخ: الحياة. الولادة. الرقص .. هو ذا الزمن الراكد ينفجر..»(١)، أما المدينة (المجموعة البشرية) فقد حكمت على نفسها بالفناء والدمار حين أقصت نبضها الداخلي (فياض).

والمدينة هنا شخصية رمزية، إنها إنسان المدن اللاهث والراكض دوماً دون أن يتأمّل داخله وما آل إليه.

في «غسق الآلهة» يلتقي رجل المدينة، المرهقُ والمحاصرُ داخل ذاته، إمرأة البراري المتوهجة بالحرية، المتمثلة في الغجرية «كالي»، ولنلاحظ هنا رمزية الاسم الذي تشير إليه القصة في مقدمتها: «تمثل الآلهة «كالي» الدفعة الجارفة نحو التناسل واستمرار الخلق عند الهنود»(٢) .

ففي اللقاء الأول بينهما تبدو المرأة أشبه بساحرة تحيي في ذاكرته حكايا الطفولة البعيدة، وفيما بعد تغدو مصدر ثقة الرجل بذاته وحبه للحياة «تُولَدُ في ذرات الرجل ثقة داخلية وقدرة لامتناهية لمواجهة الأزمنة الغادرة والمصاعب التي لا تحصى» (٣)، حينها يبدو الرجل وكأنه قد وجد ذاته وأفق سعادته باتحاده بها، ترك عالمه وتبعها نحو الغابات مستشعراً جمالية المكان

---

١) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق . ص ٧٥ .

٢) غسق الآلهة. مصدر سابق ص ٤٦ .

٣) المصدر نفسه ص ٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحياة «كان يخرج من مدارات السكون والجرائيم النهارية والوحل، ليدخل في أعماق البحار الحريرية المضاءة بملايين الشموس والألوان»(١)، وقد اقترن لديه الرحيل بانتهاء زمن وبدء زمن جديد ، زمن الخلاص والانطلاق «جميل وعذب أن تقذف إلى الهاوية بالتعاليم والحضارات والشرائع وتتبع نبض الدم وحليب الطفولة.. أن تعود طائراً أو حيواناً برياً أو سحابة»(٢)، هكذا ينتمي الرجل إلى ما افتقده من قبل، إلى ما يضجّ في أعماقه، وإلى رموز الطفولة السعيدة والمرأة المخلوقة من نار، لكنه في ليلة اختلط فيها الواقع بالخيال، ونهضت من ذاكرته حكايا الجنيات والغولات والساحرات .. قتل المرأة (الخلاص) دون أن يدري «في لحظة هوس واضطراب سريالي قتل المرأة التي كانت شمس أيامه ومطرها»(٣)، نلاحظ هنا ارتباط الوهم بما تشربته الذات في طفولتها من قيم «حكايا الجدّة»، فقد تمثّلتْ كالي للبطل ـ في خضمّ أوهامه ـ غولةً بشعة تسعى لامتصاص دمه، وباختفائها من حياته يعود لاضطرابه وإحساسه بالعبث ولا جدوى الحياة التي «لا تقدم سوى الانخذال والانحلال والمقايضة والهبوط إلى الهاوية العضوية»(٤)، وما يعيشه الرجل فيما بعد يؤكد الرمزية في شخصية «كالي» التي من الممكن أن تدلّ على الجزء الأصيل في الذات ، الجزء الضائع وحلم الإنسان في الوصول إلى ذاته كاملة ومعانقتها والاتحاد بها.

إن رمزية الخصب المرتبطة بـ «كالي» كامنة في كل إنسان ، أما قتلها في لحظة غياب الوعي، فإنه قتلٌ للوهج الداخلي جرّاء الوهم واختلاطه بالحقائق، إنها ذات الدلالة المشعة من فعل اعتداء المدينة على «فياض» في قصة «النهر الحليبي»، فـ «كالي» تحمل رمزية تجاوز الاغتراب باتحادها مع بطل القصة، وحين التقاها ابتدأ يحلم بتجاوز اغترابه، وفي داخله «كان يختلج جنين يشبه عصارة الأرض المختزنة ، نذير يوحي بدمار الروح القديمة التي طال همودها في قبور الأسلاف وقد عفنها الزمن الساكن، وهذا الاغتراب الناسج حول الروح دائرة مغلقة

---

١) غسق الآلهة. مصدر سابق ص ٥٣

٢)المصدر نفسه . ص ٧٥ .

٣) المصدر نفسه ص ٤٧.

٤) المصدر نفسه ص ٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الشجن والكلس الميت» (١) المرأة/ كالي هي من حرّك الجنين ليخرج إلى الضوء، إلى حياة صحية جديدة، ليأتي فعل القتل فيعيد الرجل إلى تكلسه القديم وحياة يستغرقها الاستهلاك والرغبات المقموعة مع امرأة « غارقة في طين الزمن وطين الله وطين العائلة» (٢)، «آماليا» امرأة البيت والتلفاز والثياب والمقايضة هي البديل / النقيض «أنا وامرأة الشموس الغاربة كنا هناك، في الحقل المغناطيسي للسطوة والوحشية والاستلاب والمقايضة ومرارة الروح والقتل العميم»(٣).

وإذا ما صحت الدلالة السابقة للشخصيتين الرمزيتين «فياض» و «كالي» بارتباطهما بالأعماق المنسية لإنسان المدينة، فإن الاتحاد بهما يعني الوصول للتوازن والانسجام وإبعادهما يعني تأكيد الاغتراب، وإعلان العجز عن مواجهته، والسير للخراب ،كما تدلّ على ذلك نهاية المدينة في «النهر الحليبي» و الرجل في «غسق الآلهة».

وبعد، فإن متابعة حركة الشخوص الهاربة من ذاتها، تكشف عمق محاولات هذه الذات في الخلاص والتوازن ، ويتضح هذا من نهاية حَيَواتها المشبعة بالدلالة، فبطل قصة «الشاهد والجمعة الحزينة» العاجز، والملاحق بحسّ الذنب، والمحتمي مع غيره من سكان المدينة بالمقبرة، يموت ميتة بالغة الدلالة «وتتالى دويٌّ هائل، شعرتُ إثره وكأن المقبرة قد اقتلعت ورفعت الى سماوات قصية ثم سقطت في باطن الأرض ، كان القبر يغور الآن في شقّ انفتح كبوابة الجحيم، وكنت ما أزال على ظهره محمولاً» (٤).

أما بطل قصة «الصخور» الهارب من المدينة بعد انهيار حلمه تجاه الجبال.. فإن معركة «رمزية »تنشب بينه وبين الصخور التي تقف حاجزاً يحول دون المسير قدماً، تتركه شبه قتيل «ركضت بينها فصدمتني، طعنتني في صدري، فسقطت فوق بندقيتي المعلقة على ظهري،

---

١) غسق الآلهة. مصدر سابق . ص ٥٤ .

٢) المصدر نفسه ص ٨٦.

٣) المصدر نفسه ص ٦٣ .

٤) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق . ص ١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وركضت أكثر فشجّت رأسي وجبهتي، على جدرانها سال دمي وقرأتُ فوق شواهدها حياتي التي تسقط وحياة أحبتي» (١). وفي قصة «الصدع والهجرة» تتنكر الذات لحلمها القديم وتستبدل حلم تحقيق العدالة والثورة والتغيير في وطن مكسور، بحلم الرّفاه في المدن الغربية، ضاربة بكل المُثُل السابقة عرض الحائط.

وتنتهي «غزالة» في قصة «الوعول» بالقتل على يدي حبيبها الذي رأى فيها الخيانة والخذلان «للتوّ فرغت من المذبحة، رأيتُ دمك يتناثر ويسيل ويلطّخ الفراش. فراشنا الذي كان» (٢)، وفي «الزمن الموحش» تهاجر «منى» وتترك دمشق والعلاقات المشوّهة وتلد فيما بعد جنيناً مشوهاً في غير موعده، لتتضاعف بذلك دلالة العجز والانحراف وانغلاق الأفق، الأمر الذي يتعمّق في قصص «غبار الطلع» و «طائر الموت» و «غسق الآلهة» و «نصب تذكاري لرجل منتحر» «لا أمل هنا في شيء. الوحل والدم، نحن نحيا في غرفة غاز»(٣).

والشخصيات الهاربة من ذاتها، في القصص المذكورة آنفاً، عاجزة عن الحركة ، وإن تحركت فباتجاه خاطئ ؛ الحلم أو السفر أو الهجرة أو القتل ، وفي تقصي تلك الذات لأسباب اغترابها تضيء مؤثرين يتقاطعان ويلتقيان داخل الذات؛ الأول ذاتي: قصور نفسي ونكوص للسكون وإحساس شامل بالخراب واللاجدوى، وابتعاد عن المجازفة، وميل للكسل والخمول : «إيفا، اسمعيني جيداً ، الحلم مجرثم قبل الولادة، أعني أن الجذر منخور والتربة فاسدة»(٤) ويسأل شخوص «الزمن الموحش» «لماذا نولد ناقصين ؟ نمضي عبر دروب ملتوية،حافلة بالانكسارات والشكاوي وإيقاع الإثم»(٥). يطال إحساس الاغتراب الموقف من الموروث الذي يقف حائلاً بين الإنسان وبين تحققه، ويحرمه من امتلاك فرصته في الحياة ، هذا الماضي؛

---

١) الومض . مصدر سابق . ص ٢٤ .

٢) الوعول. مصدر سابق . ص ١١١.

٣) غسق الآلهة . ص ٣٨ .

٤) المصدر نفسه. ص. ٣٩.

٥) الزمن الموحش. مصدر سابق. ص ٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحاضر داخل النفس يدفن فيه العربي فلا يملك إلا أحلام اليقظة: «خطر لي أن العربي يستلقي في تابوت محكم الإقفال، ومن داخله يحلم بالشمس والنساء ونفض الغبار وخيوط العنكبوت»(١)، لذا يتبدى جلّ ما تعانيه الشخصيات عائداً إلى انغلاق ذواتها وتناقضها، وتفاقم المسافة بين الطموح والتحقق.

أما المؤثّر الثاني فموضوعي ، يتعلق بالظرف التاريخي السياسي والموقع الاجتماعي للشخصية، هنا تتبدى القوانين السياسية والاجتماعية والاقتصادية فاعلة كالسيف في رقاب الشخصيات، إذ تكشف لنا النصوص عن عالم محكوم بسطوة عسكرية وتفاوت طبقي حاد، يقود للصراع أو الاستسلام. وفي نموذج الشخصية الهاربة من ذاتها قلّما يكون للذات دور إيجابي، فهي تدرك مكمن العطب، لكن إحساسها بالعجز أكبر وأكثر تأثيراً في سلوكها، ونلاحظ أن هذه الذات بنفسيتها الموضحة آنفاً.. ستقف عند حدّ الإدانة والشكوى وحلم الخلاص، والعبارات الحاملة لهذا المضمون أكثر من أن تحصى على امتداد النصوص: «فكرت بالموت بشكل صامت، أو مدوّ، من خلال طلقة تنهي كل هذا العنف والروائح القادمة من البالوعات ومستنقعات الكبريت والأحماض الرحمية.. »(٢) «ما كان الزمن خريفاً بقدر ما كان كابوساً يشبه موتاً يرين على العالم..»(٣) «سلب ونهب وتذويب بالأسيد ومعارك التهريب في البر والبحر واستشراء العنف.. تجليات حتمية لانهيار العالم وعطب الضمير وفساد الدماغ» (٤)، في هذا الزمن الذي تشاهد فيه الكلاب تأكل جثث البشر، ويحجّ الناس فيه إلى الأسواق والبنوك والبارات والكازينوهات، «زمان التفسخ وانهيار الروح في أنفاقها المعتمة»(٥)، تتبدد الشخصية الهاربة بالخمر والكلمات، في محاولة يائسة للتعبير عن الحرية

---

١) الزمن الموحش . مصدر سابق . ص ٥٧ .

٢) غسق الآلهة. مصدر سابق ص ٢٥.

٣) المصدر نفسه . ص ٢٤ .

٤) المصدر نفسه . ص ٣٩ .

٥) المصدر نفسه.ص ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«ومع تسامق الزمن تتشتت طاقاتنا، ويمسخ جنين الخلق والفعل، تلاشيه وتهرسه قطارات الأيام السريعة» (١)، بذلك يتعمق الاغتراب وتنأى الذات عن مثالها.

ويتبين من العرض السابق أن أسباب الاغتراب في الداخل والخارج تصدم «الشخصية الهاربة من ذاتها» كما لاحظنا، فتنكفئ متهربة من المواجهة، لكنّ النصوص تحمل في ثناياها ملامح «الشخصية الباحثة عن ذاتها»، المتصدية لأسباب اغترابها، هذه الذات تدرك عظم المسؤولية وامتداد العطب في الروح والواقع، لذا فهي تبحث عن طريق ، قد تضلّ فيه وقد تجد ذاتها الضائعة.. لكنها في الحالين فاعلة.

ثالثاً: نموذج الشخصية الباحثة عن ذاتها:

تعاني «الذات الباحثة عن ذاتها» أشكالاً شتى من الاغتراب، كاختراق الحرية الشخصية، والارتهان للماضي، والقمع السياسي والفكري، ومصادرة حق العيش بالحروب والحصار والمداهمات، والتعرّض لهجمات خارجية تستهدف انتزاع الوجود، واحتلال الذات والمكان، وتقف على مسببات اغترابها الذاتية والموضوعية التي تجعلها خارج الفعل والمشاركة في الحياة، وبمعنى آخرخارج ذاتها، فتتأمل ماضيها وحاضرها محاولة شق الطريق نحو المستقبل مكتشفة أن الحياة صراع لا مكان للحياد فيه.

وسنحاول في بحثنا لهذه الذات، أن نكشف أساليبها في مقاومة الاغتراب ومحاولاتها، الناجحة أو الفاشلة، لقهره وتجاوزه، وحركتها في سبيل تحققها وإنسانيتها، من ثمّ نستخلص الدلالات الكامنة في هذه الحركة.

– مظاهر الاغتراب، وحركة الذات لتجاوزه:

تنوعت أساليب «الشخصية الباحثة عن ذاتها» عند الكاتب حيدر حيدر في تحدّي الاغتراب، ويمكن تصنيفها في الأساليب الخمسة التالية: **الرحلة للبحث عن الذات، والانتحار الاحتجاجي ، و قتل رموز الاغتراب ، و تعرية الذات وكشفها ، واختيار خوض المعركة.**

---

١) الزمن الموحش . مصدر سابق . ص ٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتميز «الذات الباحثة عن ذاتها» برغبتها العميقة في الوصول لحالة الاتزان، والتخلص من اغترابها بعد تشخيصه،وهذا ما سنوضحه فيما يلي:

تبدأ **رحلة البحث عن الذات** انطلاقاً من الوعي الحاد بعقم العلاقة بالمحيط ، هذه العلاقة الضرورية لذات الإنسان الاجتماعية ، إذ يكتشف الفرد أنه غريبٌ ومستبعد ومحروم، يقول بطل قصة «الشمس تشرق من الغرب»: « المدينة ليست لي، وحتى الأشياء الصغيرة فيها محرّمة وملوّثة على نحو ما..»(١).

وبينما تسعى الذات لتحقيق شخصيتها الاجتماعية، تفاجأ بالرفض والتهديد، فتتخذ قرارها بالاعتزال «قررت العيش كجرذ أجرب بعيداً عن الوثائق العصرية »(٢)، « وكنت قد قررت أن أعتزل الناس وأعتكف في غرفتي لأن الناس جميعهم أشرار وأنانيون »(٣). وفي قصة «الزوغان» نجد مثالاً آخر لرحلة البحث عن الذات، يبدأ البطل رحلة بحثه حين يكتشف جذوره الملوثة؛ ممثلة في أمه البغي «إنني أضرب منذ الفجر الأول في تيه هذا العالم بحثاً عن درب أخضر ورعاة غرباء سمعت عنهم في طفولتي الأولى» (٤).

تستهدف رحلة البحث هذه الوصول لقيم غير ملوثة لا سيّما في عالم افتقد أفراده القيم فتاهوا، وهي رحلة منبعها الأمل بوجودها بالرغم من أنها قد تقود لطريق مسدود. تخوض الذات التجربة راغبة في إيجاد التوازن المطلوب .. والتجربة هنا ارتحال داخل الذات «بطل قصة «الشمس تشرق من الغرب»، أو ارتحال في المكان «بطلا قصتي «القتيل» و « الزوغان»، ينتهي الأول بمعرفة ضمنية باستحالة الحل الفردي الذي تطلبه الذات لتتجاوز اغترابهاحين يكون الاغتراب جماعياً ، لذا تفشل مشروعاته وتتكشف عن نزوات لا تعني أحداً سواه « قرأت هذا

---

١) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق . ص ٧٩ .

٢) المصدر نفسه . ص ٧٩ .

٣)الومض. مصدر سابق ص٥١.

٤) الفيضان. مصدر سابق ص٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي كتبته أكثر من مرة ، كان يعنيني فقط ، ومعنى ذلك قبض الريح»(١)، ويتوصل بطلا «القتيل» و «الزوغان» إلى معرفة أفضل بالمدينة / العجائبية، أو المدينة/ المبغى، ويبدو الحلّ مرتَهناً بإيجاد قيم وعلاقات جديدة، لأن المدينة وصلت إلى حالة من الخراب لا يمكن إصلاحها «الناس هنا ليسوا هم، كانوا في زمن ما، لكن الانقسام حوّلهم ، دخلوا شبكة الطيف الضوئي للخوف»(٢)، إنهم بحاجة إلى ذاكرة جديدة ، لأن ساعاتهم الداخلية لا تعمل، ولحظة الكشف يردد بطل «الزوغان» «لقد بدأت ذاكرتي تتقد وساعتي تعمل»(٣).

وليست رحلة البحث في النصوص السابقة – كما ترجّح الباحثة – هجرةً للخلاص الفردي الذاتي، بل هي تجربة لقهر الاغتراب وكشف أصوله الكامنة في جوهر العلاقات والقيم كما طرحتها النصوص. وهذا يفسّر **الأسلوب الثاني – الانتحار الاحتجاجي** – الذي انتهجته ذوات أخرى لمواجهة الاغتراب، وصنوف القهر الممارسة ضد الإنسان في وطنه حيث تُزيّف الحقائق، وتُقتل الأحلام، ويُطلب من الإنسان التسليم والقبول.

فقد اختار الجندي – بطل قصة «صيف يحترق»، العائد من معركة منعوه أن يقاتل فيها، ومنحوه رواتب إضافية وعطلة لإبعاده عن ساحة القتال – **الانتحار** حرقاً، لأنه حين يحدق في طفولته المشوّهة ، وإنسانيته المهدورة المهانة أمام العدو المهاجم، تحرقه نيران المهانة والإحساس بالعار. إذّاك لا يتبقى له، إلا توجيه رسالة (**الانتحار**) لتهزّ السكون والصمت واللامبالاة في مدينة يهاجم العدو بواباتها. فالانتحار إذن لغة من يرفضون المهادنة حين يُمنعون من الكلام والتعبير، تحمل إدانة للسائد والقائم المغترب، وفضحاً للمستتر من الأخطاء، وتعرية للجسد المريض المخدوع بثوب الرضى ، وإضاءة لما يجب أن يكون، يقول لأمه: «.. تزوجي غير أبي، ولِدي أطفالا أسوياء لا يهجرهم آباؤهم، أطفـــالاً لا يحبون موسيقى الزنـــــوج ولا

---

١) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق ص ٨٧ .

٢) الومض. مصدر سابق ص٥٢.

٣) الفيضان. مصدر سابق ص٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العزلة،يطلقـــون النـار بلا أوامـــر ولا يتراجعون»(١)، الانتحار الاحتجاجي إذن ليس سبيلَ هروب ونجاة ، بل صرخةَ المنفيّ عن ذاته بالرغم منه، والمحروم من قول كلمته حيّاً.

ويمتد القتل ليشمل قتل رموز الاغتراب، وهو غالباً قتل رمزي، يعني رفض المقايضة على ما هو حقيقي بالنسبة للذات ،أوالاستغراق في الهمّ الخاص، وحسم الأولويات، مع احتمالية تأويله بأشكال أخرى مغايرة.. ففي «الزمن الموحش» مثّل «مسرور» الفلسطيني نموذج الإنسان المستغرق في ظرفه الشخصي، بالرغم من أن وجوده الخاص جزء من مصير عام لا يمكنه التنصل منه. لقد اقتنع «مسرور» بمساحة بيته ووظيفته وردد على مسامع أصدقائه حكمته المفضلة : «تزوج ترضَ»(٢)، لكنه في النهاية يقتل «ديانا» زوجته، وبذلك يكون قد قتل رمز الرضا والعيش الرخيّ المؤقت،وتحتمل هذه النهاية غير دلالة، فقد تعني التجاوز أو تعني الغرق النهائي في تفاصيل الواقع من وجهة نظر أخرى.

كذلك الأمر في قصة «الوعول»، فبطل القصة الهارب من المذابح في بيروت والمطارد من مكان لآخر يلجأ إلى صديقته في باريس، وهناك يفاجأ بامرأة أخرى، همّها الرفاهية ورخاء العيش، تسأله: «ولكن أنت ماذا تملك؟ عنيت ما رصيدك في البنوك.. ما نوع سيارتك؟»(٣)، ويحدثها عن الوطن والحروب الأهلية، وأن العربي يحمل قدره أينما مضى، وأن عليها أن تكون أكثر صلابة: «علينا أن نتماسك في أوقات الشدة، ألا ترين أنهم ينشدون تفسخنا.. أنظري كيف يجتهدون لتحويلنا إلى مجانين ويائسين وعصابيين ومحبطين..»(٤)، في هذه الحالة يغدو **قتله لصديقته** تحرراً من خطاب الركون لفسحة الأمان الخادع، ورفضاً للحياد في أرض المعركة «شيء ما ينبغي أن يموت.. شيء ما خائن وملوّث ، لا بدّ أن يرحل عن العالم، كان هذا هو الايقاع النفسي ، هناك خلل في نبض الدم، جراثيم تحرّ نقاء

---

١) الومض. مصدر سابق . ص ٩٠ .

٢) الزمن الموحش. مصدر سابق. ص ١٢٥.

٣) الوعول. مصدر سابق . ص ١١٦ .

٤) المصدر نفسه ص ١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدم..»(١).

وتعريةُ الذات وكشفُ أعماقها أسلوب آخر حاولت به الذات مقاومة الاغتراب، فحين تفهم الذات الأسباب الفاعلة في داخلها التي تسوّغ لها الصّمت والركون لحياة لا إنسانية، تدرك أنها تكرس الاغترابَ بوقوفها هذا الموقف المهادن، فلربما تتأهب للرفض وإقصاء هذا الهروب والاسترخاء المعبّر عنه في «الوعول» بلغة القتل والموت. إن الذات هنا تأخذ على عاتقها تحليل ذاتها، ومكوناتها الواعية واللاواعية، وكشف تناقضات الأعماق مؤمنة بذلك، سبيلاً وطريقاً لمجابهة الاغتراب. وتحاول الذات هنا الوقوف على الأسباب المتصلة بنمط التربية والتنشئة والقيم المتوارثة، وأسلوب الحياة الاجتماعية والفكرية، وتطالب بالكشف والحساب والنقد مبتدئة برصد حال الإنسان، يقول «شبلي» في «الزمن الموحش»: «والجيل الجديد تائه يمارس أقل من ربع حياته بطريقة طبيعية وما تبقى يتبدد في السفسطة والاحتجاج السلبي والخمر والنساء والشذوذ بعيداً عن الماء والشمس والنموّ الصحي» (٢)، فـ «شبلي عبد الله» يأخذ على عاتقه محاولة الكشف النفسي لرؤية الذات من الداخل، لفهم الانفصام والارتباك والتناقض في شخصية العربي الهارب من نفسه «أنا مُضَوّأ ، مبحرٌ في عالم سري نحو بواطن الأشياء ، أريد أن أكتشف الذي لم يكتشف.. وأن أضبط العربي في جلسة سرية ، أن أقذف به عارياً في وجه مرآة»(٣). وهذا العري النفسي سيقود العربي إلى رؤية دمه الملوّث الفاسد، وارتهانه لذكريات مجدٍ غبر، وغيابه عن الفعل التاريخي، وعن ميراث طويل من الاستكانة(٤). إن التحديق في الذات يقود إلى ضرورة تغييرها، نجد التعبير عن ذلك في قوله: «لا بدّ من عبور النار الداخلية في محاولة تطهيرية ، بذلك تأتلق النفس وتظلّ في مركز الوهج

---

١) الوعول. مصدر سابق ص ١١٣.

٢) الزمن الموحش. مصدر سابق . ص ١٥٨ .

٣) المصدر نفسه ص ٧٩، وأيضاً ص ٣٥ ، ٤١.

٤) حيدر حيدر. مرايا النار. ط ١ بترا للطباعة والنشر. دمشق سوريا. ١٩٩٥. ص ١١٥و ص ١٢٢.وأيضاً حكايا النورس المهاجر . مصدر سابق ص١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى هذا النحو يمكن أن نتخلص من العكَر القديم»(١)، وكذلك في قول «راني»: «إذا لم تتغير العلاقات القديمة فنحن نبحر في سفينة مصدّعة تتخللها المياه يوماً بعد يوم.. والنتيجة هي الغرق»(٢).

إذن؛ يتبدّى العربي في مرآة نفسه مستشعراً لدونيته وقصوره عن تحقيق ذاته ، يلجأ للماضي لأنْ ليس له حاضر ولا مستقبل، ويواجه العصور الحديثة بعلاقات القبيلة ؛ الثأر وغسل العار والطاعة العمياء. وتعبر النصوص رمزياً عن حالة النقص التي يعانيها العربي في حديثها عن حليب الطفولة الملوّث، والدم الفاسد، وضرورة الفصد أو التطهر بالنار، واختيار العودة إلى مرحلة ما قبل الشرائع ليعانق الإنسان حقيقته النقية ويكون سيّد نفسه(٣).

والأسلوب الأخير الذي تنتهجه «الشخصية الباحثة عن ذاتها » في مواجهة الاغتراب **هو قرار خوض المعركة**حين تقرر الإعلان عن ذاتيتها عبر الفعل ومواجهة من يصادرون حقها، هذه المواجهة تطال عوامل الاغتراب داخل النفس أو خارجها متمثلة بالجوانب النفسية والإجتماعية والسياسية للاغتراب، إن **قرار خوض المعركة** « فعلية أم رمزية» يصدر عن ذات سئمت الانتظار أو الصمت وابتدأت الفعل : «..فيما بعد أصدر « سيد حجاب » لنفسه أوامر إدارية. صدع لها، فسقطت في قاع حياته وشوشات المقاهي والخمارات وثرثرات أوصياء التاريخ، تخطى بأوامره الداخلية التي خرجت من رأسه لتبذر كالحب في أرض القتل، حياة كانت خسيسة، حياة ملايين تبرر وتحلم تحت شموس من مذلة وعار ..»(٤).

والقطيعة بين «سيد حجاب» ورموز الاغتراب واختيار المواجهة نراها في نصوص عديدة .. ففي « الفيضان » يهجر «أحمد الجنابي » رموز اغترابه؛ يقتل أباه، يطلّق زوجته، ويحرق هويّته المدينية وينطلق في البحث عن ذاته المختفية خلف طقوس التدجين « هو الآن

---

١) الزمن الموحش. مصدر سابق . ص ٤٤ .

٢) المصدر نفسه ص ٣٨ .

٣) غسق الآلهة. مصدر سابق. ص ٧٥ والزمن الموحش. مصدر سابق.ص ١٩٣.

٤) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق . ص ٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في طريقه للقبيلة، ناسيا المدن ومؤسسات العمل وإشارات المرور والخوف والحب وكل علامات الزمن القديم»(١). وفي« رقصة البراري الوحشية » تتكرر العلامات «.. لوى ذراع أبيه وصفعه ثم طرحه أرضاً ساحقاً وجهه وأسنانه ثم فرّ من البيت ولم يعد له .. منذ الآن سيكون الأزرق إله نفسه وأباها »(٢). وحرب الأزرق تمتد لتطال الغزاة ومن بعدهم ورثتهم «هؤلاء الذين احتلوا المدينة بعد رحيل الغزاة»(١). هذا الموقف هو ذات موقف «أبي علي شاهين » في رواية «الفهد»،التي تصور لنا حكاية الإنسان الذي ما زال في داخله بقية من نبض واحترام للذات واجه به رموز الإهانة « قد نكون فقراء لكنا لسنا كلابا .. »(٤) .

تحفل النصوص بنماذج كثيرة للمتمردين على ظرفهم (٥)، وفيها جميعاً تخوض الذات حرباً ضد أسباب اغترابها، محاولةً الحفاظ على إنسانيتها دافعة ثمن خيارها نهايات فاجعة ، حيث ينتهي «الفهد» شنقاً، أما « الأزرق» فَيُصطاد بطلقة على أبواب المدينة، و «أحمد الجنّابي» يعدم رميا بالرصاص، و « سيّد حجاب » يفجر نفسه في المعركة، و «نافذ علاّن » في قصة « حقل الأرجوان» ينتهي بالقتل غيلة، والرجل الذي بدأ بإحراق المدينة في « أغنية حزينة لرجل كان حيا » يُساق إلى السجن، و«خلدون» في قصة « العَكَر » يعذّب ويقتل تدريجياً. الموتَ في الحالات السابقة مغايرٌ للموت المجاني الذي يجتاح المدينة، لأنه نتيجة موقف أرادته الذات ودافعت عنه، وهذا يفسّر الأجواء الملحمية والاحتفالية التي تحيط به، فالموت يمثّل ذروة الصراع المحتدم بين عالمين متناقضين.

من جهة أخرى،تحمل بعض النصوص دلالات متفائلة لحسم الصراع، ففي قصة« الطيور

---

١) الفيضان. مصدر سابق ص١٠٨.

٢) الوعول . مصدر سابق ص ٦٨.

٣) المصدر نفسه ص ٧٠.

٤) الفهد . مصدر سابق.ص ١٩.

٥) نجد هذه المواقف في نصوص مختلفة: الفيضان؛حالة حصار، الطيور الغريبة القادمة مع الفجر، أغنية حزينة لرجل كان حياً، طقوس العار، وقت للجمر،حقل الأرجوان، العكر..إلخ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغريبة القادمة مع الفجر» يتعرض الناس للاستغلال الوحشي بامتصاص دمهم، وحقنهم بمصل «التدجين »، لكن القصة تنتهي نهاية دالة،حيث تتهاوى رموز الاستلاب بفعل الغضب«صاح الفجر الغاضب فينا: احرقوا المدينة. من قلوبنا وعيوننا ودمائنا خرجت قنابل ومتفجرات وراحت تقذف السيارات والمؤسسات والمتاجر والسجون والثكنات والمخافر والمشافي والقصور والجوامع، وكل ما بُني على أرض المدينة من نُصُب تذكاريــة لآلهـة الموت »(١)، ذلك أنّ القمع الشديد يخلق نقيضه في النهاية.

تبشر النصوص بالمعركة والحريق والثورة والنيران درباً لإنهاء الاغتراب وتحقيق التوازن والانسجام .. ففي المعركة والمواجهة «يحدث اختلال في دورة الارض والشمس تنبىء بفصول جديدة تخرج من طقس النار» (٢).

ويتكرر طقس النار وخلع القديم (العري) في رموز قصة«حالة حصار »، فَتَحْتَ عنوان «المطهر» تصوّر القصة ارتباط شرط الولادة والبداية الجديدة (الحبيبة) بدخول النار : « اللعبة أن نعبر النار عراة إليها، ومن يصلها هي له» (٣)، وفي الزمن الموحش يردد «راني » : « الثوري يحرق كل الهشيم الكاذب، ولو أدى ذلك إلى احتراقه في النهاية » (٤).

إن حركة نموذج «الشخصية الباحثة عن ذاتها» تتجاوز حركة النموذجين السابقين بمحاولتها ردم الهوّة بين الحلم والواقع، وتقدّمها خطوة أو خطوات نحو ارتقائها الإنساني، بالرغم من أنها تحصد الفشل غالباً.

---

١) الوعول . مصدر سابق . ص ١٩.

٢) المصدر نفسه ص ٩٥.

٣) المصدر نفسه . ص ٥٢ .

٤) الزمن الموحش. مصدر سابق ص ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمكننا بعد استعراض ملامح الاغتراب عن الذات كما تبدّت في نصوص حيدر حيدر استخلاص ما يلي:

أولاً: بالرغم من أن الحالات والمواقف التي تصوّر «الذات الباحثة عن ذاتها» هي الأكثر حضوراً في النصوص، تليها الذات الهاربة من ذاتها، ثم المستغرقة في ذاتها، فإن هذه الكثرة لا تعكس حالة إيجابية كما توحي ظاهريا؛ ذلك أن الذات المستغرقة في ذاتها تشمل حالة الاستغراق الجماعي / وهذه الحالة تعني أن المجموع في حالة خمول وخدر ولامبالاة، مقابل ذوات مفردة تتصدى للصراع وذوات أخرى مفردة تهرب من المواجهة نحو خلاصها الفردي.

ثانياً: توزعت أسباب الاغتراب بين الذاتي والموضوعي، إلا أن حالات الاغتراب عن الذات الحاصلة لأسباب موضوعية هي السائدة، مما يدلل على افتقاد الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لشرطي العدل والحرية، فأغلب صراعات الأشخاص ومعاناتهم متصلة بأسباب القمع السياسي ، ومصادرة الحرية الفكرية، والصراع الطبقي، وتعبر النصوص عن ذلك في مواقفَ كثيرةٍ مستعينةً بالرمز: «قصة البرابرة»، الطيور الغريبة القادمة مع الفجر، حالة حصار، غبار الطلع».

ثالثاً: يتكشّف الصراع الذي تقوده« الشخصية الباحثة عن ذاتها » عن هزيمتها في معظم المواقف ، وتحمل هذه النتيجة في دلالتها عقم المقاومة الفردية لأسباب الاغتراب ورموزه، حيث تتبدّى حركة الذات وكأنها فورة انفعالية ضد الاستبداد اللاحق بها لا تحدث كبير أثر أوتغيير في الأوضاع القائمة، بل إن النصوص تصور حالات عدة تُسرق فيها جهود هذه الذات وتوظف لخدمة الأوضاع القائمة، مما يحمل إدانة مباشرة لحالة الاستغراق الجماعي والهروب.

يبحث الفصل التالي الاغتراب عن المكان في أدب حيدر حيدر ، فقد لمست الباحثة أثناء مطالعاتها لأدب الكاتب الحضور الواضحَ لثنائية المدينة/ الطبيعة على مستوى الرمز والواقع، والإحالات التي تحملها هذه الثنائية في صراع رموز الاغتراب ورموز مجابهته على امتداد أعماله، فقد وجدت أنه من الضروري ملاحقة هذا الحضور الكثيف، وتحليل دلالاته،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستشفاف مضامينه وأبعاده الفكرية الأيدولوجية فيما يختص بموضوعة الاغتراب. فكان أنْ رصدت التقابل في دلالات المدينة والطبيعة، وكيف أن الأولى تشير إلى الواقع المغتـرِب، في حين تحمل الثانية نبوءة التغيير والتحقق، واستقصت الباحثة من ثمّ تفرّعات المكان في المدينة ودلالاته السالبة بتقابلها مع تفرّعات المكان في الطبيعة بدلالاته الإيجابية، ثم حاولت اكتشاف الدلالات والمعاني الكامنة في نهايات القصص والروايات فيما يختص بالمدينة والطبيعة على حدّ سواء، وقد تأكد للباحثة أنّ المدينة والطبيعة لدى الكاتب، ما هما إلاّ أقنعة يعبّر بهما عن الصراع بين من يمثلون الاغتراب ومن يقاومونه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

- الاغتراب عن المكان

أولاً - التقابل بين المدينة/ الواقع والطبيعة / الحلم.

ثانياً - التقابل بين فضاءات المدينة وفضاءات الطبيعة.

ثالثاً - دلالات النهاية: الاغتراب وتجاوزه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدخل

ننطلق في تحليلنا لاغترابِ الإنسان عن المكان من وجهة النظر التي ترى المكان امتداداً للإنسان فإنك «إذا وصفت البيت فقد وصفت الإنسان ... فالبيوت تعبّر عن أصحابها»(١)، وبذلك فالأمكنة المتنوعة، بما فيها البيوت، هي فضاء وجود الانسان ومكان ممارسة فعالياته وبَناء علاقاته، ولأن المكان ليس إطاراً مجرداً لوجود الإنسان، فإنه يغدو مشبعاً بالدلالات النفسية والاجتماعيةوالمعاني والمرموزات، وشديدَ الصلة بأحاسيس الألفة والأمان أو التهديد والحصار.

أما الاغتراب عَن المكان في النصوص المدروسة، فيتبدّى في طبيعة العلاقة القائمة بين الشخوص وبين المكان (الفضاء).

في علاقة الاغتراب يحدث تنافر بين الإنسان ومكانه؛ فتشي الأماكن المغلقة بالحصار والنفي وتَوقُّع المباغتة بينما تتخذ الأماكن المفتوحة شكل المتاهة وترتبط بأحاسيس الضياع والتوحد.

و المكان المغترَب قائم كياناً منفصلاً عن الإنسان، محمّلا بدلالات مرفوضة كالتهديد والقمع والحصار، مسبباً الضيق في النفس والرغبة في الانفلات والهرب، لذا يخلو من بصمة الإنسان الخلاق المبدع، مما يكشف بعداً أعمق للعلاقة بالمكان، فالإنسان الفاقد لحرية أفعاله في الزمن، سيعكس هذا الغياب للحرية في علاقته بالمكان، وبدل أن يشيد فضاءً لراحته وممارسة حرياته ونشاطاته المبدعة وكل ما يثري خياله ويغني إنسانيته ، يُعنى بإنشاء أمكنة تخفي أخطاءه وتغطي ممارساته المشبوهة، والمكان في هذه الحالة يكشف وجهين: وجهاً مرغوباً بالنسبة للمستبِد(الفاعل)،ووجهاً مكروهاً بالنسبة للضّحية(المفعول به).

وإذن يتناول هذا الفصل بالبحث اغتراب الإنسان عن المكان، من حيث هو فضاء لوجود الإنسان ، ولا يعني الاغتـراب هنا السفر أو الغياب عن الوطن ، إنما يعنـي تلك

---

(١) رينيه ويليك و اوستن وارين. نظرية الأدب . ترجمة محيي الدين صبحي.دمشق سوريا ١٩٧٢، ص٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلاقة المشوّهة التي تتشكل من تفاعل الإنسان مع فضاء وجوده حين تغيب الألفة ويُفتقد الأمان، ويعاني الإنسان الحصار والتهديد في مكانه الخاص جداً، وفي الأمكنة العامة كذلك، نعي هنا العلاقة التأثرية المتبادلة بين الإنسان وفضاء وجوده، ونعي الرّمزية الكامنة في التقابل بين فضاء المدينة وفضاء الطبيعة في النصوص المدروسة، لذا تدور المقاربة حول أوجه مقترحة لهذين الفضاءين / الرمزين الضدّين، فنرصد بالبحث الوجوه المتنوعة للمدينة التي تجعلها فضاء كابوسياً محاصِراً، ونقارنها بالوجوه المتكشّفة للطبيعة الحاملة حلم التجاوز والانعتاق .

واستكمالاً للتقابل بين المدينة (الواقع) والطبيعة (الحلم)، نبحث التقابل الظاهر في تفرّعات المكان في المدينة وارتباطها بسمات الاغتراب في المعمار واللّون والفعل الإنساني، و تفرّعات المكان في الطبيعة وما يكشف عنه من تجاوز للاغتراب في امتداد الفضاء واللّون والفعل الإنساني؛ ومن ثم نحاول استشفاف الدّلالات الكامنة في نهايات المدينة في النصوص المدروسة ، ودلالات الصراع الدائب بين رموز الاغتراب الحاضرة والفاعلة، ورموز التجاوز والتوق للخلاص.

أولاً: التقابل بين المدينة /الواقع و الطبيعة/الحلم :

تطرح النصوص– ضمناً – التقابل بين المدينة(الواقع) و الطبيعة(الحلم) ، الأولى ترتسم فضاءً مغترباً بمضامينه الواقعية والرّمزية، والثانية ترتسم فضاءً مناقضاً للاغتراب ، غنياً بالإمكانات لحياة انسانية صحيّة زاخرة بالمعاني.

إن استقصاء الوجوه المتعددة المتبدية للمدينة وللطبيعة داخل النصوص يكشف صورة بانورامية لهما، وإن رصد هذه الوجوه يساعد في لملمة وتوضيح ملامحهما بكل تناقضاتها. هذه التناقضات التي تعني الاغتراب في جانب منها،وتجاوزه في الجانب الآخر.

نبحث أولاً وجوه المدينة المقترحة وهي: التلوث ، و الاغتصاب، و السوق، و اللامعقول، و القمع، و الحرب، ثم نبحث وجوه الطبيعة المختزلة في : الطفولة و الحب و السلام، دون أن ننسى أن هذه الوجوه إنما هي زوايا نظر مختلفة للموضوع ذاته كما يتضح في المخططين التاليين:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

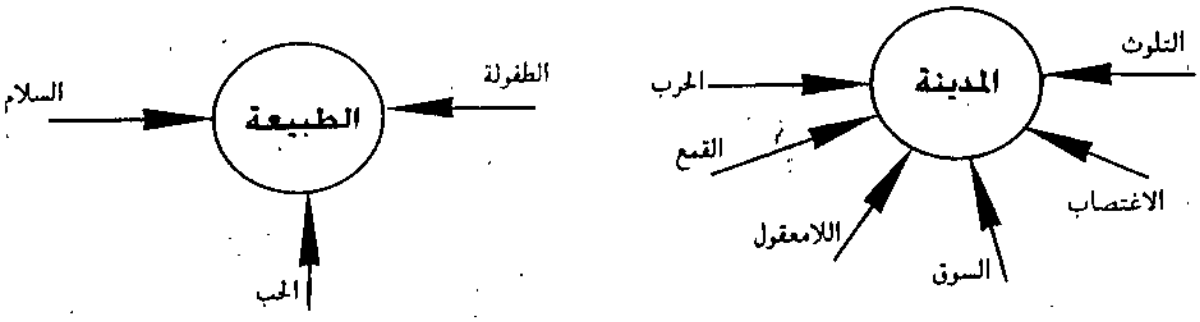

– المدينة/ وجه التلوث

تظهر المدينة هنا فضاءً خانقا ملوثاً يحاول الإنسان الهرب منه بلا فائدة، فالهواء ملوّث في كل مكان «غبار أصفر انتشر في مسام المدينة وفضائها»(١) «غبار الطلع الملوّث بغاز الميثان وثاني أكسيد الكربون»(٢)

ويبدو الإنسان في هذا الفضاء محاطاً ومحاصراً بهذا التلوث، لا يجد طريق النجاة،ينتقل من البيت إلى الشارع إلى البحر ، لكن دائما «ثمة رائحة تنبعث من كل مكان، تذكر بحمض الكبريت أو عطن المقابر المهجورة»(٣) والإنسان المحاصَر إذ تضيق ذاته، ويظلل الإحساس بالحصار لحظاته الخاصة، ويدمّر تواصله مع الآخرين يصيح كما في قصة «طائر الموت»: «نحن نحيا في غرفة غاز»(٤) أو يرى في مدينته كهفاً نتناً عليه أن يغادره إلى عالم أوسع وأنقى(٥).

---

١) غسق الآلهة.مصدر سابق ص ٥ .

٢) المصدر نفسه. ص ٦

٣) . الوعول.مصدر سابق ص ٣٧ .

٤) مجموعة غسق الآلهة. مصدر سابق ص ٣٨.

٥) الزمن الموحش.مصدر سابق ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– المدينة / وجه الاغتصاب

تُصوّر المدينة هنا امرأة مسبية ومنتهكة، تخلّى عنها أبناؤها وتركوها للتجار والقتلة والجواسيس الذين «سبوها ثم ناموا معها عنوة »(١)، لذا تهيم عارية دون ستر أو ملاذ، تطلب الحماية فلا تجدها : «كان أهل المدينة اكتشفوا السر إلا انهم لاذوا بالصمت واللامبالاة »(٢) وإزاء هذا الصمت يعلو صوت مُهدِّد في سمائها، يحلم بأن يكون له نصيب منها إنه صوت العدو «مناحيم بيجن »(٣). هذه المدينة ستصبح فيما بعد غانية، بعد أن سحرها لمعان الذهب وستظل محظيّة التجار والسماسرة والجواسيس والقتلة، وفي حين ستتبدى للكثيرين امرأة جميلة بغيدة المنال، سيكتشف البعض خرابها وتهتكها المستتر وراء الواجهة اللامعة، وأن لا سبيل لشفائها إلا باستتباب خرابها وإعادة خلقها من جديد(٤).

– المدينة/ وجه السوق

السّلم خدعة المدينة في زمن يعصف بأساساتها، هو القناع اللامع للمدينة السوق «دمشق قطار محمل بالامتعة »(٥)، حيث تغطي أصوات الباعة بقية الأصوات « شوارع الضوضاء ، مدينة السيارات والإسمنت وبازار البيع ما تزال تنبض تحت مظلة اللامبالاة والجنون الدموي لدورة رأس المال»(٦)، هذا القناع الظاهر يحجب ظِلّ المدينة: الفقر

---

١) الفيضان ، مصدر سابق ص٤٨ .

٢) الومض. مصدر سابق ص ١٤٤ .

٣) الزمن الموحش. مصدر سابق. ص ٢١٦ و ٢٤٢ و ٢٦٤.

٤) مجموعة غسق الآلهة. مصدر سابق . ص ١٣.

٥) الزمن الموحش. مصدر سابق ص ٧٩.

٦)مجموعة غسق الآلهة . مصدر سابق. ص ٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشوارع والأرصفة العامرة بالأوساخ، والنفايات والأوبئة وساكنيها من مشرّدين وشحاذين ومشوّهين، وفي نصوص متكررة تطغى حركة البيع والشراء على الأحداث الأكثر دلالة، ففي قصة« أغنية حزينة لرجل كان حيا » على سبيل المثال، تقيم المدينة بازاراً تباع فيه البضائع والقيم فمن ملابس النساء الداخلية إلى ثياب المجاهدين وأسلحتهم ، وتغطي ضجة البازار صراخ الرجل الذي يلعن المدينة ويفضح تجارها: « ملعونون حتى آخر الدهر، مدينة تحتاج حريقا .. هل لديك عود ثقاب .. هيا انهض معي لنحرق هذه المدينة القحبة »(١).

وحين يأتي الشرطي ويسوق الرجل للسجن، لا ينتبه أحد للحادثة فالبازار في أوْجِه.

– المدينة / وجه اللامعقول

تجتمع المتناقضات التي لا تثير أحدا، بل يتقدم الزمن مضيفا إليها أحداثاً أكثر غرابةً ولا معقوليةً في مدينة « تقيم العمارات وتحرث بمحاريث خشبية، ويقيم سكانها الصلوات الخمس ونساؤها محجبات وفتيانها يسكرون ويتحدثون عن الديالكتيك التاريخي »(٢)، وحين يفاجئهم العدو يهربون إلى المقابر(٣).

تتكرر الأحداث والمشاهد الغرائبية في عدد كبير من النصوص القصصية (القتيل – النهر الحليبي – الصيد وحكايا البشر – الرّهان – أغنية حزينة لرجل كان حياً – الطيور الغريبة القادمة مع الفجر – حالة حصار – غسق الآلهة) حاملة دلالات تراجع العقل، وانتشار الفوضى، وسيادة القوة الهمجية في المدينة التي تحوّلَ سكانها إلى قطيع خائف فاقد البصيرة يقاد إلى حتفه: «الناس مسرعون، لكن الخوف مرتسم في قسماتهم، حركاتهم مضطربة

---

١) الفيضان مصدر سابق. ص ٤٩.

٢)حيدر حيدر : مجموعة حكايا النورس المهاجر ط٢ دار الحقائق. بيروت– لبنان. ١٩٧٩ ص١٣.

٣) المصدر نفسه. ص٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأنما هم مطاردون»(١).

وتعكس المشاهد كذلك الخواء الفكري لمدينة رضيت أن تساط بالقوة الغاشمة، وأن يحكمها تجار لا يفهمون سوى لغة المال، وكما تعكس هشاشة القيم والمثل وتراجعها «التائهون يتكاثرون كالجراد، يحصدون أنفسهم والآخرين، يدخلون المخادع المحرّمة، يشهدون الزّور ثم يرتّلون الآيات»(٢)، ولا تأتي الصدمة التي تحدثها هذه المشاهد من غرائبيتها فحسب، بل ومن رد فعل الآخرين اللامبالي أيضا، فعندما يشاهد «الأخضر» في قصة « أغنية حزينة لرجل كان حياً » رجلاً عجوزاً وشاباً يقتتلان ومن حولهما يتحلق الناس مشجعين مهلّلين في النهاية لمقتل العجوز .. يسأل الناس عمّا يحدث فيجيبونه « أبٌ وابنه غلبهما جوع رمضان»(٣).

ويتكرر رد الفعل اللامبالي المتناقض في مشاهد كثيرة نمثل لها بهذا المشهد من قصة «القتيل»/ مجموعة الومض « حشد من الناس عراة ومحجبون، نساء، ورجال، باعة وجنود، رجلان عاريان يتباريان بالسيوف .. الأسطحة مكتظة والنوافذ .. رجل على الناصية يقرأ افتتاحية جريدة، على الناحية الأخرى رجل معمّم معه ربابة يغني .. في الجهة الجنوبية من الساحة تقف جماعة تهتف بشعارات سياسيـــة.. »(٤)، يختزل المشهد السابق المدينة، ويمهد للنّهايات الفاجعة والدمار القادم لكل من فيها(٥).

– المدينة / وجه القمع

يتمثّل وجه القمع في الصّراع المحتدم بين الحاكم والمحكوم، وبين القوي والضعيف، على مستوى الواقع ومستوى الرمز في النصوص المختلفة، فكما تتخذ الصورة الفنية ملامح واقعية

---

١) الومض، مصدر سابق: ص٥٣.

٢) المصدر نفسه: ص٧٠.

٣) الفيضان. مصدر سابق: ص ٤٥.

٤) الومض. مصدر سابق :ص ٥٦، ٥٧.

٥) غسق الآلهة. مصدر سابق: ص٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحياناً كما في رواية «الفهد» وقصتي «رقصة البراري الوحشية» و «صمت النار» ، فإنها تختار الرمز الدال في أحايين كثيرة كما في قصص «البرابرة» و «حالة حصار» و«الفيضان» و«الطيور الغريبة القادمة مع الفجر» .

وكما يتضح من حركة الشخوص في النصوص المدروسة، فإن القمع المفروض – على شكل استغلال،وحصار، وسجن، وسلب للحريات الشخصية، والحقوق الأساسية للإنسان – يواجَه غالباً بالخنوع والقبول العاجز المستسلم «العراة يتقدمون واحداً واحداً باتجاه آلات الفصد لا أحد يتكلم، حتى التنفس يخرج مختلجا، إيقاع طقس مهيب ينتظم بأوامر تصدع لها القدم والذراع والرأس والقلب والإنسان »(١).

أما المناهضون لهذا الاعتداء فإنهم أفرادٌ وحيدون، ينتهون غالبا نهايات مفجعة، صلبا أو قتلا أو شنقا، أويصيبهم الجنون ، دون أن يتركوا تأثيراً إيجابياً في الآخرين « تجمّع الناس في الساحة حول الجسد المصلوب في فراغ النهار الفضي .. لم يخطر ببال إلا القليلين أن هذا الفلاح البائس المدلى على خشبة الموت قد تمرد ومات من أجل الحرية والأرض »(٢).

وفي الجانب الاجتماعي يتجلى القمع في سلطة الرجل المستخدمة ضد المرأة، فتحبس خلف الحجاب أو تضرب وتهان «...وكان يردد على مسامعه: النساء كالأفاعي اسحق رؤوسها جيدا، إنه يذكر الآن كيف كان يضربها بكل قسوة ووحشية»(٣)، أو تغتصب: «وكما يجر ذئب نعجة إلى وكره سحبها إلى مدخل عمارة مظلمة .. بحركة بطيئة مهتاجة وكما تخترق سكين جرحـــا اخترقها ..» (٤).

---

١) الوعول. مصدر سابق ص ١٣، ١٤.

٢) الفهد .مصدر سابق . ص٧٠

٣) الزمن الموحش. مصدر سابق ص ٢٠٢.

٤) الوعول. مصدر سابق ص ٧٦– ٧٧ ، و انظرأيضاً : الزمن الموحش ص ١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– المدينة/ وجه الحرب

الحربُ حصادٌ لمدينة الصراع وانعدام العدل، فالوجوه السابقة للمدينة تنخر في أساساتها تحت ستار الليل والأقنعة، غير أن الحرب تكشف وجهها الحقيقي حيث الخراب يطال الإنسان والمكان «تحول الشجر إلى هراوات وأعقاب بنادق وتحول الماء إلى مصل»(١).

أما شواهد القبور فلا تحمل أسماء على عادة الشواهد، بل تسجل أرقاماً، وفي كل مكان «غبار وضوضاء وأصوات طلقات، زحام يذكر بالحشر، البشر يبدون في زي جنود، فضاء المدينة غبار ممتزج بالشمس ومن الهواء تفوح روائح البارود »(٢).

وفي «غبار الطلع» تتحول المدينة الى جثة كبيرة موشّحة ببياض الكفن، وسواد الاحتراق «الجدران السوداء المثقوبة، الشجر المهشم ولا حركة ولا صوت، لا ألوان سوى هذا البياض المنتشر فوق جثة المدينة »(٣).

يبدو وجه الحرب وكأنه محصلة صراع الوجوه الأخرىٰ للمدينة، حيث انعدام العدل وتجاوز الحريات وانهيار القيم، فالنار (الحرب) تبدو وسيلة التّطهّر والولادة والتخلّق من جديد، نيران يشعلها الفقراء والغاضبون والثائرون: «صاح الفجر الغاضب فينا : احرقوا المدينة»(٤)، أو يحلمون بإشعالها «أحلم بالخراب .. أجل بالخراب، أن تضرب هذه المدينة بالقنابل فلا يبقى مأوى»(٥) «ضربة هوجاء، واحدة يخرج منها حريق يمحو ما هو قائم ليعاد تشكيل هذه الأرض الفاسدة من جديد»(٦).

---

١) الوعول. مصدر سابق ص ١١ .

٢) المصدر نفسه،ص٢١ .

٣) غسق الآلهة مصدر سابق ض ٢١ .

٤) الوعول. مصدر سابق ص ١٩ .

٥) الزمن الموحش. مصدر سابق ص ٢٣٤.

٦)غسق الآلهة مصدر سابق ص ١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحمل مجموعة «الوعول» أصداء متفائلة لهذه الحرب التي تأتي على ما هو فاسد، ليعيد الإنسان البناء من جديد بعد أن تطهر بالنار .. لكن يظل القادم الجديد المتوازن طي الحلم، إذ سرعان ما تدور الأحداث دورتها ليعود المجاهدون والفقراء إلى الأرصفة والشوارع العفنة، ويحصد البعض مكاسب الثورة لصالحه الخاص . في قصة «الاغتيال» تقول عائشة لزوجها بن جلّون المجاهد الذي فقد عينيه في الحرب : «هل أنت الوحيد الذي حصد الريح بعد الحرب، إنهم هناك فوق الأرصفة مشردون أمام الأفران والخمارات والمقاهي وداخل أكواخ الصفيح، لا تستطيع أن تراهم خارج المدينة، يشبهون وباء ضاراً، عزلوه حتى لا يصيبهم بالعدوى»(١).

في الوجوه السابقة المتباينة للمدينة، كما رسمتها النصوص المدروسة يتضح اغتراب الإنسان عن المكان / المدينة، فالمدينة فضاء تغيب فيه الحرية ويغيب عنه الإنسان السوي، ولا تتجلى هذه الغربة عن المكان بالابتعاد المأساوي نفياً أو هرباً كما في حالات محدودة، بل في الابتعاد النفسي لحظة التواجد في المكان، سواء أكان مكانا للإقامة الاختيارية أم الإجبارية، كما سيتضح لنا في بحث تفرعات المكان في المدينة ودلالاته.

---

١) الوعول . مصدر سابق ص ٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- وجوه الطبيعة/ الحلم

نقترح هنا ثلاثة وجوه لفضاء الطبيعة، هي: الحب، والطفولة، والسلام، ذلك لأنها الأكثر بروزاً في أدب الكاتب، بالإضافة إلى أنها تعطينا صورة شاملة لهذا الفضاء الموحي بالأمان والتناغم والسعادة وإمكانية تحقيقها .

- الطبيعة / وجه الحب

تقترن فضاءات الطبيعة برموز الحب الإنساني ،فالجسد بعطائه الزاخر يذكّر بالأرض وموسم خصبها، والأنثى وَعْلَة «مصاغة من الحجر البركاني والشمس »(١)، إنّ فعل الجنس المتحرر يتخذ تشابيهه من معجم الطبيعة الواسع، وبالأحرى فإن التحقق الانساني على كل مستوياته ينعكس باتحاد الإنسان بالطبيعة / الأم (٢)، والحب الحقيقي «عكس الحب الزائف» هو المقترن بالفضاء الواسع / الرمز «الحب الشمسي وزرقة البحر»(٣).

هذا التناغم يشترك فيه الإنسان والحيوان، فالأجناس الاخرى «تناجي بعضها وتحيا .. تعانق بعضها وتحيا»(٤)، في حين يشبّه الحب في فضاء المدينة بالطعنة / الاغتصاب (٥)، ويغدو ملتبسا أو مفقوداً تحت ضغط القيود وزيف العلاقات، كما يتبدى في رواية «الزمن الموحش» و قصص «غسق الآلهة» و«طائر الموت» و«غبار الطلع»، وثمة التناقض الذي تطرحه القصص بين فتاة المدينة وفتاة الطبيعة؛ الأولى ملوّنة بالأصباغ «رائحة جسدها والجلد الطري، غطتها رائحة الشعر المحروق بالأوكسجين »(٦)، تساوم على جسدها وتطلب الثمن، محاصرة بنفسها والآخرين: «وأمينة تعيش في عالم يراقب بصيص عينها ووقع قدميها وتسلل خصلة من شعرها

---

١) غسق الآلهة . مصدر سابق. ص ٧١.

٢) المصدر نفسه . ص ٦٠، ٦١ .

٣) المصدر نفسه : ص ١٠٠.

٤) حكايا النورس المهاجر . مصدر سابق ص ٦٩ ، ٧٠ .

٥) الوعول . مصدر سابق ص ٧٧ .

٦) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خارج حجابها الكالح »(١)، أو هي امرأة تحلم بالرفاهية وسط الدمار المادي والمعنوي «هذه المرأة عاقلة تحلم بالسعادة؛ بيت وسيارة وأثاث وديكورات وسلام لاهوتي»(٢)، الأخرى فتاة الطبيعة تأخذ ألوانها من الطبيعة تحب بحريّة، مبادرة وجريئة تعطي المعرفة بلا حدود مثالها كالي / الغجرية في« غسق الآلهة»، وفتاة الحقول / الطيف في «رقصة البراري الوحشية ».

وتتضح هذه الدلالة أكثر،في التقابل الصارخ بين مشهد لقاء «شبلي» بـ «منى»، ومشـهد لقائه بـ «أمينة» في «الزمن الموحش»، الأولـى رمز التحقـق والحب الحرّ والانسـانيـة الواعـدة،يلتقيها في فضاء طبيعي رومانسي: «حدث ذلك في غروب خريفي في بستان مشجّر معشب، كان هنا ك سواقٍ يجري فيها ماء صاف، وتحت الماءحصى أبيض ورمادي وطحالب خضراء، وبدت كأنها شردت من أهلها.. وراحت تثب فوق العشب كظبي آمن»(٣) وتمتدّ هذه الرؤية في وصف علاقته بها فيما بعد «مذ عرفتها، امتلكتني طفولتها النقية»(٤) و«كان يخيّل إليّ أن حضورها متّسم بخاصية الخلود»(٥) والثانية «أمينة» رمز التواطؤ مع الواقع والسائد والمتاح، حيث يغيب الحب وتغيب لغة التواصل بعد تفريغ شحنةالجنس.. يلتقيها في غرفتها «الموسومة بالحرام»(٦) لقاءً مسروقاً موقتاً بانطفاء النور في غرفة زوجها الهرم «أحدق في فضاء الغرفة والظلام والطفلة النائمة ثم أنعطف إلى نفسي كابحاً رغبة لعينة تهيب بي أن أهرب عارياً في شوارع المدينة بعيداً عن هذا الاسترخاء وعن هذا الزمن الذي تحجّر بيننا»(٧)،ولنلاحظ هنا التقابل الواضح في فضاء اللقاء ، بين فضاء

---

١) الزمن الموحش ، مصدر سابق ص ١٠

٢) الوعول . مصدر سابق ص ٧٨.

٣) الزمن الموحش. مصدر سابق. ص ١٩١.

٤) المصدر نفسه. ص ١١.

٥) المصدر نفسه. ص ١٠.

٦) المصدر نفسه. ص ٣٣.

٧) المصدر نفسه. ص ٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطبيعة الممتد الملون بالأبيض والأخضر في حالة «منى»، وفضاء الغرفة الضيق المظلم في حالة «أمينة»،وكذلك نفسية المرأة في كلتا الحالتين ؛ فمنى وحدها تثب فوق العشب سعيدة منطلقة وآمنة ، والأخرى خائفة، مترقبة قدوم زوجها في أية لحظة.و ينكشف هذا التقابل بيّنا في أحاسيس الرجل عقب اللقاء ، فاللقاء مع «منى »يمسّ أعماقه فلا يريده أن ينتهي ،ومعها يستشعر القيمة المعنوية لذاته وللحظات ، أما في لقائه مع «أمينة» ، فلا ينفعل فيه إلا الجسد الذي سرعان ما يهمد ، ليواجه إحساس الخواء وموت اللحظة ،وإختفاء البريق والرغبة بالهرب عاريا.

وكذلك يرتسم هذا التقابل في قصة «غسق الآلهة» بين شخصيتي «كالي» و«أماليا» امرأة الشمس والحرية وامرأة المنزل والاستكانة «على شاشة الليل يتقابل الوجهان. لا ليس الوجهان. امرأتان، امرأة البيت وامرأة البراري.الله والوحش. السلام والعاصفة»(١).

– الطبيعة / وجه الطفولة:

ترتبط الطفولة في عالم حيدرحيدر القصصي ، بحالة من الانسجام مع الذات والنقاء الداخلي والفرح، بعيداً عن الطفولة المهددة في عالم يحاصره الموت وتحرق نيرانه الغابات، الطفولة هنا رمز لحالة الانسجام المناقضة للاغتراب، فـ «الأزرق» في قصة «رقصة البراري الوحشية» وهو الخارج على المدينة، المحارب،المغتصَب والمغتصِب، يجد ذاته الضائعة في توحّده مع الطبيعة وعودته لطفولته «في الهواء الطلق بين الصخور يقيم مملكته الخاصة .. إن الأرض والريح وهذه السماء اللامحدودة، تتغلغل في عروق جسده فتتفتح المساحة التي أغلقتهاالمدن الملوثة،تشف روح«الأزرق»وتعود له طفولته المفقودة، الطفولة التي انتهكت»(٢)، و «بهدوء طفل يستلقي فوق العشب الأخضر وينام عارياً بين ذراعي أمه»(٣) .

---

١) غسق الآلهة. مصدر سابق. ص ٥١.

٢)الوعول . مصدر سابق. ص ٧٨.

٣) المصدر نفسه .ص ٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا ما كان عالم الأطفال هو عالم نباتي طبيعي بشكل أساسي، فإن هذا العالم يقترن في النصوص بكل ما هو إيجابي وشفّاف وبسيط وعميق ودالّ «حياة بسيطة خصبة ورائعة كالندى فوق الأوراق»(١)، وإن القصص إذ تطرح شخصيات غاية في البراءة والعفوية ممثلة الطفولة / تحقق الذات، فإنها تصور لنا اعتداء المدينة المتكرر على هذه الشخصيات / الرموز، فـ «فياض» الذي عاش في البرية كأحد أفراد قطيع الغزلان ، اقتاده أهل المدينة وعطّلوا له رجليه ، وانتزعوه من عالم طفولته إلى عالمهم المشوه (٢)، وكذلك «حميمود» الراعي المسالم الذي ضُرب حتى فقد ذاكرته(٣) أما الطفل «خلدون» الذي لا يعرف الكذب فقد ضرب وقطع لسانه كي لا يتكلم ثم قتل فيما بعد(٤)، وكذلك كان القتل جزاء «أحمد الجنابي» الذي سعى نحو ذاته وطفولته(٥)، و الغجرية في قصة «غسق الآلهة»، و «الأزرق» في قصة«رقصة البراري الوحشية».

فالإنسان هنا يقتل رموز تحققه بيده، ويعد عالمه المبشر بانتشاله من مستنقعه، ويبدو هنا مقتل الغجرية على يد حبيبها وعاشقها الحدث الأكثر دلالة .

– الطبيعة / وجه السلام

لا ينفصم هذا الوجه عن الوجهين السابقين بل تكتمل به صورةُ الطبيعة / الرمز، فضاء التحقق وتجاوز الاغتراب، تحفل القصص بالشخصيات الخارجة من المدينة نحو فضاء نقي، آمن، يحيا فيه الانسان جنباً الى جنب مع كائنات الطبيعة الأخرى، حياة مليئة بالعمل والحب « .. نمضي إلى البراري والجزر الوحشية .. نفعل ونغني ونبكي، ننحشر معا في مغاور قديمة،

---

١)حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق: ص ١٠٩.

٢)المصدر نفسه: ص ٦٨.

٣) الومض. مصدر سابق :ص ١٠٨.

٤) الومض. مصدر سابق :ص ١٤١ .

٥) الفيضان . مصدر سابق: ص ٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عنكبها الزمن،ثم نصرخ كالوحوش في مجد الشهوة المشتعلة وبعدها نموت بلا طقوس »(١).

إن عالم الطبيعة يعكس فرح الإنسان، ويشاركه هذا الفرح حين يخرج على مدينته الموبوءة ويختار ذاته «انبعثت موسيقى مع إيقاعات مطر وحشي راحت تتوغل داخل غابات بدائية جديدة وطلعت زهور وروائح وألوان لا عهد له بها، ثم ما لبث العالم أن توهج بأطياف، وبحار، وشجر كانت فيما مضى نائية منسية»(٢).

وهذا العالم الطبيعي يمنح الإنسان الحلم بالخلاص، والبدء من جديد لتشييد إنسانية تحاول أن تكون ذاتها و تتخلص من اغترابها السابق، الطبيعة تصبح وعداً بجيل جديد، وعالم جديد، يصنعه هؤلاء الخارجون «ننام على تخوم المدينة في الخرائب المهجورة .. في كل مكان نمر فيه نلد نسلاً قوياً كالصخور،ساطعاً كالشمس، يصلّي للعمل والحرية والشعرولاينسى»(٣) هذه السلالة الجديدة تبشر بها قصة «الفيضان» أيضا ؛ فهي «سلالة غريبة لا ديانة لها ولا آلهة غير الريح والشمس والمطر والرعد»(٤).

وهذه السلالة كما تصفها لنا قصة «الفيضان» تمثل الحلم الإنساني بالعدل والمساواة والحرية، هذه الحقوق التي حرم منها في المدينة.

ولا تتضح الطبيعة / السلام مكاناً مادياً فحسب، بل تكشف عن دلائل نفسية، عالم من السلام والتناغم داخل ذات الإنسان التي هي جزء من الطبيعة، فحين يُعتَدى على هذه الذات وتغرّب عن نفسها يبدو الأمر كأنه «خيانة ارتكبت ضد الشمس والغابات والنار والبحر وأصوات الطيور، هذه الخيانة حولتنا إلى فزاعات أو تماثيل خرساء »(٥).

---

١) الومض . مصدر سابق ص ٩١.

٢) الفيضان . مصدر سابق ص ١١٠.

٣) الزمن الموحش . مصدر سابق ص ٢٧٠.

٤) الفيضان . مصدر سابق ص ١٣٠ .

٥) غسق الآلهة . مصدر سابق. ص ٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الوجوه السابقة للطبيعة تجعلها فضاء حلمياً ورمزياً أكثر منه واقعياً ، فالإنسان يحلم بالتجاوز، وتخطّي التردّي في حياته الشخصية ونفسيته ومحيطه، لذا يقوم الصراع بين محاولات الخروج وأسباب الاغتراب، فيتضح الصراع، أكثر ما يتّضح، بين عالم يطمح للتحقق اللامغترب «الطبيعة» وعالم أسّس أسباب اغترابه منذ زمن قديم، ويسعى لاستمرار حضوره «المدينة».

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا: التقابل بين فضاءات المدينة وفضاءات الطبيعة

- فضاءات المدينة/ تفرعات المكان

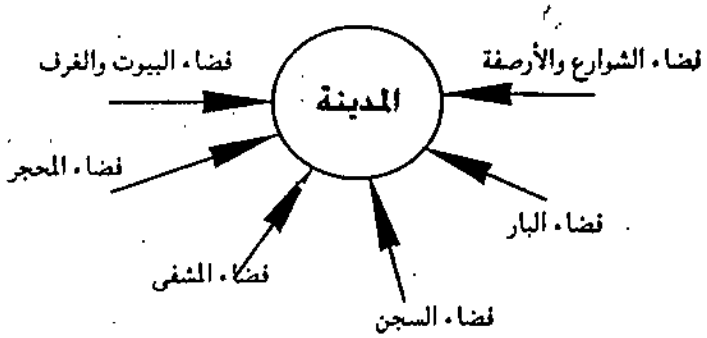

- فضاء البيوت والغرف :

لا تفصّل النصوص المدروسة في وصف المنزل من الخارج أوالداخل إلا بما يتصل بالتأثيرات النفسية المتبادلة بين الشخصية ومكانها، ولا يرتبط البيت فيها بدلالات الألفة والحميمية والأمان التي تحدث عنها باشلار في كتابه «جماليات المكان »(١)، فالبيت هنا منعزل «بيت منفرد بين الأدغال، بعيد عن المدينة»(٢) «كان البيت معزولا عن مجموع البيوت المتناثرة في الضاحية غارقاً في السكون»(٣)، وهو إما ساحة لممارسات مشبوهة تصل حد الاغتصاب والقتل(٤)، أو فخ ومصيدة للإيقاع بإنسان آخر(٥).

أما الغرف فتفتقر كذلك للأمان وسمة الخصوصية، ضيّقة ومغلقة « الغرف التي تشبه الصناديق المقفلة » (٦) تحاصر الانسان ولا تدخلها الرياح، «نحن الآن في مدينة صغيرة داخل غرف صغيرة وممرات ضيقة وخطوات أكثر ضيقاً»(٧)، أو هي غرف مهملة تعكس في

---

١) باشلار. جماليات المكان. ترجة غالب هلسا. دار الجاحظ للنشر. وزارة الثقافة والإعلام. بغداد. العراق ١٩٨٠ ، ص ٤١-٤٥.

٢) الومض . مصدر سابق ص ١١٩.

٣) الزمن الموحش. مصدر سابق ص ١٥٢ .

٤) المصدر نفسه . ص١٥٤

٥) الومض . مصدر سابق ص ١٢٤ .

٦) المصدر نفسه. ص ٩٧ .

٧) غبار الطلع/ غسق الآلهة. مصدر سابق ص ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فوضاها وقذارتها نفسية إنسان هارب من الحياة إلى النسيان «سرير عتيق وثياب وسخة مرمية بفوضى في كل مكان، كؤوس وزجاجات فارغة، ثم هذا الغبار فوق الجدران المطلية بلون باهت، وهذا الرجل الهرم»(١) وثمة الغرف المهددة بالاقتحام لأسباب اجتماعية أو سياسية أو دونما سبب محدد، هذه الغرف قد تكون فضاءً لفعل جنسي محرم اجتماعياً، تُدخل خلسةً وتغادر خلسةً، وتعمرُ بالهمس والحركة المذعورة «سمعت الخوف يخرج من حلمتي ثدييها ومن أظافري، كان يختلج في الثواني وفي الأنفاس وعلى سجادة الغرفة حيث تمددنا، صار للخوف أرجل وعيون وآذان»(٢) وقد يدخلها الجنود دونما استئذان أو توقع «اقتحموا الباب ودخلوا عليهما كانوا يرتدون السترات الكاكية وبين قبضاتهم مسدسات الماغنوم «(٣)

– فضاء الشوارع والأرصفة

يحفل هذا الفضاء بدلالات الاغتراب، سنختار منها الأكثر حضورا وتكراراً في النصوص وبالتالي الأعمق دلالة .

أ – الشارع / المأوى

الشوارع والأرصفة هي المأوى والملاذ المتاح لمنبوذي المدينة من متسولين ومشردين ومجانين ومشوهي الحرب وبقايا المخمورين وصعاليك آخر الليل (٤)، فهؤلاء المهمشون في الحياة اليومية الصاخبة لمدينة البيع والشراء، مهمشون في المكان، فهم لا يملكون حتى الغرف الضيقة الممنوحة للآخرين، لذا يعيشون على قدم المساواة مع الحشرات والحيوانات الضالّة في الشوارع القذرة ذات الروائح الكريهة، في المراحيض والمزابل ومجاري المدينة، بعيداً عن الشوارع المضاءة والعامرة بالأشجار وروائح الزهر والسيارات الحديثة(٥).

---

١) الزمن الموحش. مصدر سابق . ص ٨٠ .

٢) المصدر نفسه ص ,٧٢

٣)ص١٨٥. ٤) الفيضان.مصدر سابق. ص٣٧.

٥)حكايا النورس المهاجر مصدر سابق ص ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب – الشارع / التيه

تضمُّ الشوارع والأرصفة خطواتٍ باحثة عن حقيقة المدينة « وحيداً أعبر الشارع متفرجاً على القامات وراصداً الضمير التحتي لهذه المدينة العجائبية» (١)، وتعزز الأبنية والعمارات المتلاصقة إحساس الضياع والغربة فهي « تنتصب أشباحاً من القسوة والتحدي فوق جميع الأرصفة »(٢).

لذا يعجز المتجول عن القبض على حقيقتها ويستسلم لشعوره بالضياع ولا سيما في مدينة/متاهة، متناقضة، تخفي وراء سطحها الظاهري وجوهاً عديدة..«من رصيف إلى آخر، تيه يقذفك في تيه..»(٣) « دمشق تيه..»(٤).

جـ – الشارع / الموت

الأرصفة والشوارع في المدينة مكان للموت المتنوّع : القتل أو الانتحار أو الاغتصاب أو القنص حيث «طلقة الموت المجاني تجثم في منعطف ما، في المنعطف القادم»(٥).

وإذا ما كان الموت انتحاراً كما في قصص «كابوس نهار قائظ» و «النهر الحليبي» من مجموعة «حكايا النورس المهاجر» يمثل احتجاجاً مدوّياً على ما يتعرض له الإنسان من اغتراب وقهر، فإن الأشكال الأخرى من الموت يتعرض لها الإنسان على غير موعد لتستلّ روحه دون إذن منه، في مثل هذه الحالة يتمنى الإنسان المهدد أن يصبح صرصاراً كي يقطع الشارع بأمان وينجو، فلا ينجو(٦).

---

١) الزمن الموحش. مصدر سابق . ص ٢٥٠ .

٢) الومض. مصدر سابق . ص ٩١ .

٣) الزمن الموحش. مصدر سابق . ص ١٥ .

٤) المصدر نفسه . ص ٦١.

٥) الوعول. مصدر سابق . ص ٥٩.

٦) المصدر نفسه. ص ٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– فضاء البار:

البارُ في النصوص ملاذٌ تهرب إليه الشخوص من واقعها المثقل أو الفارغ، وهذا يفسر اقترانه بحالات التأمل الداخليّ والبوح وبكاء الذات. وفي البار «مرفأ الخائبين»(١) يجد المنفيون داخل ذواتهم، والفاقدون للدفء الاجتماعي وحسّ الانتماء رفيقاً وفياً «بقي الخمر وحده الذي لا يخون»(٢).

يتقاطع فضاء البار هنا مع فضاء الشارع بقيامه بوظيفة المأوى فالذين يلفظهم البار في أخريات الليالي هم متشردو المدينة غالباً، غير أن فضاء البار الخافت الضوء ، وما يمنحه من سكينة وأمان مؤقتين ووهميين ، يدلّل بعمق على حالة الانطواء والهزيمة، والرغبة في النسيان، والعجز عن مواجهة الواقع والذات.

– فضاء السجن

يبرز السجن في نصوص حيدر حيدر في سياق علاقة الحاكم المستبد بالمحكوم الرافض للاستبداد فضاء للإقامة الجبرية، لرافضي التدجين .

وتسود ألوان الليل والدم، في هذا الفضاء المعبّر أكثف تعبير عن مصادرة الحرية، وقهر روح الانسان بتعذيب جسده، وتصّاعد فيه الروائح القاتلة وأصوات المعذبين «من الجدران المجاورة انفلتت أصوات حملتها ذرات لا لون لها ولا حجم ، نَمَتْ ونَمَتْ ثم كالرعد انفجرت في صيوان الأذن»(٣) أما المسافة بين السجين وسجنه فمرهونة للخوف والتوقع والألم «عبرا به رواقاً ثم انعطفا به نحو دهليز ، وامتدت الدهاليز والأروقة بين الصمت وصلابة جدران باهتة توحي بالفزع والموت»(٤)، يشهد هذا الفضاء حفلات التعذيب

---

١) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق ص ٩٢ .

٢) المصدر نفسه ص ٩٦

٣) الفيضان مصدر سابق . ص ٦٦، ٦٧ .

٤) الفيضان. مصدر سابق ص ١٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمساومة والمحاكمة الظالمة والقتل لروّاده من الخارجين على التدجين، والباحثين عن أنفسهم، والرافضين للصمت(١).

– فضاء المشفى

يحمل فضاء المشفى في النصوص دلالة السجن ؛ شكلاً ووظيفة «بناء قديم مطلي بالغبار مسفوع بدخان رمادي، مغلق إلا من كوىً صغيرة ، للبناء باب حديدي أسود يحرسه جندي مسلح»(٢) إلى هذا المكان الأسود يساق الناس لفصد دمهم حيناً، ولحقنهم بمصل «التدجين» حيناً آخر، أو لإجبارهم على استنشاق غازات سامة «في غرفة العيادة كنا مجللين بالرعب.. وكنا جميعاً في غرفة غاز موثقين إلى كراسي كهربائية نتناول على مهل غاز الميثان»(٣). من الواضح هنا أن المشفى يقوم بالوظيفة القمعية للسجن بدليل الحراسة والتوثيق والكراسي الكهربائية، وكذلك الأثر النفسي والمادي الذي يحدثه السجن في المسجون، اللون الأسود بدل الأبيض ، الرعب و التهديد بالقتل بديلاً للمساعدة وحماية الحياة، وبالتالي ينحرف عن وظيفته المعروفة في الاستشفاء ويغدو تفريعاً على السجن.

– فضاء المحجر

ويتفرّع فضاء المحجرعن السجن ، إذ حين قررت المدينة الاحتفال بأعياد نصرها ومحافظة على رونق الاحتفال ، تقرر حجز سكّان الأرصفة وهامش المدينة في مكان بني لهذه الغاية «صباح هذا اليوم صدرت الأوامر لتجميع المتسولين والمشردين والمنبوذين وفقراء المدينة والمجاهدين القدامى وكل الذين تؤويهم الأرصفة والتكايا في مأوى العجزة القائم ظاهر المدينة»(٤).

---

١) نجد هذه النماذج في قصص كثيرة مثل: أغنية حزينة لرجل كان حيا، أغنية البراري الوحشية ، الفيضان وغيرها.

٢) الوعول . مصدر سابق. ص ١٣.

٣) غسق الآلهة مصدر سابق.ص ٣٩ .

٤) الوعول . مصدر سابق . ص ٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالرغم من أن المحجر يفتقر إلى كل ما يجعله مكاناً مريحاً فإنه ظاهرياً لا يشبه السجن وإن كان يعبر عن اغتراب مشابه، فالمدينة تعطي الحق لنفسها بحجر مجموعة من البشر بوصفهم نفايات المدينة وكائنات فائضة عن الحاجة مزرية وناقصة ، وهذا الإقصاء الجديد – إذ هم منفيون أصلاً من مجتمع المدينة– يرادف الوأد والقتل.

والاستقصاء السابق لفضاءات المدينة المتنوعة يكشف عن سمات مشتركة في اللّون والعمارة والفعل الإنساني، إذ تسود الألوان السوداء أو الباهتة بفعل الغبار، أويعمّ الظلام بفعل الخوف من النّور (غرفة أمينة) أو الحرمان منه (السجن) . ومن حيث المعمار يتخذ البيت شكل القبو: بيت «مسرور» و«وائل الأسدي» في «الزمن الموحش»، وحانة أبي نصيف في «هذا البلد الأمين»، وتفضي البيوت إلى غرف وممرات غاية في الضيق، في حين تتعدّد الأبنية المريبة: السجن ، المشفى ، المحجر، ويظل المكان مفتقراً للهوية الخاصة المميزة لإنسانه، فلا تشفّ إلا عن الملاحقة والحصار والقمع والتفاوت الطبقي (فضاء الشوارع والأرصفة).

يقترن المكان المديني بأفعال إنسانية مستلبة تعكس هجوماً ضارياً من قبل القوّة بأبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويلغي أيّ محاولة للتغيير، فتكثر أفعال القتل والاعتقال والتعذيب والتشويه والمصادرة، وتتراكم الأيام بلا معنى بالنسبة للمجموع السائر بلا تفكير، فالإنسان هنا لا يحمل صورة إيجابية عن نفسه وعن مغزى حياته فيهدرها في لا شيء (١) «ليس مثلنا من يتقن رصف الأيام»(٢) .

وأخيراً، يمتدّ الاغتراب ليعمّ حياة الإنسان الاجتماعية، فتمتلئ بالتناقضات والقصور النفسي وتخبط القيم.

---

١) الزمن الموحش. مصدر سابق. ص ٥٠ و ١٦٣.

٢) الومض.مصدر سابق. ص ٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فضاءات الطبيعة :

تفرعات المكان

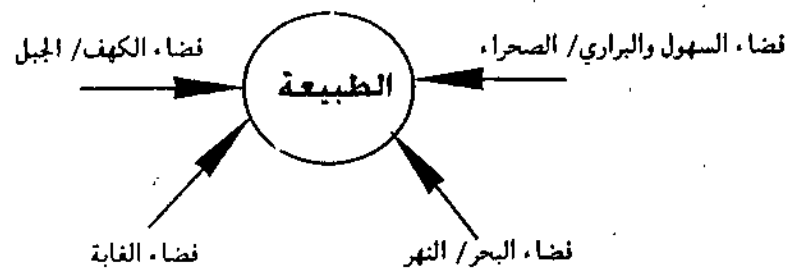

تكشف تفرعات المكان في الطبيعة غالباً عن صفات الانفتاح والامتداد ، وتُحمّل بمرموزات عديدة إضافة لدلالتها المباشرة:

– فضاء السهول/ البراري / الصحراء

تُجمَع هذه الفضاءات معاً لتعبيرها عن دلالة واحدة مشتركة هي دلالة الانطلاق والخروج من الضيق والحصار إلى المدى الواسع «هناك تعود للإنسان طفولته الأولى مملكة بلا جنود ولا ملوك ولا خصيان»(١) ، وفي «الفيضان» تعيش القبيلة المبشر بها في الطرف الأقصى للصحراء (٢) وتشتبك الصحراء مع دلالة الانعتاق في قصة «الطيور الغريبة القادمة مع الفجر» حين ينتصر الفقراء والمشردون ويحرقون المدينة المشوّهة «فتحتْ الصحراء جناحيها واحتفت بنا»(٣)، أما «فياض » الشخصية المحملة بدلالات الحرية والإنسانية النقية باستقائها من شخصية قصصية تراثية «حي بن يقظان »،فقد عاشت في الصحراء الممتدة مع قطيع من الغزلان، قبل أن تؤسر، وتحاصرها المدينة، محاولة تدجينها (٤).

---

١) الومض.مصدر سابق ص ١٤٨ .

٢) الفيضان. مصدر سابق ص ١٣٠.

٣) الوعول مصدر سابق ص ١٩.

٤) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق ص٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- فضاء البحر / النهر

يرتبط الماء عند الكاتب بدلالات تطهيرية ، فهو يزيل ما علق بالإنسان ويغيّر نفسيته ، ويشير إلى خلق جديد وعالم جديد يتكشف بعد رحلة التطهر ، ففي قصة «النهر الحليبي» يتحول لون ماء النهر إلى الأبيض وتتقدم إليه النساء فيرمين ملابسهن ويدخلن بعريهن إلى الماء (المطهر)، وهو، الماء، الذي يشفي رجلي «فياض» ويعيده سالماً(١)، ويغدو البحر فضاء لا بدّ من اجتيازه للوصول للذات والاتحاد بها «حبيبتي التي تنتظر على أبواب البحر»(٢) إن الثمن المطلوب إذن للوصول إلى حالة الانسجام هو رمي كل ما يغلق مسام الجسد والروح ومواجهة البحر بالعري والاستسلام لتيار الماء النقي الغاسل، وهذا العري يعادل مواجهة الذات لنواقصها ومحاولة التخطي والتجاوز.

أما بحر المدينة، كمايصوّره الكاتب فهو بحر ملوث، والتلوّث يشير إلى اعتداء المدينة، على فضاء الطبيعة «اضطرب البحر ، صعدت من باطنه الروائح والمحاليل وكل ما تقذفه المدينة من بقايا»(٣).

- فضاء الغابة

الغابة، عند حيدر حيدر، مرموز واسع يشمل الطبيعة (الأم) والعودة للطفولة (النقاء). فـ «كالي» الغجرية، المرأة الواهبة والعارفة «نمت في الغابات»(٤)، وفي الغابة يغدو طقس الحب الإنساني منسجماً مع ممارسة الأجناس الأخرى ـ التي تحفل بها الغابة ـ لرغباتها «عرس دمنا لن يكون عاصفاً وبهياً سوى في أحضان الطبيعة، أمنا الحنون»(٥). فالغابة مكان لاحتواء الفعل الجميل الطبيعي المتحرر برغبة المغامرة والاكتشاف والترحال. واحتضان الغابة لهذا الفعل يخرج به من الدوائر الحمراء التي أحيط بها إلى فضائه الحقيقي (الطبيعة).

---

١) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق ص ٧٥ .

٢) الوعول. مصدر سابق ص ١٧.

٣) المصدر نفسه. ص ٣٦.

٤) غسق الآلهة . مصدر سابق ص ٧٧.

٥) المصدر نفسه ص ٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- فضاء الكهف / الجبل

يرمزالكهف والجبل في النصوص المدروسة للحماية والأمن. حيث يمتلئ الجبل بالكهوف التي هي بيوت سكان الطبيعة، وملاذهم في الحر والبرد،. فـ «شاهين» في رواية «الفهد» يهرب إلى الجبل ويعيش في الكهوف. والجبل مقرّ الحكماء والأطياف والرعاة الطبيعيين البعيدين عن الزيف «إنني أضرب منذ الفجر الأول في تيه العالم ، بحثاً عن درب جبل أخضر ورعاة غرباء سمعت عنهم في طفولتي الأولى»(١). والكهف مكان آمن لممارسة الحب «غسق الآلهة»، أوالنوم «العكر» و «حميمود»، لذا يتصل بذات الدلالة السابقة للجبل، فالجبل (الصعود والبحث) هو رحلة للخلاص، واستكشاف الذات. والجبل والكهف (الملاذ)، هما مكان الخارجين على فضاء المدن الملوث.

ويمكن أن نلاحظ هنا التقابل بين فضاءات المدينة وفضاءات الطبيعة في اللّون والمعمار و طبيعة الفعل الإنساني.

تتلوّن الطبيعة، في عالم حيدر حيدر الأدبي، بألوان مشعّة: أبيض وأزرق وأخضر.. بكل ماتحمله هذه الألوان من دلالات كالعمق والخصب والفرح والاحتفال. أما المعمار، صنيع الإنسان، فغير موجود؛ فالمكان الذي صنعته الطبيعة ، مكان بدائي ، وبذا يخلو من التلوّث الذي اتسمت به أمكنة المدينة؛ والدلالات النفسية الملتصقة بها. ومن حيث طبيعة الفعل الإنساني، تحتفل الطبيعة بوجود الإنسان السائر نحو سويته النفسية والاجتماعية. فالعودة إلى الطبيعة (البداية) تقترن برحلة البحث عن الذات، والتمرّد على القيم والمفاهيم والقوانين المدينية الظالمة. والعودة إلى الطبيعة (البداية) تستبطن محاولة لوجود إنساني سويّ بعد أن انحرف الإنسان طويلاً عن مسار إنسانيته، وتستبطن كذلك رؤية تنظر للاغتراب الحاصل على أنه طارئ ومحكوم بأسباب ، فالجوهر الإنساني إيجابي معطاء وخيّر (القبيلة في قصة الفيضان)، والرحلة إلى الطبيعة هي رحلة داخل الذات للاهتداء إلى الصواب واستيضاح الخلل ، لذا تسيطر أجواء الاحتفال والفرح وحب الحياة حين تحتضن الطبيعة الوجود الإنساني.

---

١) الفيضان. مصدر سابق . ص ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الاغتراب عن المجتمع

أولاً: اغتراب العلاقات الإنسانية:

١ . سيطرة مفهوم الحلال/الحرام.

٢ . صراع القديم/الجديد.

ثانياً: الاغتراب السياسي:

١ . سمات السّلطة السياسية.

٢ . رد فعل المواطن تجاه السلطة.

٣ . اغتراب الفلسطيني.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدخل

الإنسان كائن اجتماعي واعٍ ، أي أنه يدرك ذاته بتفرّدها عن غيرها من الذوات، وبحتمية إقامة علاقات معها، ومن هذه البديهة انطلقت كل التوجيهات الأخلاقية التي تهدف إلى تنظيم وتأطير علاقة الفرد بغيره، بما يحفظ حقوق كل فرد من اعتداء الأفراد الآخرين، ولهذا جاء اصطناع القوانين أيضاً.

إن مكتشفات العلوم الحديثة وتمكّن الإنسان من توجيه أكبر لموارد الطبيعة لصالحه، وكذلك تقدمه في العلوم الإنسانية وبخاصة علمي الاجتماع والنفس، قد غيّر كثيراً من نظرة الإنسان لنفسه، مما أدى عبر صراع طويل إلى تكريس حقوق جديدة للإنسان(الفرد) تمكنه من المشاركة في صياغة حياته وممارسة حرياته واختياراته، وهذا ما عرف في الغرب بالنزعة الإنسانية «Humanism» ، كما ساعدت ثورة الاتصالات في تعميم نتائج الاكتشافات الإنسانية، لتختصر المجتمعات الأخرى عقوداً من التجربة في سنوات.

وبالطبع لم تأخذ الأمور هذا السياق الآلي، ففي كل مجتمع هناك «الشخصية الاجتماعية» الفاعلة في الوعي واللاوعي(١)، وهناك نظام القيم الخاص. وفي حين استقبلت المجتمعات منجزات التكنولوجيا بالترحيب فإنها توقفت أمام أنظمة القيم المصاحبة لها، ملاحظةً افتراقها عن نظامها القيميّ ، رافضة لها حيناً، مشذبةً لها، أو مروّجة لقبولها كما هي حيناً آخر، لكنها في كل الحالات لم تستطع منع حدوث التأثيرات، وفيما يخص المجتمعات العربية كان الأمر أكثر التباساً ؛ في ظلّ سيادة ثقافة ماضوية مقدسة من جهة، وارتهان للغرب المستعمر من جهة أخرى بالإضافة إلى تاريخ حديث مؤطر بالهزائم والتقسيم والنزعة القطرية. وهكذا يمكن الحديث عن حالتين اغترابيتين ظهرتا في المجتمع العربي، الاغتراب أو التغريب بمعنى الانفصال عن الذات الحضارية والغرق في ذات الآخر(الغربي)، والاغتراب عن حاضر الذات بالغرق في ماضيها، و هو ما يسميه عبد الله العروي «الاعتراب»(٢)، وفي هاتين الحالتين يبدو العربي

١– فروم. أريك: المجتمع السليم. مرجع سابق، ص ٥٣.

٢– العروي. عبد الله: العرب والفكر التاريخي ط٢، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، والمركز الثقافي الغربي. الدار البيضاء. المغرب ص٢٠٧ ـ ٢٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصاباً بعقدة النقص والدونية أمام ذاته الحاضرة، فيبحث عن البديل في الآخر الغربي، أو الآخر الماضي(١)، وفي ظل المجتمع العربي ذي السمات السابقة، ما نوع العلاقات السائدة؟ وهل تستند لتراث حقوقي وقانوني؟ وهل تمتلك المجموعة الاجتماعية وعياً على حقوقها الاجتماعية والسّياسية ؟ وإذا ما كان الحديث عن الاغتراب يطال العلاقات المشيّئة القائمة على أساس نفعي وإحساس عالٍ بالذاتية وبالتالي العزلة عن الآخرين في المجتمعات الغربية، فما هي ملامح الاغتراب عن المجتمع كما تصورها النصوص القصصية والروائية لحيدر حيدر المنبثقة من بيئة عربية لها ملامحها الخاصة؟

ستوضح لنا نصوص حيدر حيدر حالة مجتمع محروم (٢)، مصاب بحالة إغماء الوعي(٣)، يتشرب ما يساق له من قيم تلغي الوعي، وتعلي من شأن الخوف والعجز والستر والدعاء، يعيش بجسده في القرن العشرين لكنه بنفسه وعلاقاته ما زال يجتر أمجاده الغابرة ويقف على حافة القرن الرابع الهجري، يخاف الله والحاكم والمرأة وجسده والتجربة ، يحارب الجديد ويقدّس الماضي ورموزه(٤)، ويتناقض مع ذاته دائماً (٥)، مجتمع ملاحق ومهزوم رغم احتمائه بما يتوهمه أسباب النصر(٦)، ولا يرى في الهزائم المتلاحقة إلا قدراً أعمى وامتحاناً

---

١) شرابي. هشام. مقدمات لدراسة المجمع العربي ط٤ دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت ١٩٩١ ص ٩٢-٩٧.

٢) حكايا النورس المهاجر مصدر سابق .

٣) بوتخامت محمد. تحليل رواية الزمن الموحش: شكلاً ومضموناً. لحيدر حيدر . رسالة ماجستير. جامعة الرباط. المغرب ١٩٧٩ ص١٣.

٤)حكايا النورس المهاجر مصدر سابق .

٥) تعبر عن ذلك نصوص عديدة: العكر ص ١٢٩، الحميمود ص ١٠٨، الزمن الموحش ص ١٤٧.

٦) حكايا النورس المهاجر مصدر سابق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحتاج الى الصبر(١)، من العصور الحديثة استورد نزعة الاستهلاك ، وفي المدن الحديثة التي بناها يسود القتل ويعمّ العنف وتدور الحرب الأهلية(٢) ، أما محاولات الخلاص فمحاصرة بسيف السّلطة اللامع ، وسيف الماضي المرهّن في الحاضر، وسيف عصر يتكلم لغة المال.

إنها بيئة مناسبة للاغتراب مختلفة اختلافاً بيّناً عن بيئة مجتمعات أخرى ، نتيجتها ظاهرة وهي ضياع الإنسان وافتقاد الإحساس بالقيمة والمشاركة في صنع الحاضر والمستقبل الإنساني.

وسنبحث في الفصل الآتي اغتراب العلاقات الإنسانية كما تحدثت عنه النصوص ممثلاً في علاقة الرجل / المرأة في ظلّ سيطرة مفهوم الحلال/ الحرام، وصراع القديم/ الجديد.ومن ثمّ الاغتراب السياسي الظاهر في علاقة المواطن بالسلطة في إطار الدولة، ملقين الضوء في كل مبحث على الاغتراب وأسبابه، وفضاءات تجاوزه، وكيف يؤثر الاجتماعي في الذاتي والشخصي .

---

٧)حقل الأجوان/ التموّجات. مصدر سابق.ص ٤٦ .

٨) تعبر عن ذلك مجموعتا الوعول وغسق الآلهة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً: اغتراب العلاقات الإنسانية

تعكس العلاقات السائدة في مجتمع النصوص المدروسة حالة اغترابية شاملة، تتجلى في سيادة مفاهيم غيبية على العلاقات «مفهوم الحلال/الحرام» والصراع الدائب بين القديم (التراث، السكون، الثبات) والجديد (الثورة، التغيير، التجديد).

– سيطرة مفهوم الحلال/ الحرم

يسود مفهوم (الحلال/الحرام) العلاقات الناظمة لشخوص النصوص المدروسة ، وخاصة علاقة المرأة/ الرجل حيث يدور الصراع بين الذات الباحثة عن رغباتها وتحقيقها وبين القمع الخارجي لهذه الرغائب، فتخضع الذات لسطوة الحرام حيناً ، وتخترقه مؤسسة قانونها الخاص حيناً آخر.

إن الذات المهدّدة من داخلها بسيف (الحلال/الحرام) تقف مترددة أمام تحققها، ويطالها حسّ الذنب والرّغبة في دخول دائرة الحلال «متى نمارس ذلك بحرية وحلال دونما خوف؟»(١). تدرك هذه الذات حقيقة رغبتها وتوقها للعلاقة لكنها تقف على أعتاب الخوف «توقع خوفها أن يطرق باب غرفتها وخيّل إليّ أنني أسمع خفق خوفها الراعش»(٢).

إن الفاعل والمحرك لهذا الخوف هو رمز السّطوة ، السّلطة والسيادة الذكورية: «الزوج/ الأب»،تحكم هذه السّلطة وعي المرأة ولا وعيها، وعي المجتمع ولا وعيه العميق :«انعقد غضب الأب في عينيها. أنت غريب»(٣) «كنت أرى عين أبي والنبي تراقبني»(٤)، وفي الحضور الفعلي أو الضمني لهذه الرموز تحاصَر العلاقة وتغدو حياة المرأة «حبل من الخوف»(٥)، وتظل المداهمة طيّ التوقع، ويعيش طرفا العلاقة حياتين؛ ظاهرة وباطنة، وتتلفع الذات بالمتناقضات

---

١) الزمن الموحش. مصدر سابق . ص ١٦٠ .

٢) المصدر نفسه ص٣٣، وأيضاً الومض ص ٩٥.

٣) الومض. مصدر سابق ص ٩٧.

٤) الزمن الموحش. مصدر سابق . ص ٣٣ .

٥) المصدر نفسه ص٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في ظل رؤية محاطة بالتحريمات تطال علاقة المرأة/ الرجل وتنجب مفاهيم الخيانة والتهتك والدونية وحالات الكبت(١)، والضعف(٢)، والغموض والإبهام (٣)، والإنطفاء(٤)، والخيانة النفسية «وكنت أتصورُ أنها موثقة ومحصنة ، لا بالشرف الأصيل النابع من أعماقها، إنما بالخوف التاريخي الذي ورثته من المعاشرة والاستهلاك الأخلاقي الساتر للخيانة الداخلية»(٥).

إنّ الرؤيةَ السابقةَ لعلاقة الرجل بالمرأة المحددة بإطار مفهوم (الحلال / الحرام) الغيبي تتصارع مع رؤية أخرى تحاول أن تصدر قيم الإنسان من داخله ، هذه الرؤية تتكلم لغة جديدة غير مفهومة من قبل الرؤية السّابقة الغارقة في الماضي «ولو قلت لأمينة أنني أشفى على تخوم جسدك لأنطلق بعد ذلك إلى الصحة والحركة التي توقفت منذ التتار والأتراك والمماليك ، لكانت اللغة التي أتحدثها هيروغليفية جديدة»(٦).

تؤسس هذه الرؤية خطابها انطلاقاً من الصحة النفسية للإنسان.. واعطاء الجسد المسربل بغباءة التحريم ما يستحقه من اهتمام، وممارسة الرغبات في ضوء المعرفة «لماذا يتمّ الجنس هنا كما يتم القتل في الغرف السرية»(٧) ، تعلي هذه الرؤية من شأن الرغبة «قتل طفل ولا قتل رغبة»(٨) ويصبح الجسد قيمة بذاتها، والجنس تجربة للتحقق والاكتشاف والمعرفة / نقيض الثبات والسكون، «الجحيم الحقيقي هو التجربة – بالخمر والمرأة نتعرف على ما وراء الظواهر

---

١) شخصية المرأة في قصة : الوعل يقتنص صغيراً/ حكايا النورس المهاجر، و «ذمينة» في «مرايا النار»و «أمينة في «الزمن الموحش»

٢) شخصيتا «ناديا» و «هدى» في «الزمن الموحش».

٣) شخصية «ديانا» في الزمن الموحش» .

٤) شخصية المرأة في «سنوات العزلة»/ غسق الآلهة.

٥) الزمن الموحش. مصدر سابق.ص ١٦٤.

٦) المصدر نفسه.ص ١٦٦.

٧) المصدر نفسه.ص ١٦٢.

٨) المصدر نفسه.ص ١٨٥ وأيضاً ص ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونصل إلى نسوغ الأشياء»(١) «ينبغي أن نحرق ماضينا ونتقدم في التجربة حتى الأقصى دون أب ، دون أم..»(٢) إن الذات المجرّبة هنا تدرك جوهر صراعها، فتحقيق الرغبة رمز للثورة على الماضي/ (الحرام/ الحلال)، وعلامة نهوض وبداية بناء قيم جديدة «...مطهرة من التحريمات الدينية المنقرضة، مبنّية على أساس دوافع الإنسان الطبيعية»(٣) وبسبب هذه الحالة المخاتلة بين الماضي والمستقبل تستمر التناقضات وردود الأفعال الحادة.

ففي «الزمن الموحش» يُخترق المحرّم الجنسي رمزياً عبر الأحلام الأوديبية لـ «راني»، وفعلياً عبر شخصية «شبلي» التي تجسّد هذا الانقسام بين الماضي والمستقبل تجسيداً بيّناً،حاملة في حركتها دلالة تراجع حلم الحب الشمسي وهزيمته؛ والانطلاق من السّقم إلى الصحة. فـ«شبلي» الذي يروم علاقة مع «منى/ حلم التغيير والثورة» يواجَه بجدار كتيم يصدّه عنها، ويتبدد حلمه الكبير ببدء حياة خلاقة معها، فـ «منى» كانت ترفض التواطؤ مع الخلل «كانت تديننا نحن نسل النقص والحاجات العضوية»(٤) وأمام هزيمته يلجأ لـ «أمينة/ الواقع المشوّه»، وبانكفائه إليها يستشعر خيانته لحلمه وتواطؤه مع هذا الواقع «غبّ جميع الليالي التي جمعتنا كنت أستشعر الذنب.. في صمتي ، وبعد أن تمّحي اللغة على تخوم الجسد تحضر منى..»(٥)، و«أمينة» رمز الماضي القديم بعلاقاته وقيمه الذي لم يتخلص منه «شبلي» بعد، لذا فهي معادل الأم «.. وجهها قريب من وجه أمي، دائماً أرى ذلك بعد أن ننتهي»(٦). تتسع هذه الهوة بين الواقع والحلم لتشمل فضاء العلاقة بين «دميانة» و «ناجي العبد الله» في رواية «مرايا النار»، حيث يظهر الزوج (الماضي) مشلولاً – الشلل رمز العجز الداخلي وتزعزع السلطة، وغالباً ما

---

١) الزمن الموحش. مصدر سابق.ص ٨٥.

٢) المصدر نفسه.ص ١٨٢.

٣) الزمن الموحش. مصدر سابق.ص ٢٢٨.

٤) المصدر نفسه.ص ١٩٣.

٥) المصدر نفسه.ص ٣١ – ٤٦.

٦) المصدر نفسه.ص ٤٧ وأيضاً ص ٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلتصق به صفة الضعف فزوج «أمينة» في «الزمن الموحش» يخطو نحو الموت، وفي «الوعل يقتنص صغيراً» الزوج ضئيل كقزم – وبالرغم من صفات الضآلة والهزيمة الملتصقة به، فإن حضوره النفسي مؤثرٌ « لو اقتحم ذلك الزوج البائس الغرفة وعاين المشهد فضبطهما في حقل الخيانة، هل سيدرك أن الشجرة خرعة من جذورها؟ «(١)، وفي «الزمن الموحش» تعبير عن ذات الإحساس: «في غرفته انطفأ النور، فانتبهنا، وعلى غرفتنا الموسومة بالحرام خيّم عتم له رائحة الخيانة، في الظلمة بدَوْنا شبحين توقّع خوفها أن يطرق باب غرفتها، وخيّل إليّ أنني أسمع خفق خوفها الراعش»(٢)، وفي مثل هذا الواقع تظل الممارسة الصحية طيّ الحلم «لو يُلقى كل هذا التحلل والفساد والجثث والروائح الكريهة في أعماق المحيط، فيكونان في جزيرة وقد امّحت ذاكرتاهما.. جزيرة الأشجار البكر والأعشاب الاستوائية والطيور البيضاء»(٣). وحين يرتهن تحقق الذات بحلم التغييرالقصيّ، نجد ردّ الفعل المتطرف على حصار مفهوم(الحلال/ الحرام)للعلاقة الانسانية ممثلاً في شخصية «سامر البدوي» في «الزمن الموحش» فيصبح اختراق «الحلال» طريق التحرر والنجاة «قررت أن أخترق صلابة العالم وتقاليد الناس بجسدي ونفسي..»(٤)، يعلن «سامر» حضور الذات في العلاقة مع الآخر(المرأة)، ويرفض القيم الفوقية التي تؤسس ما هو حلال أو حرام.. «ولأنني أردت أن أكون نفسي قررت أن تصدر أوامري من دماغي وليكن الطوفان»(٥) في مثل هذه الحالة تنساق الشخصية بردّ فعل حادّ على منظومة القيم الاجتماعية السائدة وتخترقها دائماً دون أن تكوّن رؤية بديلة لها، فهي مدفوعة بعنف وفوضى نحوالرّفض وإشباع نهم الذات الخاصة.

---

١) مرايا النار. مصدر سابق. ص ٥٣.
٢) الزمن الموحش. مصدر سابق.ص ٣٣.
٣) مرايا النار. مصدر سابق ص ٦١.
٤) الزمن الموحش. مصدر سابق.ص ٨٩.
٥) المصدر نفسه.ص ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعكس المبدأ المتحكم في العلاقات السابقة اغترابَ مجتمع مرجعُه القيمي غيبي خارج ذاته، وإن سيادة هذا المبدأ أدّت إلى مظاهر اغترابية عديدة.. ففي هذه العلاقات اختفى الحب الإنساني أو تشوّه وانتهى(١)، واندفعت شخصيات لبدائل تعويضية عمّقت اغترابهانتيجة خضوعها له(٢)، واشتدّ التناقض بين باطن الإنسان وظاهره(٣)، واستمرّ هذا المبدأ (الحلال/ الحرام) في العمل والتأثير داخل الأعماق اللاواعية لشخصيات ثائرة عليه، محاربة له، فمثلاً حين فكّر «شبلي» بعلاقات «منى» السابقة بغيره من الرجال، لم يستطع دفع الفكرة التقليدية: «كنت أهرب من إلحاح كلمة بغي..» (٤)، كذلك تتكرر الصورة في مخيلة «بشر الغزاوي» الثائر الفلسطيني في «التموجات» «أقول لك، وأنا أكثر خبرة منك، أن في رأس كل امرأة مشروع عاهرة..»(٥)، هذا الخطاب الصادر عن الجيل الجديد ، هو ذاته الذي يتفوّه به الزوج/رمز الماضي والرؤية الأبوية في «الزمن الموحش» و «مرايا النار» : «.. كلّهنّ من جبلّة حواء الملعونة التي أغرت آدم وأخرجته من الجنة..»(٦)، إذن هذه الرؤية مرتهنة بتراث طويل وماضما زال حاضراً في الروح والدم يصعب التخلص منه.

ويعلن الكاتب ختاماً أن بدء علاقات جديدة خالية من مرجعيتها المستلبة هي المهمة الصعبة لجيل لمّا يأتِ بعد؛ ذلك أن الإنسان القادر على الخلق والتغيير في الفضاء العربي لم يئن أوانه بعد «التكوين السوي لم يأتِ زمانه بعد، والعصر الزاني بالضرورة أبناؤه زناة..»(٧).

---

١) انتهاء علاقة شبلي بمنى وكذلك نهاية العلاقات في «طائر الموت» و «مرايا النار».

٢) المرأة في «سنوات الغزلة» و «الومض».

٣)الزمن الموحش. مصدر سابق.ص ٥١.

٤) التموجات . مصدر سابق ١٥٢.

٥) التموجات . مصدر سابق ١٥٢.

٦) مرايا النار. مصدر سابق ص ٦٦.

٧) الزمن الموحش. مصدر سابق. ص ١٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– صراع القديم/ الجديد

يتمثّل الاغتراب في صراع (القديم /الجديد)، وهو صراع بديهيّ في كل المجتمعات، في أن القديم ، بما هو نمط للحياة والعلاقات والقيَم تكرّست عبر العصور، يُصادر ما يخالفه باستناده إلى الصحة المطلقة والقداسة والفوقية في رموزه المتعددة «الأب ، الشيخ، الحاكم، الزوج» يبدأ الصراع منذ أن تعي الشخوص استلابها ودونيّتها وتلاشيها أمام الماضي – الرمز ، مكتشفة أن إطلاقيته لا تستند إلى سلامته وصحته بالنسبة للنفس وإنسانيتها بقدر ما تستند إلى امتداده في الزمن وتجذّره في تربة اللاوعي، بالإضافة إلى استثماره للخوف الطبيعي من البدايات الجديدة والمغامرة. يميل القديم إلى قمع السؤال، وكبت المطالب المتفتحة داخل النفس، بإلغائه لدور العقل، ذلك أن كل المعرفة قد تمّت فيما مضى، وما على الذات إلا أن تغرف منها، يردد الشيخ الهارب من العدو لابنه الشاب «سيقرفصهم الله على تخوم المدينة المقدسة.. الله والأمير سيدا المدينة..»(١) وحين يتبع الشاب وصية والده بالمسير إلى المقبرة لينجو، يكون في ذلك هلاكه ، وخلال الرحلة من المدينة إلى المقبرة يكتشف الشاب الزيف في الحِكَم التي يردّدها الخطاب السائد في المدرسة والإذاعة والمسجد ويدرك عقم قيمه وتناقضها بين شجاعة الأمس «أبطال التاريخ» وفرار اليوم «اللاجئين»: «ولأول مرة ألمح الدم.. كما لأول مرة ألعن أبي الشيخ وقيصر والتاريخ ونفسي»(٢).

إن الذات التي أُلِفتْ القديم تلفظ الجديد خوفاً وعجزاً، وحينما تُحاصر بعجزها تتذرع بمقولات جاهزة كالقدر والامتحان والبلوى والاختبار، دون أن تلتفت لنقصها الداخلي.. في قصة «شجرة الكرز» تصوير رمزي للخوف من الجديد المتمثل في تجربة زراعة نبتة جديدة في أرض لم تزرعها من قبل «خيّل للذين يزرعون التين الكثيف المزوق، أن شجرة الكرز الجديدة هزيمة لتقاليدهم الشريفة.. وأن تلك الأسرة التي اختارت أرضهم المطمئنة الراسخة لتضع فيها نبتة جديدة ستهزّ التاريخ الطويل لحياتهم السلسة الراكدة، لهذا صلّوا من أجل موتها..»(٣).

---

١) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق ص٨.

٢) المصدر نفسه ص ١٤.

٣) المصدر نفسه. ص٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والخروجُ من القديم إلى الجديد عند حيدر حيدر لا يتم إلا بإلغاء رموز القديم، فـ «عبد الله بن أنس/ أحمد الجنابي فيما بعد» في قصة «الفيضان» حين أراد أن يكون ذاته، واجه رمز استلابه: «في صباح يوم قائظ طعن «عبد الله بن أنس» أباه بفأس حادة في صدغه فقتله، ثم فرّ من بيته ولم يعُد»(١)، وكذلك فعل «الأزرق» الذي طالما احتمل تعسّف القديم وتهميشه لذاته ممثلاً في شخصية الأب أيضاً «لوى ذراع أبيه وصفعه ثم طرحه أرضاً ساحقاً وجهه وأسنانه ثم فرّ من البيت ولم يعُد»(٢)، هذا الخروج من بيت العائلة / العلاقات السائدة يعني بداية إحساس الفرد بذاتيته المسحوقة داخل المجموعة، يُذكّر الأب «الأزرق» بقداسته ..« كيف ستلقى ربك يوم القيامة يا عدو الله؟ يردّ عليه : منذ الآن سيكون الأزرق إله نفسه وأباها» (٣) وفي النص يخترق «الأزرق » المقدس الاجتماعي والسياسي محاولاً ايجاد قيم بديلة. والبحث عن قيم تقابل قيم القمع والقهر في مجتمع أبوي تتخذ ذات السّمة «المواجهة، الرفض» في رواية «الزمن الموحش» ، تتضح هذه الرغبة الملحّة في ايجاد البديل حين يردّد «الراوي/ شبلي عبد الله» أكثر من مرّة بأن هدفه هو الكشف عن الذات وتعريتها أمام نفسها وسحبها لدخول نار المعرفة(٤)،في طفولته عانى «شبلي عبد الله» من سلطة الأب الذي سعى بكل جوارحه لينشئه على شاكلته ليكون امتداداً له، بل إن الاسم الذي أطلقه عليه يحوي ضمير الملكية «شبلي،» ففي سنّ الطفولة حَرَص الأب على مرافقة ابنه له وتشرّبه لقيمه الخاصة فـ «روى له حكايات عن الصيد والقتل واختراق الوديان والليالي الثلجية، كان يصطحبه معه بعيداً عنها إلى البراري والسهول.. ومنذ أن بدأ يعرف التسديد اشترى له بندقية..»(٥)، وحين يكبر «شبلي» سيكتشف بنفسه أن قيم والده وحِكَمَه لم تنفعه ولم تقدم حلاً لمشاكله «امضِ ، أنا أكره أمي

١) الفيضان. مصدر سابق ص ١٠٥.

٢) الوعول . مصدر سابق ص ٦٨.

٣) المصدر نفسه . ص ٦٨ .

٤) الزمن الموحش. مصدر سابق.ص ٤١، ٩٦، ٢٦٤، ٦٧.

٥) المصدر نفسه.ص ٢٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبيتي القديم ، عُد إلى قبرك . عُد»(١)، ويأتي انحياز «شبلي» إلى «منى»/ الثورة علامة دالّة على انفلاته من حصار الماضي/ التراث/ الأب، وبحثه عن قيم جديدة تعيد الاعتبار للإنسان(٢)، وإن استمرار حضُور الأب بعد موته – في الأحلام – يكثف حالة الصراع ويكشف الهاجس الملحّ داخل الشخصية، للوصول إلى بديل لم تتضح ملامحه،، يقول «راني» : هناك خريطة رُسمت عبر الماضي بشكل خاطئ، ما الذي يمنعني من رسم هذه الخريطة على النحو الصحيح؟»(٣).

الأمر هنا لا يتعلق بقرار الشخصية ورغبتها في أن تكون نفسها(٤) أو أن ترسم صورة جميلة للواقع ،ذلك لأن الواقع والذات محكومان بقوانين لا مرئية وفاعلة في اللاوعي، وخاضعة لقوى أكبر من الذات المفردة ، وحين تدرك الذات لا جدوى حربها واستمرار اغترابها في علاقتها الاجتماعية تشعر بالعبث «نحن منفيون يا سيدي الثوري، خريف عابر في فصول الزمن العربي»(٥) و «نحن مقذوفون في الفراغ» (٦).

تطمح الذات، كما بينا سابقاً، إلى ثورة اجتماعية شاملة، تغيّر العلاقات والقيم، لكنها ترى التجربة تتمخض عن محاولات فردية غير ناضجة موزّعة بين الثورة والارتكاس «مسكون بـ «منى» لأنها التغيير نقيض الثبات.. مسكون مثلهم بالإرث والنقص.. الزمن حكم عليك حكم الإعدام»(٧). يشيع حسّ العبث في «مرايا النار» لذات الأسباب «تيه صحراوي، حار ملعون.. ميراث الدم الفاسد ما زال يسري فينا»(٨). الذات الملوثة لن تصلح الفاسد، إنما تقدم، بالرغم من محاولتها الفاشلة، الوعدَ بغدٍ يحتضن ذواتٍ غير ملوّثة، تتعمق هذه الدلالة بتنبؤات «منى» وانتحار «سامر» ورحيل ناجي العبد الله في «مرايا النار» .

---

١) الزمن الموحش. مصدر سابق.ص ٦٨.

٢) المصدر نفسه.ص ٣١ – ٤٦.

٣) المصدر نفسه.ص ٢٢٨ وأيضاً مرايا النارص ٥٧.

٤) المصدر نفسه.ص ٣٨.

٥) المصدر نفسه.ص ٦٩, ٨٩ «سامر وشبلي».

٦) المصدر نفسه.ص ٣٨.

٧) المصدر نفسه . ص ١٧٦.

٨) مرايا النار. مصدر سابق ص ٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً :الاغتراب السياسي

مدخل

يتعلق الاغتراب السياسي بالانفصام الحاصل بين الفرد والسلطة التي تمثله في مجتمع ما، في حالة الاغتراب السياسي، يشعر الفرد بـ «عدم رضىً ورفض للأوضاع السياسية ونوع العلاقات القائمة بين المواطن والدولة»(١)، إذ يُحال بينه والمشاركة في الحياة السياسية وصنع القرار، وتصبح السلطة ممثّلة لمصالح طبقة بعينها، ومع ذلك «تعلن أن تحقيق مصالحها هو تحقيق مصالح المجتمع بأسره»(٢) وبذلك تصادرحق المجتمع السياسي .

يتجلى الاغتراب السياسي في استقبال المجتمع لأيديولوجيا سلطة منعزلة عنه، تمارس حقوقاً مطلقة وتتجاوز القانون باستمرار مستثمرة غياب الوعي الحقوقي و السياسي والاجتماعي لدى الأفراد.

في النصوص قيد البحث، سنرصد الملامح التي تدعو للاغتراب في طبيعة السلطة القائمة وسماتها البارزة، ثم نبحث رد فعل الشخصية/ المواطن تجاه السلطة، بين الخضوع والتمرد بجانبيه الواعي واللاواعي، ثم نبحث حالة الفلسطيني المغترب كما صُوّرت في النصوص في ثلاثة محاور:

أ – الباحث عن الخلاص.

ب – الثوري المنحرف.

جـ – الهارب للنسيان.

وفي هذا المبحث نلاحظ، أن النصوص القصصية والروائية تستلهم الأحداث السياسية التي

---

١)حليم بركات.الاغتراب والثورة في الحياة العربية، مواقف عدد ٥، القاهرة مصر١٩٦٩ ص٢٥.

٢) فيصل درّاج. الاغتراب . الموسوعة الفلسفية العربية جـ ١. معهد الإنماء العربي ، لبنان١٩٨٦ ص ٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غيّرت مسيرة حياة الإنسان العربي في القرن العشرين، وبخاصة نكبتي سنة٤٨ وسنة ٦٧، والحرب الأهلية اللبنانية، وخروج المقاومة الفلسطينية من بيروت ١٩٨٢، وحرب التحرير الجزائرية، بالإضافة إلى توظيف واستلهام رموز تراثية كعقبة بن نافع وغيلان الدمشقي والقرامطة وغيرهم..

أما الاهتمام بالجانب السياسي لحياة الشخوص فتدلل عليه كثافة المادة القصصية التي تطرّقت لهذا الجانب.

١٠ سمات السلطة السياسية

– العجز/ الخوف

تظهر السلطة في أدب الكاتب، عاجزة عن مواجهة العدوّ الخارجي، قاصرةعن المبادأة و المبادرة، حتى حينما يتعلق الأمر بالدفاع عن الذات أمام زحف الآخر/ العدوّ. في قصة «الشاهد والجمعة الحزينة» ينفتح القص على مشهد الفرار من المدينة المجتاحة، حيث يردّد أهل المدينة الفارّون أيديولوجيا السلطة: «الله والأمير سيدا المدينة»(١)، إلا أنّ السلطة التي روّجت للفكرة السابقة هربت من مسؤوليتها وقت الحرب وكانت أول الفارّين.

وتضيء قصص «كابوس نهار قائظ» و «طقوس العار» و «صيف محترق» ذات الموقف المتخاذل المنبئ عن خوف عميق من المواجهة ، خوف السلطة التي تحرص أولاً على سلامتها الذاتية بعيداً عن القيم والمبادئ ، يتجلى هذا في الانسحاب من الموقع أمام العدو دون قتال «بدأت أشباح الأرتال المتوحشة تقترب، وإذ رآها قائد الفصيلة الثالثة تجتاح الأرض بهجومها المخيف، قرر أن يتراجع ، حزم أمره وأمر فصيلته ثم انسحب... وإذ اجتازت الأرتال الوحشية

---

١) حكايا النورس المهاجر مصدر سابق . ص ٨ .

٢) المصدر نفسه . ص ٥٧–٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خط الحدود، استنفر قائد الفصيلة الثانية خوفه.. جمع بقايا نفسه وأهاب بجنوده إلى الإنسحاب : انسحبوا!! »(٢). وفي «طقوس العار» ينتظر الجنود أمر الهجـــوم الذي لا يأتي «.. منذ عامين وأنت وجماعتك تنتظرون الهجوم ، وها هي تمارين التدريب تتكرر آلاف المرات والهجوم لم يأت..»(١)، ويكتشف «علي الراعي» سرّ الأمر «إن أحداً ما لا يأخذ على عاتقه أمر الهجوم الكبير..»(٢) فالجندي ينتظر أمر الضابط والضابط ينتظر أمر القيادة والقيادة تنتظر أمر القيادة العليا والقيادة العليا تنتظر أمر القيادة الأعلى منها... إلخ. أما في «صيف محترق» فيعود الجندي من جبهة القتال مخصي الذات، نهباً لأحاسيس المهانة .. وقبل أن ينتحر مشعلاً النار في نفسه في غرفة ضيقة يبوح بسرّ الانكسار: «رواتب إضافية للشجعان .. هذه هي الحرب يا أماه..»(٣)، فلدى السلطة السياسية حسابات أخرى غير حسابات استرداد الأرض المحتلة أو الكرامة المهانة، إنها تدرب الجندي ليكون أداة بحسب الطلب، مرتزقة تفرحهم أوقات السلم ومكاسب الحرب، أما من يرى في الأمر صراعاً إنسانياً لاسترجاع حقوق أو دفاع عن وطن فمصيره الانتحار أو المحاكمة بتهمة عدم إطاعة الأوامر العليا(٤).

والسلطة كما تتبدى في النصوص السابقة الذكر، تخفي عجزَها عبر تصديرها وترويجها لقيم معينة ممتدة في اللاشعور العربي من مثل طاعة أولي الأمر وتقديس الحاكم/ ظل الله على الأرض. أما الهزيمة فتسوّغ بقيم أخرى كالقَدَر والبلوى التي ستنجلي لتدور الدائرة على الكفار «يبلوكم ليرى قوة إيمانكم»(٥).

– الاستغلال والذاتية

تتبدى السّلطةُ في نصوص حيدر حيدر مستغلةً للوطن والمواطن، جانية وحدها ثمار

---

١) الومض مصدر سابق ص ٣٥.

٢) المصدر نفسه ص ٤٠.

٣) المصدر نفسه. ص ٤٧ .

٤) محاكمة «علي الراعي» في «طقوس النار» و«قائد الفصيلة الأولى» في «كابوس نهار قائظ»

٥) التموجات . مصدر سابق ص ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كفاح المجتمع من أجل التحرر ، وبالرغم من انتمائها لعصر تحدّدت فيه واجبات السّلطة السياسية في مجتمعات كثيرة، فإنها ما زالت تقوم على سطوة الحاكم المطلق المالك للعباد والبلاد.. «وإذ انتهت الحرب، لَم يجنوا غير مخافر الشرطة الوطنية»(١) التي ستقوم بواجب الحماية «للذين ورثوا الوطن بأراضيه ودوابه وشجره وبشره»(٢) وهذا الذي يحدث في قرى اللاذقية يتكرر في جزائر ما بعد الثورة، تقول «عائشة» لزوجها بن جلون الذي فقد بصره إبان حرب التحرير: «.. هل أنت الوحيد الذي حصد الريح بعد الحرب، إنهم هناك فوق الأرصفة ممدّدون أمام الأفران والخمارات والمقاهي وداخل أكواخ الصفيح ..»(٣) .

والناس الذين عايشوا الغزاة زمناً لم يتغيّر عليهم شيء بعد رحيلهم، إذ بقي الجوع والقمع والاستغلال وحكم العسكر «البوليس أولاد العاهرة.. هؤلاء الذين احتلوا المدينة بعد رحيل الغزاة..»(٤). وفي عرف دولة البوليس والسطوة العسكرية أضحى المجاهدون القدامى عبئاً ينبغي إزاحته أو إرثاً يمكن استثماره، تعبّر قصة «أغنية حزينة لرجل كان حياً» رمزياً عن هذا الأمر بتصويرها لمزاد ينعقد في المدينة تباع فيه قمصـــان الشهداء وبنادقهم بثمن مساوٍ لثمن «مايوه» نسائي(٥).

وفي المدن المحرّرة حديثاً من الاستعمار تصدر الأوامر بتصفية الخارجين وضرورة طاعة القانون من أجل استتباب الأمن، وبذا تتسع الهوّة بين المواطن والسلطة الممثلة له، بل تنتفي عن هذه السلطة كل صفات التمثيل إذ تغدو احتلالاً جديداً، معيدة تراث الحجّاج والسفّاح، مكرّسة حالة انعدام الثقة بين المواطن والسلطة التي هي وجه آخر للعلاقة بين الحاكم/ المطلق بالمحكوم/ المدجّن .

---

١) الفهد. مصدر سابق. ١٠.

٢) المصدر نفسه. ص ١١ .

٣) الاغتيال/ الفيضان . مصدر سابق ص ٨٥.

٤) الوعول . مصدر سابق ص ١٧٠.

٥) الفيضان . مصدر سابق ص ٥٠–٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه المسافة القائمة بين الحاكم والمحكوم تجد التعبير عنها في قصة «من يذكر الغابة»، نتابع في هذه القصة الاحتفال الداخلي لبطل القصة الذي يستعد لمقابلة الرجل السياسي/ الرمز «هذا الذي سمعت عنه وقرأت ودهشت، كان سيهبط مدينتنا أخيراً»(١)، يستعدّ أهل المدينة كلهم للقاء الرجل العظيم، ويحلمون بمصافحته وإهدائه أجمل الورود.. يتزاحمون في الطرقات منذ الصباح انتظاراً له، لكن ما رأوه لم يكن يمتّ بصلة إلى ما تخيلوه.. « أرتال السيارات ، أبواقها، شرطتها، الدراجات المنذرة بصوتها المرعب خطفت أبصارنا، بددت أفراحنا، خلفتنا وراءها ولم نرَ شيئاً»(٢).

فالسلطة في أبراجها المحوطة بالجنود، تخاطب الآخر/ المواطن مسلحة بقوتها العسكرية ، متغطرسة وكأنها تمارس حقاً أبديا ومصانة بغياب الوعي، واستتباب قيم الصبر والقناعة والتقية لدى المواطن(٣).

جـ – القمع / التسلط

القمع والاستبداد لغة السلطة السهلة والسريعة لإلغاء الآخر / المعارِض المتسائل أو المفكر، الواعي لذاته والمطالِب بحقوقه، هذا ما تبينه النصوص موظفة الرمز والفانتازيا « Fantasy» غالباً، فالسلطة ذات السمات السابقة تطلب من (محكوميها) الطاعة والتسليم المطلقَيْن، إنها تريدهم مواطنين صالحين داجنين، مهذبين، ينفذون ما يطلب منهم دون تذمر أو تساؤل.. لأن السّلطة العارفة لن تأمرهم إلا بما فيه مصلحتهم ومصلحة الوطن.

يعتمد الكاتب حيدر حيدر في أعماله على الرمز في تصويره لتفنن السلطة في أساليب القمع والتدجين، ففي قصة «الطيور الغريبة القادمة مع الفجر» يجبر الناس على دخول المشفى، وهناك تفصد دماؤهم ويحقنون بمصل التدجين، وفي قصة «غبار الطلع» يوثق الناس إلى كراسي كهربائية ويجبرون على استنشاق الغازات السامة، أما في قصة «البرابرة» فتهاجم المدينة كائنات غريبة، وتحكمها بقانون جمعي يحدد للناس حياتهم وكلامهم وحتى أفكارهم

---

١) الفيضان مصدر سابق ص ٥٠–٥١.

٢) المصدر نفسه ص ٦٠.

٣) الفهد. مصدر سابق ص٢٦ و الفيضان ص١٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأحلامهم، ويكون فقدان الذاكرة جزاء من يفكّر بالرفض أو التردّد في التنفيذ، ويُساق الفقراء ومشردو المدينة في قصة «حالة حصار» إلى محجر خاص بهم خارج المدينة، يُنفون فيه، لأنهم يشوّهون احتفالات النصر العظيم..تتحقق دلالة هذه الأحداث الفانتازية في واقع الشخصيات المغيش، فحين يردّ «أبو علي شاهين» على إهانة الحارس تصبح الملاحقة قدره حتى يُصطاد ويشنق عبرة لغيره، أما قائد الفصيلة الذي يتصدى للعدو في قصة «كابوس نهار قائظ» فيحاسب ويُعذّب ويجرجر فوق الأسلاك الشائكة بتهمة الكذب (١) وكذلك «علي الراعي» في «طقوس العار» يحاكم بتهمة مخالفة أوامر القيادة، ويكون القتل نهاية «خلدون » الطفل في قصة «العكر» لأنه يردّد فضائح رموز السلطة وأما الرجل الذي يفضح مدينة المزاد في «أغنية حزينة لرجل كان حياً» فينتهي إلى السجن «وجاء شرطي ، أمسك بالرجل بعد أن أطفأ النار قيّده ثم سحبه وراءه ككلب»(٢)، و«أحمد الجنابي» الذي يهدم رموز التدجين التي زيفت حياته، يُحبس في أقبية مظلمة ويعذّب طويلاً قبل أن يساق لمحكمة صورية ويُعدَم (٣) .إن أشكال القمع هذه تمارس باسم الدولة واستتباب الأمن وسلامة المواطنين « لقد صدرت الأوامر لتطهير البلاد من هذه الجراثيم لإعادة النظام والأمن»(٤) وفي «البرابرة» « المهم أنه لمصلحة الوطن والمواطن، أصبح الوطن مقنناً، أخذت الدولة على عاتقها تربية المواطن تربية حديثة.. طبعاً هناك مواطنون جامحون يفكرون أكثر مما ينبغي ، وهؤلاء مواطنون فائضون عن الحاجة ويضرون بالمصلحة العامة، لذا كان لا بدّ من التخلص منهم» (٥).

وتوضح لنا القصص أنه لا مكان في دولة البوليس القمعية إلا لحاكم وآمر وحيد، تردّد له

---

١) حكايا النورس المهاجر مصدر سابق . ص ٦٤ .

٢) الفيضان. مصدر سابق . ص ٤٩ .

٣) المصدر نفسه. ص١٤٢.

٤) الوعول . مصدر سابق ص ٨٢ .

٥) الفيضان . مصدر سابق ص ١٥٩ .

٦) مرايا النار. مصدر سابق . ص ٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجموع: «لا إله إلا هذا اللوياثان العظيم ، الأشعة والمطر نبع الحب والفرح والسعادة المطلقة.. نوره المستقى من المعنى القديم السرمد الذي لا تحيطه الأبصار..»(٦) وفي ظل غياب القانون وأفول شمس العقل تسود الفوضى وتتدنى قيمة الإنسان وتتراجع القوى الخلاقة ويتكلم العنف «هو ذا عصر الجنود يجتاح طبقات الحليب، في زمن الغفلة، سقط البشر فريسة الرعب وأنشوطات الإعدام»(١).

ومما سبق نلحظ أن السلطة باتسامها بالسمات السابقة، لا تنتمي إلى العصور الحديثة بل هي استمرار لعصور الطغيان والحكم المطلق، حتى لو تسمّت بأسماء ثورية وادّعت انتماءها للعصر الحديث(٢).

٢ - ردود أفعال الشخوص تجاه السلطة

أمام قمع السلطة واستغلالها وخيانتها لآمال مجتمعها، تتراوح ردود أفعال الشخوص في النصوص قيد البحث بين السلبي «تكريس الاغتراب السياسي»، والإيجابي «تجاوز الاغتراب السياسي»، بين الخضوع والاستسلام «اللافعل» خوفاً أو عجزاً، والرفض والتمرّد «الفعل» دفاعاً عن حقوق الذات / المجتمع. نرصد هنا ردود أفعال الشخصيات على اغترابها مضيئين حركة الوعي داخل الذات.

- الاستسلام اللاواعي

يتأسس الاستسلام استناداً إلى الخوف والعجز والقيم التي تعززهما فتؤبّد التراتب بين البشر، وتجعل استمرار العيش - بعيداًعن أي مضمون- نعمة كبرى تدهش لها الذات. في رواية «الفهد» تفصيل واضح لنفسية الفلاح وإحساسه الدائم بالدّونية « نفوس راسخة رسوخ الجبال، فوقها ناخت دهور من الاستكانة والرضى الكاذب.. تزرع الأرض التي لا تملكها.. وفي الليالي تنخلع قلوبها من وقع حوافر خيل الجند تتمتم في العشيات، خبزنا كفاف يومنا،

---

١) الوعول . مصدر سابق.ص ١٦٨.

٢) كشخصية الضابط «وائل الأسدي» في الزمن الموحش.

٣) الفهد. مصدر سابق . ص ٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ربنا رزقتنا أكثر مما نستحق»(٣)، في «الطيور الغريبة القادمة مع الفجر» ينساق الناس، بِذُلّ، إلى فصد الدم، وفي «مرايا النار» يسبّح الناس بحمد «اللويائان» ظل الله على الأرض ، وكذلك في نصوص عديدة(١) ينساق الناس لهموم العيش التافهة مغمضين أعينهم عن العنف والكبت والظلم وانهيار القيم وضياع العدل، يشهدون مناظر الإعدام والجثث المتفسخة، ويتابعون مزادات البيع غافلين عن صيحة الحق الغاضبة «الحجيج الزاحف نحو الأسواق والبنوك والبارات والكازينوهات والنساء الخليعات والأمراء الخلعاء ومكاتب الاستيراد والتصدير وصفقات الرقيق السري والحشيش والمعلومات السرية لـ «السي آي إيه» والموساد»(٢).

تواجه الذاتُ السؤالَ بالصمت في حالة غياب الوعي واستسلام الذات والجموع لظاهر ما يجري، ، خوفاً من مصير فاجع «.. عندما سنسأل عما يجري يواجهنا صمت فولاذي من العيون التي كممها الرعب»(٣) وفي «الطيور الغريبة » «إنني أرتعد مأخوذاً بالخوف من تناول المحلول المهدّئ»(٤) وفي قصة «الميراث» حيث يُستحضر إعدام «الجعد بن درهم» لمخالفته رأي بني أمية «صعدوا به إلى مئذنة الجامع بينما الأعراب ترى وتشهد صامتة كالشجر»(٥) هنا

---

١) الأمثلة كثيرة: غبار الطلع، طائر الموت، غسق الآلهة، الزمن الموحش، أغنية حزينة لرجل كان حياً، الجوع والقتلة واللصوص.

٢) غسق الآلهة . مصدر سابق ص ١٨.

٣) المصدر نفسه.. ص ٩ .

٤) الوعول. مصدر سابق ص١٤.

٥) المصدر نفسه . ص ٢٥.

٦) غسق الآلهة . مصدر سابق ص ٢٩.

٧) الفيضان مصدر سابق ص ١٠٧.

٨) الومض. مصدر سابق ١٤٤.

٩) الفهد . مصدر سابق.ص ١٩.

١٠) الفيضان .مصدر سابق. ص ٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتحوّل الجموع كما شاءت لها السلطة «قطعان صامتة باحثة عن عشبها وحظائرها في أوائل المساءات»(٦) وتغدو عبارة المديح للمواطن هي: «كان داجناً كما ينبغي»(٧) فقد «عقّلهم الخوف والحزن الكتيم»(٨) لذا استغرقوا في الصلاة (٩)، ومضغ القات (١٠)، وأقاموا في الخمارات والمواخير غافلين عن احتلال حاضرهم وغياب مستقبلهم «صوت مناحيم بيجن يطاردهم، ثم صوت «منى» الذي لا صدى له»(١). في الأمثلة السابقة تنصهر الذات والمجموع في الأحداث دون إدراك حالة الاغتراب، بل ترى فيما يحصل لها قدراً مكتوباً، إنها لا تطمح ولا تحلم ولا تغضب.. إنما تخاف وتنافق وتنسى.

- الاستسلام الواعي

تدرك الذات في موقف الاستسلام الواعي اغترابها السياسي وأسبابه الظاهرة والكامنة، لكنها تقف مكبلة بالعجز مصدومة بمظاهر الاغتراب ، تنتابها مشاعر العبث واللاجدوى، وتعاني إحساسها الدائم بذاتها المحتلة والموطوءة والمخصية، فاقدة الثقة بماضيها وحاضرها ومستقبلها. تصطدم الذات هنا بسطوة السلطة القمعية وغياب السلطة المدينية والقانون «نحن الرجال والنساء الذين فاجأتهم العصور الحديثة باحتفالاتها البدائية»(٢) في شوارع المدينة «الجثث التي شاهدتها فوق ركام المزابل والكلاب تنهش أضلاعها.. الجثث التي كانت بشراً»(٣)، في هذه المدن المستباحة التي يداهمها الموت المجاني يواصل الناس الهروب «بينما الطلقات تخترق الفضاء ونبض الدم»(٤) وتسود حالة انعدام المعايير وتهدّم القيم «عالم يلهث كالخنازير وهو يغوص في أوحال الربح والثراء موغلاً في الخيانة والقتل وتدمير الأوطان»(٥).

---

١) الزمن الموحش. مصدر سابق . ص ٢٥٤ .
٢) غسق الآلهة. مصدر سابق . ص ٩.
٣) المصدر نفسه . ص ٨ .
٤) المصدر نفسه. ص ٣٨.
٥) الوعول . مصدر سابق ص ١٠.
٦) المصدر نفسه . ص ١٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تدرك الذات حالة الارتكاس الجمعية «لقد تناسل ذلك الطاعون في دمهم وخبزهم وآلهتهم، ميراث جرثومي جاءهم من تاريخ الملوك والخصيان والعبيد والقتل والخوف والجوع»(٦)، و تشعر بعجزها عن مواجهة هذا المستنقع الطيني من الأخطاء والتشوّه والتبرير وتخدر الوعي وانهيار القيم..، الذات المصدومة بالوعي ورؤية الخلل تمارس استسلامها بأشكال متباينة.. في «صيف محترق» يحرق الجندي ذاته المخصية والمقصاة عن دورها ومبادئها، وتستسلم شخصيات «غبار الطلع» و«طائر الموت» و «غسق الآلهة» لإحساس العبثية واللاجدوى من الوجود، مطفئة أيّ بادرةٍ للأمل، ويختار«اسماعيل كنعان»في قصة «نصب تذكاري لرجل منتحر» الانتحاربعد أن عاش الهزيمة في بيروت.

ونخلص مما سبق إلى أن حالة الاغتراب تؤثر عميقاً في نفسيات الشخوص وحيواتهم الواعية لاغترابها..ويأخذ التأثير أشكالاً مغرقة في السّلبية سنحاول أن نوجزها في العناوين التالية:

أ- الانكفاء على الذات وفقدان الثقة بها

في حالة الانكفاء تنسحب الذات المستسلمة التي صدمها وعيها على اغترابها من المشاركة في الحياة، إنها ترى في الوطن كذبة أوخدعة ينبغي التعالي عليها.. فتهاجر وتبتعد أو تنتحر «نحن غرباء في هذا العالم غرباء وفزعون..»(١) «أليس مريحاً أن يحيا الإنسان حلزوناً أو سلحفاة داخل قوقعتها..»(٢).

هنا يطال الإحساس بفقدان الثقة والنقص والدونية أعماق الذات ، فترى نفسها كائناً مشوهاً لا يستحق الحياة، وترى في تاريخها حضارة مشوّهة «الجذر منخور والتربة

---

١) غسق الآلهة. مصدر سابق . ص ٣٦.

٢) مرايا النار. مصدر سابق ص٤٢.

٣) غسق الآلهة . مصدر سابق ص ٣٩.

٤) مرايا النار. مصدر سابق . ص ٨٦ .

٥) غسق الآلهة . مصدر سابق ص ٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاسدة»(٣) مستشعرة النقص والتخلف: «نحن الآن ياعزيزي في عصر الزواحف بينما البشر الآخرون يغزون الكواكب...»(٤) «الانهيار والخلل في الداخل.. في العصيان وتلافيف الدماغ ما زلنا على درج السلّم الحيواني الأول لصور البشرية وارتقائها»(٥).

ب – تدمير العلاقات الإنسانية

تفتقد الذات الواعية بوأدها نفسياً، وغيابها عن دورها، وعجزها عن مواجهة أسباب اغترابها (السلطة القامعة)، أحاسيسَها الصحيّة في علاقة الحب، فالجنس يبدو لها هروباً وتعويضاً عن المواجهة. ذلك أن الإنسان المخصي والمسلوب لا يستطيع الحب والتواصل الاجتماعي السليم، فالحب لا يتعايش وأجواء القمع والتلوّث وانسحاق الذات والخوف وتوقّع المداهمة، الحب في حالة الاغتراب يصبح «الملاذ الشخصي في عالم يفيض بالدم»(١)، و يعني التعويض والمقايضة «حب في الزمن الكلبي، أي تعويض متواطئ ؟»(٢)، وفي عصر الخوف وسفك الدماء لا يمكن لامرأة ورجل «تشييد أيكة الحب»(٣) أو ممارسة الحب الصحي المعادل للحرية والأمن، بل يعيش الطرفان علاقة مشوّهة ، مؤقتة، خائفة، لا تقدّم لهما عزاء (٤)، ولا تمنحهما ثراءً إنسانياً «بغتة.. جاء الفزع من صوت حصاتين صدمهما الموج»(٥).

جـ – العبث واللاجدوى

تستسلم الشخصية المصدومة باغترابها إلى ماضيها الحافل بالرعب والتهديد والقتل والمذابح محاولة إذكاء حسّها الانتقاميّ لتثأر وتقتص، لكنها تقع في النهاية تحت سيطرة

---

١) غسق الآلهة . مصدر سابق ص ١٧.

٢) مرايا النار. مصدر سابق . ص ٥٨ .

٣) المصدز نفسه ص٥٢.

٤) غسق الآلهة ص ٥٥، ٩٣/ طائر الموت ص٣٣/ مرايا النار ص ٥١, ٧٩, ٨٠/ الوعول. ص١٣٨/ غبار الطلع ص ١٦، ١٧، ٢١.

٥) غسق الآلهة . مصدر سابق ص ٣١.

٦) المصدر نفسه ص ١٨، ١٩، و مرايا النار ص ٩٢– ٩٤.

٧) مرايا النار ، مصدر سابق . ص ٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكوابيس والهذيانات وأحلام اليقظة(٦)، و.تنتابها أحاسيس العبث واللاجدوى، فهي تستشعر في أعماقها مجانية وجودها ولا جدواهُ «نحن لا شيء في زمن العار»(٧)، ترى الذات في وجودها خطيئة وفي نجاتها من الموتُ صدفة غبية «أدرك الخطأ الفادح لخروجه من رحم أمه ونجاته من المذبحة»(١) فحين ينفصل حلم الإنسان عن واقعه بمليار سنة ضوئية(٢) يجتاحه إحساس اليأس والنقص «كان مرمياً في اليأس المطلق والجذام النفسي وفقدان الاتجاه»(٣).

- التمرد اللاواعي

تتمرد الذات، في ردّ الفعل اللاواعي، على واقعها البائس المستلب عبر خروجها على رموز السلطة السياسية في لحظة انفعالية حماسية، لم يخطط لها، والذات في هذه الحالة لم تنطفئ داخلها جذوة الإنسانية والتوق للحرية بعد، لذا تثور دفاعاً عن إنسانيتها المهانة وتتحمل نتائج مواقفها التي لم تكن في الحسبان.. فحين يتمرّد «أبو علي شاهين» بطل رواية «الفهد» على السلطة ممثلة في شخص الحارس لا يصدر بموقفه هذا عن وعي سياسي واجتماعي، بل كان يردّ الإهانة التي لحقت به من قبل الحارس: «ما كان بوده أن يحدث ما حدث.. غير أن الإهانة كانت قاسية لا تحتمل لو ارتضاها لفقد شيئاً من إنسانيته»(٤)؛ في ذلك الوقت كانت هموم الناس تتلخص في مطلب الأمان العائلي «بعد إنهاك الحروب الجبلية في وجه غورو»(٥) ولم يكن «شاهين» يختلف كثيراً عن غيره، غير أنه وجد نفسه مطارداً ملاحقاً في الجبال من قبل الدرك، أما من لحق به من الرجال، فقد رافقوه مدّة ثم حنّوا لدفء بيوتهم وطمأنينة العيش فتركوه وحيداً ،في حين كان بقية الفلاحين على الحياد « كانوا على الحياد قلوبهم معه وفي

---

١) مرايا النار مصدر سابق . ص ٤٦ .

٢) غسق الآلهة . مصدر سابق ص ٣٩.

٣) مرايا النار مصدر سابق . ص ٦٠ .

٤) الفهد مصدر سابق . ص ٣٧ .

٥) المصدر نفسه ص ٤٢.

٦) المصدر نفسه ص ٤١.

٧) المصدر نفسه ص ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سرّهم يدعون له بالنجاة»(٦) . إن القهر والإهانة التي تعرض لها الفلاح «شاهين» طوال حياته، يتعرض لها الفلاحون الآخرون كذلك، لكنه كان يقاتل رموز القهر وحيداً، كان الوعي الاجتماعي السياسي نائماً.. وكانت طلقات «شاهين» في غير أوانها(٧).

وفي «الشموس الساطعة» موقف آخر يعبر عن التمرد الحماسي على الأوامر المتخاذلة.. لقد شاهد الجنود المرابطون على الحدود العدوّ يتربع في أراضٍ كانت جزءاً من الوطن قبل أيام.. ونفذوا الأوامر بالاستعداد للمواجهة..ولحظة بدء المعركة، بفعل خوف قادة الفصائل، تصدر الأوامر للجنود بالانسحاب، لكن قائد الفصيلة الأولى يرفض ذلك «المقاتل الحقيقي لا يرتضي عار الهزيمة.. ولو انسحبتم جميعاً فأنا باقٍ هنا»(١)، إنه الموقف الارتجالي ذاته الذي اتخذه «شاهين» دونما سؤال عن العواقب «شعر أنه يدفع الرعب عن نفسه بكلمات تولد بينما الموت يتقدّم .. وتذكر أنه لم يكن بطلاً خلال سني حياته، لكن هذه اللحظة المدهشة رمته ورفاقه الجنود فجأة في مدار البطولة»(٢).

وفي قصة «الفهد» ينتهي «شاهين» معلقاً على حبل المشنقة بعد أن غدا أسطورة ضمن أساطير الفلاحين تروى في مساء الحكايا، وفي «الشموس الساطعة» استشهد أفراد الفصيل كلهم عدا ستة، عُذّبوا وحوكموا، بينما : «في الشوارع كان الناس يسيرون بهدوء نحو مراكز أعمالهم، ونحو الحدائق العامة»(٣).

- التمرد الواعي

حين تتخذ الشخوص موقف التمرد الواعي تنتهج طريق المجابهة، لفضح فساد السلطة وتواطئها مع التجار، ومع القيم السلبية السائدة، محاولة اجتياز حاجز الخوف والتردّد، ملاحظة العلاقة بين التردّي الاجتماعي والاقتصادي والتسلط السياسي. ويوظّف الكاتب في نصوصه رموز التمرد التاريخية، ويستحضرها علامة مضيئة على الوعي، ممثلة في شخصيات كأبي ذر الغفاري وغيلان الدمشقي وعقبة بن نافع.. وغيرهم.

---

١)حكايا النورس المهاجر مصدر سابق . ص ٥٩ .

٢) المصدر نفسه ص٦٠.

٣) المصدر نفسه ص٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتّخذ مواقف الشخوص ضدّ رموز السلطة طابع المواجهة، والصراع الدامي، فالسلطة القمعية لا تعرف مفردات الحوار، ولا تعترف بالآخر إلا خادماً مطيعاً، لذا تواجه أي خروج عن القطيع بالنار. ففي قصة «العَكَر» تحيي شخصية الطفل «خلدون» موقف غيلان الدمشقي من السلطة الأموية، هذا الطفل المطرودُ من دفء العائلة والأصدقاء «أينما حلّ ينشر الفضائح دونما خشية من الله أو تقاليد الناس، عن الشيوخ يحكي، وعن المرابين ، يهزأ من معلمي المدرسة ورئيس المخفر ، وبجرأة مراهق يتحدث عن الخيانات الجنسية»(١)، هذا الطفل الخارق لرموز السلطة ومحرمات المجتمع، والكاشف لما يحدث في الخفاء يُحارَب من قبل أولي الأمر.. فيقطعون لسانه كيلا ينشر فضائحهم، وعندما يكتبها على الجدران يقطعون يديه، ويقتلونه في النهاية، إذ يبقى شاهداً على استبدادهم.

ويقوم الرجل في قصة «أغنية حزينة لرجل كان حياً» بدور الطفل «خلدون» في القصة السابقة، إذ يصرّ على نشر فضيحة الخيانة في المدينة.. ويصرخ في الشوارع العامة المحتفلة بمزاد البيع والشراء بعد الحرب: «عاد الناس غرباء بعد أن انطفأت نيران الجبل.. وبعد حين، سيبيعون قمصان الشهداء.. ها.. ها ...، هيا انهض معي لنحرق هذه المدينة القحبة»(٢) وحين يبدأ باشعال النار يقتاده الشرطي ويغيب به.

ونجد صورة أخرى مشابهة لشخصية الرجل في القصة السابقة، فـ «أحمد الجنابي» في قصة «الفيضان» يثور على رموز تدجينه وتحويله إلى مواطن مطيع، يغيّر اسمه، ويحرق هويته،يقتل أباه (الماضي)، ويطلّق زوجته (الحاضر)، وينطلق للمستقبل مردداً فضائح مدينته: «لماذا كنت تتشرد في الشوارع وتضرب الحجارة على الجدران والنوافذ وتتحدث إلى الأشجار والمارة عن الحرب»(٣) ويواجه من ثم مصيراً مفجعاً، لكن مسيرته تحمل البشرى بإمكانية وجود حياة سليمة، خالية من القمع والتدجين، عبر رمزية القبيلة التي «ستملأ الأرض يوماً بالعدل بعد أن ملئت بالجور والطغيان.. قوانينهم لا تعرف السجون أو الإعدام»(٤).

---

١) الومض مصدر سابق . ص ١٢٧.
٢) الفيضان. مصدر سابق ص٤٨-٤٩.
٣)المصدر نفسه. ص ١٣٤.
٤) المصدر نفسه ص ١٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويوظّف الرمز التاريخي في قصة «حالة حصار» للدلالة على موقف الرفض السابق، فـ «عقبة بن نافع» يدخل المدينة معاشراً الفقراء والمشردين والمنبوذين دالاً لهم على طريق التحقق: دخول النار (المواجهة).

وفي قصة «رقصة البراري الوحشية» يخوض «الأزرق» معركته ضدّ رموز السلطة مكتشفاً أن لغة التدجين واحدة «في الشارع والمقهى وغرفة البوليس والزنزانة، لا يسمع غير أصداء التدجين والتآلف والانسجام والطاعة»(١)، هذه الأصوات تصيبه بالغثيان، فيعاديها «يكتب بالبول كلمات بذيئة غريبة ضد الدولة والبوليس والمدينة والله والآباء والأوامر والنواهي والأخلاق السائدة»(٢) خارج المدينة يبحث عن قيم أخرى «رمزية فتاة البراري» لكنه قبل أن يصل لليقين «على أبواب المدينة سقط، اصطيد بطلقة ثقبت مؤخرة الرأس وخرجت من صدغه»(٣).ويمكننا أن نلاحظ هنا كيف انتهت ثورات الخارجين في القصص السابقة نهايات مأساوية، مما يشير إلى رؤية الكاتب المتشائمة للصراع السياسي الدائر،نستثني من ذلك قصة «وقت للجمر» الحاملة لأصداء الحرب الأهلية في لبنان،حيث يصوّر الصراع على أنه ثورة يقودها الفقراء بقصد بناء وطن جديد، يقول أحد المقاتلين : « لا تحزني يا جدتي،سنبني لبنان الأجمل.وطن الفقراء، الذي يحترق ليس وطننا، إنه وطن التجار والطائفيين وكلاب إسرائيل، لقد كنا غرباء فيه يا جدتي، ولهذا ينبغي أن يحترق»(٤) .

أما توظيف الكاتب للشخصيات الثائرة المستحضرة من قلب التراث، فيدعم حالة التمرد الواعي، إذ يدلّ على أن حركة الوعي المتمثلة في السلوك المقاوم لأسس الاغتراب ليست وليدة اليوم، وإنْ بدت أشبه بطفرة في ظلّ السائد الخانع.

---

١)الوعول. مصدر سابق.ص ٧٣.

٢) المصدر نفسه. ص ٧٣.

٣) المصدر نفسه. ص ٨٢.

٤) المصدر نفسه. ص ٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- اغتراب الفلسطيني

يأتي إفراد الحديث عن اغتراب الفلسطيني، للحالة الخاصة التي عاناها انطلاقاً من وضعه الخاص مشرداً ومنفياً عن وطنه ، حيث تتبدى ثلاث صور لاغتراب الفلسطيني في أدب حيدر حيدرهي: الباحث عن الخلاص، والثوري المنحرف، والهارب للنسيان.

- الباحث عن الخلاص

يظهر الفلسطيني في نصوص حيدر حيدر باحثاً عن خلاصه الخاص، بعد تعرّضه لاستعمار يستهدف وجوده وتفريغ وطنه منه، وإجباره على الهجرة، وتصف لنا قصة «حقل الأرجوان» خروجه الاضطراري الذي ساندته القيم الانهزامية وغريزة الحياة.

وابتداءً من هذا الخروج يعاني الفلسطيني اغتراباً شاملاً ، ففي البلاد العربية التي التجأ اليها واجه الإهانات «تعلمت كراهية العرب الذين كانوا يشيرون إلينا بأصابع الاتهام ثم يبصقون وهم يرددون جهاراً أو استبطاناً : يا أولاد العاهرة، بعتموها وجئتم تحتلوننا»(١)، والخطاب هنا لرجلٍ كان طفلاً وقت الهجرة، وفي «الشموس الساطعة» يعاني «سيد حجاب» المعاناة ذاتها، يقول: «على جميع الدروب التي عَبَرَ لاحقته سياط الازدراء»(٢)«فلسطيني أنت ولستَ عربياً يا مازن جودت»(٣). وفي وقت الحرب يرى التخاذل والتهرب «وفي جميع المدن التي عبرها، رأى مازن جودت أناساً يهربون ويناقشون ، يتهمون ويبكون، لكنه لم يشاهد أحداً يَقتُل..»(٤)،وفي «حقل الأرجوان» يُسجن «نافذ علان» في سجن عربي ، لا يغادره إلا بعد هزيمة حزيران(٥).

---

١) التموّجات. مصدر سابق . ص٥٩.

٢) حكايا النورس المهاجر مصدر سابق . ص ٤٣ .

٣) المصدر نفسه. ص ٤٦ .

٤) المصدر نفسه ص ٤١-٤٢.

٥) التموّجات. مصدر سابق ص٦٧ -٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ترسم النصوص خط الخلاص للفلسطيني بجعله يختار العودة إلى أرضه وليبدأ المعركة، منتقلاً من حالة التأمل والتفكير وندب الذات إلى الفعل والمواجهة «بعد عملية ضرب مقرّ الحاكم العسكري انطوت صفحة مهتزة من حياة نافذ علان»(١). تتجلى معركة «نافذ علان»في الوطن (فلسطين) باتجاهين: الأول مقاومة الاحتلال برموزه (مقر الحاكم العسكري)، والثاني مقاومة الثقافة الغيبية التسليمية التي كانت سبباً في الاغتراب عن الأرض، ويختار «مازن جودت» الطريق ذاته، فيلتحق بالفدائيين «مخلفاً وراءه مدن الطاعون»(٢).

– الثوري المنحرف

تتجلى صورة الثوري المنحرف في شخصية «بشر الغزاوي» في قصّة «التموّجات»، فـ «بشر الغزاوي» الذي حارب ببطولة في معارك تلّ الزعتر» انقلب بعد الحرب إلى متسكّع من نادٍ إلى نادٍ، ومن امرأة إلى أخرى في مظاهر من الترف لا تحتملها مرحلته التاريخية. إنه يشعر بأنه قد أدى مهمته على أكمل وجه، وأنه لا يوجد من ناضل أكثر منه، لذا فهو يُمضي الوقت باستعراض تاريخه الشخصي منتفجاً وسعيداً بما قدّمه وسط عالم يتآمر على وجوده. «بشر الغزاوي» رمز للثوري الذي انحرف عن الطريق وغاب في ماضيه، وقت حضور العدوّ. ونجد مثالاً آخر للثوري المنحرف في شخصية «وائل الأسدي» في رواية «الزمن الموحش». فـ «وائل» اختار الجندية ليثأر لوالده (التاريخ والذاكرة المحتلّة) الذي شُلّ إثر مواجهة مع العدو في حروب فلسطين. إن شلل والده يصوغ شخصيته الصادمة المحطمة للتقاليد والمعتقدات القديمة، لكن فعله الخاص ينحصر في دائرة العجز والنزعات السادية والمازوشية، وجهده لا يتجه لعدوّه الأساسي، فهو في موقع القوة ـ ضابطاً في الجيش السوري ـ يرى كل من دونه جديراً بالتعذيب والقتل والإيذاء، لذا يتحوّل بيته إلى وكر للاغتصاب والقتل، وتتعاظم سطوته أمام من يحقق معهم في العمل ملتذاً بفعل التعذيب منتشياً بمنظر الضحية. لا يحمل «وائل الأسدي» من الثورية إلا بضع جمل، فممارساته تكشف ارتكاسه وخيبته وفشله في أن يثأر لذاته وماضيه الموطوء(الأب المشلول)، فيتساوى بذلك مع رموز السلطة التقليدية وينحرف في سيره المجنون (رمزية السيارة) أكثر فأكثر لينتهي بحادث اصطدام مروّع.

---

١) المصدرنفسه.ص١٢٥ .

٢) حكايا النورس المهاجر. مصدر سابق . ص ٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– الهارب إلى النسيان

يمثل «مسرور» في رواية «الزمن الموحش» صورة الهارب إلى النسيان،التي يمكن أن تعبر عن حالة جيل بأكمله، ففيما يقاتـــل والده (الجيل السابق) في فلسطين، ينصرف هو إلى تحقيق مسرّات عيشه، فقد استقرّ في دمشق وتزوّج، ولم تعد فلسطين (الوطن و الجذور والذات الموطوءة)حاضرة في تفاصيل حياته الشخصية الرضية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس

تجليات الاغتراب في رواية

وليمة لأعشاب البحر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدخل

سنحاول في هذا الفصل استقصاء ملامح الاغتراب وتجلياته في رواية «وليمة لأعشاب البحر»، مستفيدين من الرؤية النقدية التي ترى أنّ دراسة وتحليل عناصر الشكل الأدبي تحيل بالضرورة إلى الدلالات الفكرية والاجتماعية والنفسية الكامنة في النص مما عُرف بدراسة «محتوى الشكل» «The Content of Form»(١). وهنا نحلّل بعض مفردات «الرواية» لاكتشاف ما تعطيه هذه المفردات من دلالات أيديولوجية فكرية، وما تتضمنه من مشاعر وانطباعات وأحاسيس وتفضيلات ، ذات صلة بالاغتراب ، نتتبّع ذلك في عناصر الرواية التالية:

- الضمائر. - الزمن. - السرد . - اللغة.

-الحلم . -الشخصيات. - المكان . -الأسلوب.

اما اختيار رواية «وليمة لأعشاب البحر» من بين أعمال الكاتب دون غيرها لتكون أنموذجاً تطبيقياً تُحلل فيه دلالات الاغتراب ومظاهره في عدد من عناصره ، فذلك لأن الباحثة ترى في هذه الرواية العمل الأكثر تعبيراً في إبداع الكاتب عن مأزق الاغتراب بمضامينه النفسية والاجتماعية والسياسية وباستيعابه شرائح اجتماعية متباينة متنوعة، وامتداده الواسع في الزمان والمكان، بما فاق أي عمل آخر للكاتب، بالإضافة إلى قلة الدراسات النقدية التي تناولته، وابتعادها عن التطرق لموضوعة الاغتراب ، الأمر الذي استحقّ إفراده في فصل خاص به.

---

١) سيّد بحراوي، محتوى الشكل . مجلة فصول مجلد ١٢ العدد الأول ١٩٩٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ص ٢٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تطمح روايةُ «وليمة لأعشاب البحر» لتأريخ حالة انكسار حلم العربي بالنهوض ودخول العصور الحديثة، وتراجع هذا الحلم حدّ الاندثار والنهاية المؤسية ، يتأسس ذلك في تصويرها لانكسار موجتين ثوريتين :حركةُ التمرد الشيوعية الفاشلة في العراق، وحركة التحرير الوطني في الجزائر، ففي الأولى يظهر العمل الثوري العربي معزولا، رومانسياً، يسهل التغلب عليه ومصادرته ووأده ، وفي الثانية يدور هذا العمل في نطاق السياسة بعيداً عن المجتمع، لذا لا يتعدّى أن يكون تغييراً سطحياً لم يَطُل روح الإنسان ودواخله الغارقة في العصور القديمة.

ولا يتكرس انهيارُ حلم الثورة والتغيير بالمحاولة المجهضة في العراق/ الماضي، إنما ينسحب في حالة الثورة المتحققة في الجزائر/ الحاضر، ذلك أن ما يستدعي الثورة من قمع للحريات السياسية والشخصية والظلم الاجتماعي والطبقي وكبت الحريات والأفكار حاضر في العراق كما هو مستمر في الجزائر، رغم انتصار الثورة.

تبدأ روايةُ «وليمة لأعشاب البحر» من حيث انتهت رواية «الزمن الموحش»، فقد حملت الثانيةُ علامات تفسخ وانهيار النظام الاجتماعي والسياسي القائم، المهدد من الداخل والخارج، معلنة أن لا بداية مشرقة تلوح في الأفق، ، وأنّه إذا أردنا أن تكون البداية صالحة فيجب أن تحمل شعار التغيير الجذري الشامل، بهدم البناء القديم وبناء الجديد على ضوء التجربة «ينبغي أن نحرق ماضينا ونتقدم في التجربة حتى الأقصى بدون أبٍ أو أم» (١). في رواية «وليمة لأعشاب البحر» تتحقق النبوءة، إذ تقوم الثورة حاملة بشائر التغيير وبناء عالم جديد، لكنها تتعرض للتزوير والتحريف والتحوير لأن سلطات العالم القديم متواطئة مع بعضها. فحلم الثورة الشاملة في العراق ينتهي بالحريق والفناء (حركة الأهوار)، والمعبرون عنها (مهدي جواد ومهيار الباهلي) يتشردون خارج الوطن مزعزعي النفوس والمبادئ، أما الثورة المبعدة عن أهدافها (الثورة الجزائرية) فتظهر على شكل سلطة جديدة تمارس ما كانت تمارسه سلطة الاستعمار رغم اختلاف الواجهة الاعلامية، مكرسة الاستغلال والقيم السلّفية (الحاج محمد ويزيد ولد الحاج) وناذرة للاغتراب من كانوا مشاعل الثورة ووقودها (فلة بو عناب ولالا فضيلة وعمر يحياوي).

---

١) الزمن الموحش. مصدر سابق . ص ١٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعبّر الكاتب عن تفاقم الخلل والانحطاط في المجتمع العربي وتراجع القيم الخيّرة رمزياً بضياع الشخوص الممثلة لتلك القيم ، وصعود الشخصيات الأسطورية الخارجة من مستحاثات التاريخ الحاملة لملامح العصر العربي الحديث السائر نحو الهاوية (اللوياثان) *. وفي وصف حالة التحول العربي، عبر حاضر يسيطر عليه الماضي، يلوح العربي مشدوداً لدائرة مغلقة، مجبراً على الدوران فيها حتى الإغماء، مستسلماً لزمن اللوياثان وسلطته المعززة بالأسطورة ، وتبدو الثورة التغييرية حلماً صعباً بعيد المنال وسابقاً لأوانه.

إن رصد الأحداث المأساوية عبر حيوات تضيء كالشهب ثم تسقط وتنطفئ، وحصاد السنين العجفاء، وازدهار أدوات القمع وأساليبه وتأثيراته، يقود رموز التغيير إلى حالة من اللامبالاة واليأس والإحباط النهائي، حيث تتمظهر حالة الاغتراب في أشكال عدة؛ اغتراب الجموع السائرة إلى حتفها والراضية بتفاهتها وكبتها وقهرها، وانعدام المعنى في حياتها، وتلاشي قدرتها على التأثير، واغتراب المثقف الذي تتسع الهوّة بينه وبين الآخرين ، إذ يوصَم بالتخريب والإباحية والتهتك والعداء للمنجزات التي حققها «المجموع» مما يوصله إلى العزلة وإلى إغماض العين عن التشوّه واللاإنسانية المترائية في كل مكان.

تسعى رواية «وليمة لأعشاب البحر»- وهي تكشف حالة الانكسار والانكفاء، مضيئة المناطق المظلمة والمحرّمة والممنوعة بكل طاقاتها اللغوية الصادمة للوعي التقليدي، وحيويتها الشعرية النابضة - لأن تكون نصا رافضاً لكل هذا الاغتراب، غير منفصلة عن سياق أدب الكاتب في توزّعها بين حلم الانسجام والمستقبل الوضاء(علاقة آسيا ومهدي جواد) ووطأة الواقع المظلم المغيّب للإنسان والحرية «مشاهد المطاردة والقمع والمداهمة والقتل والمذبحة والكبت الجنسي وضياع القيم (موت سي العربي الأخضر)» وتفشّي الفساد والخلل والتشوّه (ظهور اللوياثان/ الرمز).

تؤرخ الرواية، قيد الدراسة، لأحداث وشخصيات واقعية، وتسعى لإدانة السائد في

---

* اللوياثان: كائن أسطوري نصفة إنسان ونصفه الآخر حيوان، استخدم في الرواية للتعبير عن السلطةالقمعية. انظر ضمن الدراسة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحاضر العربي، مستشرفة استمرار غياب الإنسان والفعل برموز ودلالات بالغة الإيحاء «الحلم الكابوسي، الهذيان، اللغة السوريالية، صعود اللوياثان، الأساطير» لذا فهي نص بعيد عن التفاؤل؛ إنها أشبه بمرآة يظهر فيها وجه العربي وجسده المشوّه المغطى بالندوب والانجراحات، المتواطئ مع انكساره وعريه وهدر إنسانيته، وبين موجات الانكسار الحادة السائرة إلى المستنقع الراكد، لا نلمح إلا موجة واحدة صاعدة «آسيا الأخضر» لكن مستقبلها لا يبشر بخير، ذلك أنها تبدو نشازاً غريباً يحاول المجموع شدّه إلى مستنقعه.

- الضمائر

يسيطر ضمير الغائب «هو» على السرد، فعلى لسان الراوي غير المشارك في الأحداث، نتعرّف إلى الشخصيات وسماتها الخارجية وردود أفعالها ، ماضيها وحاضرها وعلاقاتها، يقول الراوي شارحاً نفسية «مهدي جواد»: «ومن المدرسة إلى ساحة المدينة تموّجت صورة الفتاة، طيفاً أو ضربة شمس، أتكون هي التي هجس بها وهماً قبل أن يغادر»(١).

يستأثر ضمير الغائب بأغلبية السرد في الرواية ،في حين يظهر ضمير المتكلم عبر الحوار وكتابة المذكرات والتناص بدرجة أقل، حيث تميل الذات لسرد وقائع ماضيها، أو تبدي وجهات نظرها، أو تناقش وتطرح رأياً . أما ضمير المخاطَب فلا يظهر إلا لماماً، متخذاً شكل حوار داخلي للشخصية مع ذاتها «مونولوج Monologue» . إن أنماط الضمائر السابقة فيما تعبّر عنه تؤسس غياب الشخصية الروائية عن مسرح الفعل، ولا يتأطر هذا الغياب بالسارد/ الراوي التقليدي العالِم بكل شيء، إنما يوظف السّارد العالم إلى جانب الشخصيات الأخرى ليضاعف دلالة غياب الشخصية وانعدام قدرتها على التأثير.إذ إضافة لاستئثار «الراوي/ ضمير الغائب» بثلثي السرد، فإن جلّ السرد الأخير الخاص بضمير المتكلم يختصّ بالكشف عن ماضي الشخصية وحضور هذا الماضي واستمرار تأثيره في حاضرها. بل استحواذه عليه، فالشخصية مستلَبة ومحاصَرَة بماضيها، ذهنياً وسلوكياً، وهي تروي رحلة اغترابها وضياعها، إن الذات كما تتبدى في ضمير المتكلم غائبة عن الحضور، وهي حين تروي، فإنما تروي تاريخ

١) وليمة لأعشاب البحر. ط ١ بترا للطباعة والنشر. دمشق سوريا ١٩٩٥ ص ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استلابها (مهيار، مهدي، فلة، لالا فضيلة)، وتصوغ أسئلتها الحائرة، أو مسيرتها التمردية المنتهية بالموت والغياب (بشير الحاج علي).

ومن الأمثلة على ذلك قول «فلة» : «أنا أرملة تؤجر غرفة في بيتها لتعيش، هذا البيت يسمونه نزل المشارقة، لكنه ليس بانسيوناً للدعارة كما وسموه، قبلك جاؤوا إلى هنا.. فلسطينيون ومصريون وسوريون وعراقيون، تصرفوا بحرية وطلاقة، عشت معهم زمناً لكنهم تكشفوا فيما بعد عن خسّاسة ونذالة، ووصموني بالقحبة والقوّادة..»(١)، وتقول «لا لا فضيلة»: «بعد موت سي العربي رفضت الزواج، قلت أكرس حياتي لتربية أولادي، إخوتي قالوا: إذا لم تتزوجي لن ترحمك حجارة الناس، الزوج غطاء وحماية، زوجوني من يزيد ولد الحاج مرغمة، السعادة ليست مهمة، الشرف هو المهم، الحمد لله نحن مستورون يا ولدي..»(٢)، ويقول «مهدي جواد»: « وأنا في الثانية عشرة مات أبي، أمي تزوجت من رجل قاس كان يعمل حمالاً في السوق، كان يعود مخموراً في أخريات المساء وليس في جيبه شروى نقير.. بوحشية كان يضربها، بقبضته وبالعصا، وأمي كانت تُعول وهي تطوقني خوفاً عليّ.. أحياناً ينزعني من أحضانها ويقذف بي خارج البيت، تلتقطني أمي من وحل الزقاق..»(٣).

أما ضمير المخاطب فيتصل بالحوار المعني بكشف دواخل الذات والتعريف بها، أو لمخاطبة الذات ذاتها الضائعة التائهة من مثل حوار «مهدي»مع ذاته: «زمانك انتهى بين فراراتك واختباءاتك في أوكار بغداد والبصرة والعمارة والحلة والناصرية..»(٤) «أيها اللاشيء العائم والفائض عن حاجة العالم..»(٥) وأيضاً «المنفى اغتراب جديد يضعك وجهاً لوجه أمام نفسك،

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ٥١ .

٢) المصدر نفسه . ص ٣٩.

٣) المصدر نفسه . ص ٧٨.

٤) المصدر نفسه . ص ١٦.

٥) المصدر نفسه . ص ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنه يضعك أمام المرآة..»(١) هنا لا يعزز ضمير المخاطب حضور الذات بل يؤكد غيابها، وضبابيتها وأحاسيس افتقاد الجذر والانتماء وصلابة الداخل، إنه حوار الشخصية المغتربة عن ذاتها الباحثة عنها في المسافة بين الحلم الذي تشظى والواقع المحاصِر والمهدد.

وهكذا فإن استخدام الضمائر المختلفة بتنويعاتها أكّد غياب الذات عن فعلها وانفصالها عن مسارها الذي تريد، فأحداث الماضي المروية عبر ضمير الغائب وضمير المتكلم تبدو وكأنما قد صاغتها قوة قدرية مبهمة على هذا النحو الفاجع رغماً عن إرادة الشخصيات حيث لم تفلح مجابهتهم البطولية في ردّها، وضمير الغائب «المتقَصّد هنا» يحمل دلالة تغييب هذه الشخصيات عن الأسباب الفاعلة في حياتها ومصادرة حقها في الفعل والحركة، فهي لم تملك سوى الحلم الكبيرالطوباوي «مجتمع العدالة والاشتراكية/ تمرّد الأهوار»، والحس البطولي الوطني « ثورة الجزائر / فلة وسي العربي» في حين كانت الأمور تُسيّر بإرادة من لم يملكوا الحلم الكبير، الذين فكروا بأمجادهم الشخصية الفردية «يزيد ولد الحاج، بوخروبة، السلطة السياسية الحاكمة في العراق» فهؤلاء هم الذين يصوغون الحاضر، وهم الحاضرون، وأمام غياب الشخصية الثورية الطامحة للتغيير يتجلى الحضور المطلق للنقيض : السلطة السلفية والقامعة «ذلك أن اللحظات التي يختطف فيها التاريخ لصالح القوى الجديرة بالحياة كانت **قد مضت إلى غير رجعة**»(٢) وإطلاقية السلطة واتحاد رموزها تلغي الآخر «كان الجنرال الكلي القدرة يوطد سلطته من خلال حلفه التاريخي مع العسكر وأعوان رأس المال ورجال الدين.. **أنا الله على الأرض.. أنا الشعب**»(٣).

– الزمن

تنقسم فصول رواية «وليمة لأعشاب البحر» حسب فصول السنة الأربعة؛ الخريف، الشتاء، الربيع، الصيف، وينقطع تراتب هذه الفصول بعد فصل الربيع ، إذ يفصله عن الصيف

---

١) المصدر نفسه . ص ٤٣.

٢) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ٢٤.

٣) المصدر نفسه . ص ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أربعة فصول أخرى هي : الأهوار. الحب، نشيد الموت، ظهور اللوياثان. تراوح الفصول بين الماضي والحاضر، إذ يبرز الماضي فيها عن طريق الاسترجاع والتذكر، أو تستدعيه أحداث مشابهة تحصل في الحاضر..لذا كثيراً ما ينكسر الزمان الحاضر بدخول الماضي، مما يعنى أن الأحداث ليست متراتبة دائما في هذه الفصول(كما سنوضح في تحليل بنية السرد) وبالرغم من أن أحداث الماضي تسيطر على نصف السرد تقريباً، فإن حضورها في النص أعمّ وأعمق دلالة مما يجعل النص موجّهاً لإضاءة الماضي بشكل أساسيّ. فالماضي/ الحدث، والماضي/القيم الأبوية يكاد ينطق عبر الأحداث المستدعاة بالذاكرة، أو المسرودة سرداً تقريرياً – كما في فصلي الأهوار ونشيد الموت – أو الأحداث اليومية المعبّرة عن سلطة الماضي وسطوته المستمرّة في الزمن الحاضر. إن الشخصيات الرئيسية في الرواية تبدو محاصرة ومأسورة بماضيها (فلة، مهدي، مهيار، لا لا فضيلة)، والموازاة بين حدثين ماضٍ/ وحاضر بينهما شبه كبير يؤكد دلالة استمرار الماضي في الحاضر «مشاهد العنف في العراق، ومشاهد العنف في الجزائر»(١) ما جرى لشخصية «الإيزرقاوي» في العراق(٢) وشخصية «عمر يحياوي» في الجزائر(٣)، هروب «مهيار و«مهدي» من العراق مجبرين وطردهما بعد ذلك من الجزائر. بل إن النص يسحب حضور الماضي على المستقبل باستخدام صيغ الفعل المضارع بكثرة «ترهين الماضي» بالإضافة إلى الفعل المضارع الدال على المستقبل «الاستشراف»، وعبر الاستشراف نكتشف امتداد اغتراب الشخصية وضياعها باستمرار حضور الماضي، فالأفق المستقبلي لا ينفسح عن احتمالات مضيئة بقدر ما يشبي بتواصل الاغتراب والتشرد عن الحلم وعن الوطن وعن الفعل يقول «مهدي جواد»: «وقل تحت هذا الليل لا شيء سوى صفير القطارات والبواخر ودويّ إقلاع الطائرات، هذه الأصداء وحدها التي ستدوي إلى الأبد كالرياح في صحراء القلب.»(٤)، ومما يؤكد الدلالة السابقة زمنية الفصل المعنون بـ«ظهور اللوياثان». فهذه

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ٣٥١–٣٥٣.

٢) المصدر نفسه . ص ٢٥٩–٢٦٣.

٣) المصدر نفسه . ص ٢٦٣–٢٦٧.

٤) المصدر نفسه ص ٥٨ وأيضاً ص ١٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصية الرمزية تزامن حضورها باندحار «انتفاضة الأهوار» وأُرّخت في الرواية ببداية الثلث الأخير من القرن العشرين، إلا أن الفصل المخصص لوصف ظهورها الأسطوري يروى بزمن المستقبل «كالفطريات سينبت، بعد أن تقذفه الريح الصفراء الجائحة على سطح الأرض الصالحة كمزبلة لإنبات كل أنواع الشوكيات والخبازيات.. سيولد حاملاً في دمه نسغ هذه النباتات على شكل قنطور أو لوياثان.. لكنه بعد أن يخرج من غبار الصحراء زاحفاً نحو المدن، سيعبر أطواراً من التحوّلات العضوية..»(١).

يستمر السّرد بالشكل السابق ليشمل الفصل بكامله، مما يدلّل على الاستمرارية الزمنية لسطوة هذه الشخصية التي حكمت البلاد مكثفة دلالات انحدار الإنسان إلى الهاوية الحيوانية وانتفاء العقل والحرية وسطوة الخوف والجهل «.. هكذا سيسقط ذلك الكوكب العربي المنبوذ والأرض تحت أمواج اجتياحات وأعاصير لا صلة لها بالعصور الحديثة.. تحت ظلّ هذا الدمار العظيم والهيكل الخرع والسلالات التي خبا وميض نجمها.. سيفاجئ عبيد الله الكلبي نفسه حاكماً فرداً ممجّداً ومهاباً بين فسحة الحلم واليقظة، لا يجرؤ على اعتراضه أحد في عصر الرعايا والمملوكين والمفتونين»(٢).

– السّرد

لا تترتب أحداث رواية «وليمة لأعشاب البحر» باتساق زمني، بل يسودها التقطّع ، فلا نحصل على ملابسات الحدث ومترتباته كما حصلت في الحكاية، إنما نلمّ خيوط الحدث الموزّعة باسترسال قراءتنا للنص، وتتمم خلخلة هذا الترتيب بالاسترجاع حيناً والاستشراف حيناً آخر، أو بتداعي الأفكار والهذيانات والتفريعات الحكائية التي تنتقل بنا من حكاية جزئية إلى حكاية أخرى على هامش الأحداث المتنامية في الرواية، أو بتناوب حدثين ينتميان إلى زمنين ومكانين متباعدين. بالاسترجاع نقف على ماضي الشخوص حيث تتكشف لنا مواقفها

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ٢٢٥–٢٢٦.
٢) المصدر نفسه ص ٢٣٠–٢٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه الأحلام/ الكوابيس يتحول فعل الطيران الجميل إلى سقوط مريع، وتعاني الشخصية أحاسيس المطاردة والحصار والتهديد بالموت والقتل: «أطياف ملوّنة وأحياناً شبحية وطيور ، ثم فجأة غابة كثيفة متداخلة ، الظلام شديد وهو يكاد يختنق، فجأة سدّ من الكلاب فتحت أشداقها وراحت تعوي بشراسة وتهاجم..»(١)، وفي مشهد آخرعقب مواجهة «مهدي وآسيا» لبعض المتسكعين يجري هذا الحوار:

«– انظري إلى السماء كم هي شاحبة وسوداء. كان يرى السماء مغطاة بأشباح ملايين الطيور السود.

– أوه، ما الذي جرى؟

– ألا ترين الأشباح؟

وطوّقته: أنت تهذي، دعك منهم.

– لا، بل أرى ما وراء الأفق.

– ماذاوراء الأفق؟

– أشباح ، أشباح الطيور السود.»(٢).

إن الأحلام/ الهذيانات تكشف الاهتزاز العميق لروح فقدت الأمان(٣) وحوصرت عارية وحيدة بوسائل تعذيب وقتل بطيء، وإذا ما كانت الشخصية تحاول أن تبدو منسجمة وطبيعية في صحوها فإن الحلم يكشف استحالة المحاولة لذات دمّرها واقعها واغتربت عن هاجس حريتها وتحققها.

– اللغة

تعبّر لغة رواية «وليمة لأعشاب البحر» عن انقسامات وصراعات عالمين متناقضين ، عالم منتصر/ الماضي/ السلطة القمعية/ القيم السلفية. وعالم ملاحق، مهزوز يحاول الثبات حيناً

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ١١٠.

٢) المصدر نفسه. مصدر سابق ٣٥٣.

٣) المصدر نفسه . الصفحات١٣٥،١٣٦،٣١٢،٣١٤،٢٣٢،٣٣٥،٣٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعلن الهزيمة حين تشتد الصدمة، إنه وعد التغيير والثورة السياسية والاجتماعية المنكفئ والمكسور.

تعكس اللغة هذا التناقض وهذا الصراع، فاللغة التي تصف «ظهور اللوياثان» رمز القمع والتخلف والتراجع الحضاري والفكري، لغة « شبه سريالية» (١) تمتح من أجواء الأسطورة واللامعقول والعوالم الغرائبية والطقوس القديمةوالحكايات المقدسة،وتقيم تناصاً مع قصة تراثية مشهورة هي قصة ميلاد النبي محمد: «كما ستتحدث أمه في الليالي السحرية الغامضة عن يوم مولده، كيف رأت جناح طائر أبيض مسح على فؤادها فأشاح الرعب عنها والوجع، ثم التفتت فإذا هي بشراب أبيض يشبه اللبن، وكانت عطشى، فشربته، فأضاء لها نور عال.. ثم ترى وهي تحت أمواج الضياء علماً من سندس على قضيب ياقوت وقد انتصب بين السماء والأرض، فوقه اتقدت نار بلغت عنان السماء، فإذا قصور الشام تشتعل ناراً وحرائق...»(٢).

إن هذه اللغة المشبعة بالتراث الغارق في الحكايا والخرافات تعكس دلالتين؛ فهي من جهة تكرس لا معقولية هذا الوجود الأسطوري في العصر الحديث، عصر ازدهار العلوم حاملة الإدانة له «في ذلك الزمن الغريب الخارج من اللامعقولية عن تقاويم الفصول ، سيحدث ذلك الشيء الرهيب المخجل للعصور والبشر..»(٣)،وتبين، من جهة أخرى أنّ هذا الوجود غير الطبيعي والخارج عن المعقول والمصاغ تاريخه بالأسطورة، يلقى الرضا من لدن الشعب المستغرق والمؤمن تماماً بالخوارق والمعجزات والأساطير.. يقودنا هذا للغة الدعاء والابتهالات الشديدة الصلة بالآيات والأحاديث والقيم المستوحاة منها، التي تغدو سلاحاً قوياً في يد «الحاج محمد» و «يزيد ولد الحاج» فتعلو أصواتهما مهددة لاعنة، مكرسة صورة مصغرة للحاكم المطلق، مخترقة فضاء الآخرين (غرفة مهدي جواد، بيت لالا فضيلة).

---

١) محمود أمين العالم. البنية والدلالة في القصة والرواية العربية المعاصرة. بدون طبعة. دار المستقبل العربي . القاهرةج.م.ع ١٩٩٤ ص ٧٩.

٢) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ٢٢٧.

٣) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص٢٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في المقابل تتشكل لغة أخرى مفارقة للدلالات السابقة ومناقضة لها، فالشخوص المعبرة عن التغيير في الرواية، حتى في لحظات هزيمتها، تتكلم لغة مغايرة، ومن ذلك اللغة الشعرية التي تستوحي مفرداتها من الطبيعة فيما يتعلق بعلاقة «آسيا ومهدي» فاستعارات الطبيعة الطلقة والمنفتحة للتعبير عن الرغبة والحب، تعود بالحب إلى أصله؛ التفتح الحيّ للإنسان ورغباته المشروعة، إن لغة الجسد الواضحة تصدم وعي اللغة السابقة المسيجة بالتحريمات(١)، ولقاء الحب يصطدم بجدار التقاليد،يقول «مهدي جواد»: «انظري كم نحن محاصران كجرذين داخل الجدرن، لماذا لا نسير داخل عيونهم الحادّة»(٢).

ويتضح هذا الصراع أيضاً في التقابل بين اللغة الصادمة للوعي التقليدي، ولغة هذا الأخير في محاضرة «مهيار» لطلبته في مادة الفلسفة، فاللغة إذ تحاول خلخلة ركود وطمأنينة الوعي التقليدي بالحوار والمناقشة تواجَه بالصّدّ والرفض ليتحوّل الحوار إلى مشادة بالألسن والأيدي(٣) وفي النص تُكسر اللغة التقليدية المعنيّة بالوصف، والدائرة حول المعنى دون أن تصل إليه، بالتعبير الصريح عن الموقف دونما حرج أو حذر، ولغة «فلّة» الصريحة والجريئة والجارحة خير مثال على ذلك، تعبر «فلّة بو عناب» عن حالات انكسارها وخذلانها مخترقة طوق حصارها، عبر الهذيانات والشتائم الجنسية وكشف فضائح الماضي..(٤) فالهذيانات وشتائم الشارع الجنسية الفاضحة (لغة متسكّعي الشوارع)، وقد لجأت إليها معظم الشخوص في الرواية، تعرّي اللغة الوصفية المنافقة (لغة الحاج محمد ويزيد ولد الحاج) ذات الخطاب السلفي المتعالي على هموم الإنسان الحقيقية، وتكشف عن شخصيات مهزوزة مخصية، مغتالة من داخلها، أو عدوانية عنيفة يغلّفها الجهل ويسيّرها الشبق ورائحة الأنثى (الصيد)، وهنا كان توظيف اللهجة الجزائرية الدارجة يعزّز المفارقة والمسافة الواضحة بين خطاب الواقع الاجتماعي المنفي عن اللغة الفصحى، وخطاب الواقع السياسي الذي كرّس هدف التعريب وتعليم

---

١) المصدر نفسه . ص ٣٦٩.

٢) المصدر نفسه . ص ٥٤.

٣) المصدر نفسه . ص ٣٠٠.

٤) المصدر نفسه . ص ٩٨، ١٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصحى لتسريب القيم التي يريد.

ويأتي توظيف التناص في سياق آخر، فمذكرات المناضل الجزائري «بشير الحاج علي» المعتقل من قبل سلطة «بومدين» تدعم موقف التحدي والمواجهة، وتكشف تشابه لغة القمع والاستبداد بتقاطعها مع حكايات أخرى مختلفة الزمان والمكان (مذبحة الأهوار).

إن الصراع والتقابل بين اللغتين يتخذ شكل الصراع السافر والتحدي «علاقة مهدي وآسيا» ، ذلك أن التعبير الصريح عن الاختلاف على مستوى الفعل ومستوى اللغة التي تصفه يحقّق الصدمة المرجوّة منه في عالم الرواية بل وحتى في وعي القارئ المتلقّي، لكن تتضح الغلبة في هذا الصراع للغة القديم على الجديد، إذ غالباً ما يعبر عن انتصار لغة القديم (القمع): بالأسطورة والابتهال ومشاهد العنف، على لغة الجديد (التغييروالثورة): بالهذيان والانسحاب والحالة النفسية السوداوية، فمن يتكلّمون اللغة الأولى محصّنون بالأسطورة والسلطة الاجتماعية والسياسية. ومن يبحثون عن لغة جديدة ينزوون بآلامهم وراء السجون السياسية والاجتماعية والنفسية.

– الشخصيات

تحفل رواية «وليمة لأعشاب البحر» بعدد كبير من الشخصيات، يضيء لنا الراوي حيوات بعضهم إذ تصعد لامعة سريعة ثم تنطفئ كالشهب عبر حكايات كثيرة تتفرّع عن الحكاية الرئيسية، أما حيوات الشخصيات الأساسية فتبدو كموجة تصّاعد حتى القمة ثم تنكسر على شاطئ الحياة، ولأن الرواية رواية انكسار حلم، وانغلاق أفق، واغتراب ذات... فإننا لا نعثر على استمرار الوهج والحضور إلا للرموز المتناقضة مع حلم العدل والحرية والسوية الإنسانية ويُستثنى من ذلك شخصية «آسيا» (الوعد، الحلم)، ويمكن لنا اختزال حركة الذوات تجاه حلمها في العراق والجزائر، ومن ثمّ خيبتها وفشلها في ذلك بالرسم التوضيحي التالي:

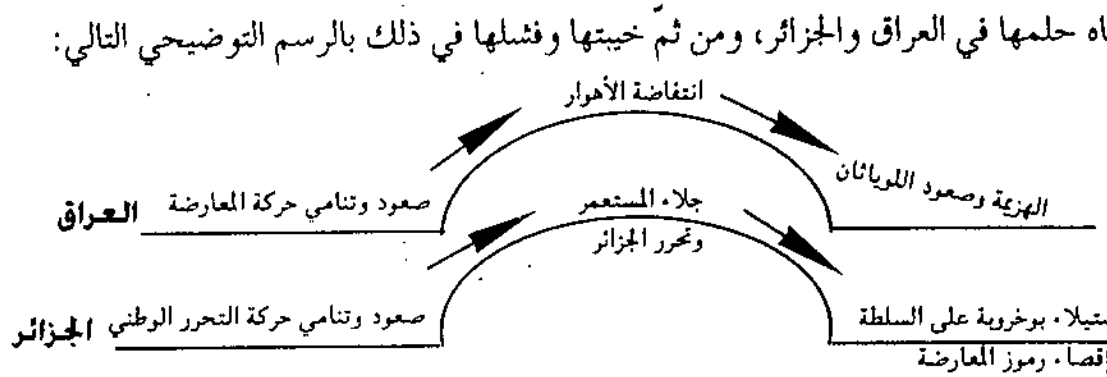

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر في المنحنى السابق أن حركة المقاومة لرموز الظلم قد منيت في كلتا الحالتين بفشل ظاهر، وأن الأمر استوى في النهاية للرموز التي جوربت، والتي دعّمت وجودها بالقمع والقوة(١).ونستطيع تصنيف حالات الشخوص إلى ثلاث؛ حالة الانكسار وتضمّ شخصيات «مهدي جواد» و«مهيار الباهلي» و«فلّة بو عنّاب»، وحالة الصعود، وتتمثّل في شخصية «آسيا الأخضر» ، وحالة السيطرة وتضمّ شخصيتي «اللوياثان» و«يزيد ولد الحاج».

حالة الانكسار

- مهدي جواد

يتكشف اغتراب «مهدي جواد» عن ذلك الإحساس الدائم والملاصق له، بأنه ضائع وفائض عن حاجة الوجود.

عاش «مهدي جواد» في العراق طفولة مهددة مشوّهة، وفي الجامعة انتمى للحزب الشيوعي العراقي، الذي واجه النظام الحاكم، وتعرّض للسجن وهرب منه، ثم خرج بجواز سفر مزوّر إلى الجزائر، وفي العراق تعرض الفصيل المسلح للحزب الشيوعي العراقي لتصفيات ومذابح تسهب الرواية في وصفها .

لقد ارتبطت تجربة «مهدي جواد» السابقة بحلم التغيير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، حلم العدالة وبناء الوطن الجديد بقيم جديدة وأسلوب حياة جديد. وأيا كانت تجربة الكفاح المسلّح في الأهوار رومانسية أو ساذجة أو انتحارية، فإن فشلها عنى له تهدّم حلمه الطوباوي وموت أصدقائه وانفصاله الأبدي عن أرض الوطن والعائلة، فبالخروج من الوطن حصل اقتلاع الجذر، وبتشتت الحزب وإبادة قوته المسلحة، هزمت مثُله وقيمه ومظلة انتمائه «كان ناجياً من العاصفة، لكنه كان محطماً وطافياً كزورق قذفه الموج بعيداً..»(٢)، يخاطب مهدي جواد نفسه «أيها اللاشيء العائم والفائض عن حاجة العالم»(٣).و في الجزائر،

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص١٥.

٢) المصدر نفسه . ص ١٥.

٣) المصدر نفسه . ص ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطن المليون شهيد، حيث سيعمل مدرساً للغة العربية، يصطدم بالعلاقات والقيم ونتائج الثورة، نراه يستمع لمحذورات «الحاج محمد» الذي استأجر غرفة لديه، مفكّراً: «لا بدّ أن بلاد المسلمين نسخة طبق الأصل وجميع مدنُ العرب تحمل اسماً حركياً للسيدة المقدسة مكة»(١). وفي المدينة سمع ورأى ما أكّد هواجسه: «أوهام الثورة انتهت، هؤلاء الأفارقة متوحشون، مغلقون كالحجارة، بلد زمّيت يحكمه الدين والشرطة وعصابات آخر الليل التي تغتصب وتقتل من أجل دينار»(٢).

يبدأ «مهدي جواد» اللامنتمي، والمحاصَر بالماضي والأشباح السوداء واليائس من وجوده، بإعادة النظر بذاته وقيمه ومستقبله، بعد لقائه الأول بـ «آسيا الاخضر»، يكتب في مذكراته «ينبغي التأكد، فيما إذا كانت آسيا الأخضر تشكل ميلاً في حركة اتجاه البوصلة..»(٣). لكن هل تنجح هذه المحاولة، مع كلّ الضغط النفسي والانشراخ العميق الذي يعانيه؟

يحاول «مهدي جواد» في مستقبل علاقته بـ «آسيا» أن يخطو خارج انغلاقه على الماضي وعلى ذاته، مقاوماً إحساسه بالموت والنهاية وانعدام القيمة. وفي مذكراته، يصوغ سؤاله عن مستقبله بهذا الشكل «هل باستطاعة الحب أن يتجاوز الحالة، وهل تأسيس حالة حب على نحو صحّي ضد عالم النفي اللاعقلاني ينقذ العالم والنفس..»(٤). إن ذاته المخرّبة من الداخل بإحساسها السوداوي، الذي يقودها لهاوية الانتحار، تحاول أن تقاوم خرابها بتجربة الحب الخلاق المتحدي للقيم السائدة، السائر لتأسيس فضاء حريته بعيداً عن مملكة التشويه والاغتراب، وأثناء مقاومته لكوابيسه الداخلية، وهذياناته وتداعياته المرتهنة للماضي المقموع والمهان بشدة، كان عليه أن يقاوم حصاراً جديداً سيفرض حوله، هو الغريب عن الجزائر والحامل للقيم (الهدامة) ،فكل ما في الجزائر يشعره بالغربة: النظرات المعادية، والقمع المفروض، وحصار

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ١٧.

٢) المصدر نفسه . ص ٢٩.

٣) المصدر نفسه . ص ١٨.

٤) المصدر نفسه . ص ٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلاقة بـ «آسيا» «الرجل والفتاة سجينان داخل الغرفة وداخل جســـديهما»(١)،وما يطرق سمعه من عبارات معادية «على الغرباء ألا يرفعوا أصواتهم في بلادنا »(٢)، وبسبب من ذلك كان «مهدي جواد »ملاحقاً بتوقع الطرد والنفي والإبعاد وافتقاد الأمان وحالة الدفاع عن النفس (٣) .

لقد أمدته التجربةمع «آسيا» برؤية جديدة للحياة، حيث يكتب في مذكراته «زمن جديد يطلع، نجم ساطع في ليل، امرأة العصور الجديدة التي حلمت بها مذ كانت الدنيا سديماً والعالم هيولي، حيث لا حب لا توجد حقيقة، عدم الكون وعدم الحب شيء واحد»(٤)، وبطاقة الحب يحلم «مهدي جواد» بتأسيس حياة مع «آسيا»، لكن هذه الرغبة تتداخل مع إحساسه بعبثية نضاله السابق وعبثية التغيير في المجتمع العربي، ومخاوفه العميقة من تفشي حالة العبث «كانت الحالة للرجل الذي توهم أنه ناضل وخسر، هي: هل ينتحر أو يحيا.. سيسأل نفسه في لحظة أخرى عندما يكون مطوّقاً بذراعي «آسيا الأخضر» إن كانت خلاياه ما تزال تصلح للحياة أم أنها انعطبت إلى الأبد»(٥).

إن ماضي «مهدي جواد» (الهزيمة) حاضر دائماً في حاضره، بل وفي أكثر لحظاته خصوصية، فيحاصر داخله وينعكس على علاقته الحميمة، مما يجعله دائماً بادي التردد والتوجّس والتشاؤم، ينظر إلى «آسيا» الشجرة الممتدة الجذور في أرض «بونة» ويقارنها بذاته المنفيّة فلا يرى المستقبل. غدت هذه المشاعر والأفكار هاجساً داخلياً لا يهدأ حتى في الأحلام: «بدا في العراء وحيداً منبوذاً، بلا إله ولا أرض ولا رحم»(٦)، ينغّص عليه اللحظات

---

١) وليمة لأعشاب البحر. ص ١٣.

٢) المصدر نفسه . ص ٢٩.

٣) المصدر نفسه . ص ١٠٧.

٤) المصدر نفسه . ص ١٧٢

٥) المصدر نفسه . ص ١٨٢.

٦) المصدر نفسه ص ١٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجميلة ويعتّم القادم، ويجعل إمكانية الحب المستمر الوائق أمنية عصية: «سيكتب في اليوميات شيئاً عن تلك الندّاهة اللعينة التي تطارده أبداً خارجة كالدود أو العلق من أعماق وحل المستنقعات لتلتصق به معكّرة صفاء دمه»(١)،هدا الارتهان للماضي سيشوش ويلاحق علاقته بـ«آسيا: «كان الآن تحت سطوة هذياناته وشياطينه.. وكانت آسيا الأخضر تحت سطوة شقاءاتها، فريسة حالات رجل أخرق ينحدر من قمم أفراحه الجميلة بغتة إلى الوديان المظلمة»(٢)، «وما كان يرى من جحيم جميل سوى حياتهما المحمولة على أساسات الريح، حبهما المتدفق كالجرح وكأمواج البحر في وقت عاصف، هو الذي ينزف وهي الطالعة على العالم كالعاصفة»(٣) «في اللحظة التي بدأ يراهن فيها على آسيا الأخضر، كان هناك خفقان سرّيّ رماديّ الملامح، ينبئ بخسران قادم»(٤).

غدت «آسيا الأخضر» الملاذ والوطن والرحم ووعد الاستقرار والحياة الهانئة لـ «مهدي جواد» المنبوذ والمقتلع، لكنه بمحاولته النجاة بحلمه وحبه، وتنظيره للحياد يصطدم بالآخرين الذين لا يريدون الحياد، ويفجأ ذات نهار بقرار الطرد ومغادرة الجزائر بتأثير وشايات المدرسين العراقيين و«يزيد ولد الحاج»، ليتجذّر حدسه الداخلي بأنه كان يبني قصوراً من رمال ، وأن ما خاله حياة جديدة كان حلماً انتهى بقرار من السلطات «كانت حياة «مهدي جواد» في تلك المدينة مسكونة بالفرار وأن كل ما يراه ويحسه ويشمّه يجري كأنما في حلم أو يرى من نافذة قطار الشرق السريع»(٥). وفي حواراته مع «آسيا» تتضح رؤيته لنفسه ومستقبله، حيث كان

---

١)وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق . ص ١٨٧.

٢) المصدر نفسه . ص ١٨٨.

٣) المصدر نفسه . ص ١٨٣.

٤) المصدر نفسه . ص ٣٣٠.

٥) المصدر نفسه . ص ١٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يردد « أنت يا «آسيا» جميلة وفتية مفعمة بأحلام ملوّنة ، أما أنا فرجل مكسور حطمت سفينته عاصفة فتاه في البحر.. أعماقي رماد.. إنما أنا رجل هالك يا عزيزتي» (١). هذه النبوءة تتحقق في المصير الذي صار إليه مهدي؛ التشرد عبر مدن غريبة ومعادية مطارداً بإحساس الخوف والمباغتة.. حين يغادر «بونة» «المدينة الفارّة للأبد»(٢) وقد رأى بعض دارسي الرواية(٣) أن «مهدي جواد» مات منتحراً بدلالة المشهد الأخير في الرواية «وباندفاعة طائر يقذف بجسده إلى البحر»(٤) رغم وجود دلائل متناثرة في النص تشير إلى مغادرته «بونة»، إلا أن كلتا النهايتين تحملان دلالات متشابهة ، فالتشرد والضياع للذي فقد جذوره ومثله الأعلى وقيمة وجوده، هو انتحار وموت، إنها الموجة التي تصعد حاملة الوعد ثم تتكسر على شاطئ الواقع المضاد للإنسان والحياة. هكذا تبدّت حياة «مهدي جواد» المنتهية بالهزيمة الفاجعة والهذيان وكوابيس الحصار والقتل والدم والطيور المقتولة ورغبات التجاوز والانعتاق الموؤدة هذه الشخصية التي تتكرّر ملامحها في مجموعة «غسق الآلهة» حيث يتضافر السياسي والاجتماعي لقتل إحساس الفرد بذاته وقدرته على التأثير والتغيير مما يتمظهر في حالات الحبّ والتحقّق ليترك الفرد نهباً لأحاسيس الخواء واللاجدوى واللاانتماء، فريسة للكوابيس والفزع. «رغب أن يطير معها، لكنه أحس أنه غير قادر على الطيران، فتعثر وانكبّ على وجهه وقالت المرأة/ الطائر : لماذا تبكي؟ سآخذك إلى بلاد الطيور ، لكن الانهمارات التي تدفقت من أفق لا مرئي على شكل جنازات مرفوعة أو سابحة في الفضاء، والتي ما لبثت أن تحوّلت إلى زوارق وسيارات زرقاء مليئة بالقتلى والأصوات، قطعت طيوف الرحيل السعيد والمرأة التي غابت»(٥).

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ١٨٣.

٢) انظر:محمود أمين العالم، أربعون عاما من النقد التطبيقي، ص:٧٢ .

٣) المصدر نفسه . ص ١٨٢.

٤) المصدر نفسه . ص ٣٧٦.

٥) المصدر نفسه . ص ٣٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- مهيار الباهلي

«مهيار الباهلي» رفيق «مهدي جواد» في رحلة الكفاح، وقد شارك في تجربة «الأهوار» الدامية في العراق، وحين يلتقيان في الجزائر يواجهان مصيراً متشابهاً.

تبدو شخصية «مهيار» أكثر تماسكاً من شخصية رفيقه، فبالرغم من خوضه لتجربة حرب العصابات في الأهوار العراقية ونجاته وحيداً بين رفاقه الذين قتلوا هناك، فإن أعماقه المؤدلجة والمنظمة لم تهتز، فقد رأى في الهزيمة اندحار موجة من موجات التمرد التي لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد على مرّ العصور؛ منذ ثورة الإسلام الأولى وثورات الخوارج والقرامطة و الزنج ، إلى ثورات القرن العشرين، ولهذا يأتي تفاؤله بجزائر ما بعد الثورة، يقول: «نحن في الأرض المقدسة، هذه الأرض التي فاجأ العرب أنفسهم فيها بالثورة..»(١)، إلا أن «مهيار الباهلي» المحصّن بالنظرية السياسية والفلسفية القادم بآماله إلى جزائر الثورة، يبدأ برؤية ما خفي عنه ويكتشف حقيقة ما تمخضت عنه حرب التحرير عبر حواراته مع «فلة بو عناب» التي شاركت في الحرب، جنباً إلى جنب مع «الطاهر الزبيري»، ولا تني تتحدّث عمّا جرى ويجري بصراحة الخاسرالذي لم يتبقّ له ما يخسره بعد، تقول : «الوطن الذي صار سوقاً ليس وطني، وأنا لا ذنب لي ، لقد سجّلوه في الدوائر العقارية والمصارف باسمهم، العسكر والوزراء وجهابذة الحزب والمخبرون والتجار، ثم طوّقوه بالأسلاك الشائكة والدبابات»(٢). ومهيار المواجَه بهزيمتين ، يحاول أن يبحث عن أسباب الهزيمة محللاً متأملاً. إنه يرى فيما حدث ويحدث عرضاً سببته تراكمات القمع والتعذيب ونفي الإنسان عن ذاته ، أما الجوهر المضيء فهو مختف خلف الغبار(٣) وبهذه الرؤية المتفائلة يحاول «مهيار» تشريح الخطأ والتبشير بغدٍ قادم فهو «الرجل الذي ربّى نفسه ونذرها لتكون أمثولة عصر اجتاحته الأوبئة والخراب»(٤).و«مهيار» الحالم بمستقبل قادم وتغيير ثوري شمولي، الذي يدعوه «مهدي جواد» «مسيو عقل» لانضباطه

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ١٩.

٢) المصدر نفسه . ص ٩-٤ .

٣) المصدر نفسه . ص ٢٥٠.

٤) المصدر نفسه . ص ٣٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit.

وقدرته على التحليل واحتقاره للجسد ومطالبه، والذي «استبدل النساء بالوفاء العائلي، ونقاء المدرس الغريب المنتدب لمهمة مقدسة تنزع نحو وهم تغيير التاريخ وتربية الأجيال الصاعدة»(١)، «مهيار الباهلي» الشاهد الوحيد على مذبحة الأهوار يبدأ بالاهتزاز.

تتخذ الهزة الأولى شكل صدام فكري في المعهد ، تحوّل إلى عراك، فالجيل الصاعد (الطلاب) يرفض طروحات «مهيار الباهلي» حول العقلانية والحرية، ينتمي هذا الجيل للقديم ويصرخ بصوت الماضي الواثق وردّ الفعل الحادّ تجاه فرنسا (الاستعمار والتغريب)، يقول «مهيار» لنفسه بعد الصدمة:«يبدو أننا ننحت جبلاً من الجرانيت بإبرة»(٢). إن إقصاء حلم صعود الإنسان ««لا إله إلا الإنسا»ن(٣) يتبدد بالعودة إلى الماضي (الملجأ والملاذ والهروب)، فـ «الذي تأسّس وترسّخ بعد الانهيار وصراخ عواصف الدم والموت: العودة إلى الموّال القديم – التحاق ذيلي بعربة كاليغولا عبيد الله الكلبي (٤)، هذا الاستسلام للمركب القديم والاغتراب يوقف أحلام «مهيار»، ليبتدئ انهياره بحالات من السوداوية والعزلة والهذيان، مروراً بالعدوانية والعراك فالسقوط في دائرة المرض، ومن ثمّ إلى جسد «فلة بو عناب»: «على نحو مباغت انفجر مهيار .. كبا على جذع شجرة دردار واندفع شهيقه، كان يضرب الجذع الصلب بقبضتيه وهو يهذي عن الدمار والغربة والتوحد والأطفال والثورات المغدورة»(٥)، أما الجنس فقد مثّل في داخله حالة تراجع الوعي وتحطّم المُثُل والسقوط في دائرة العضوية الجسدية المقايضة على المبادئ «الإرادة الوعي ، العقل، المنطق، كل هذا تحوّل إلى نثارات، في تلك الليلة اكتشفتُ رثاثة الإنسان وخرابه»(٦)، وإذا ما كانت شخصية « مهيار» في النص تمثل الأمل في المستقبل – الذي انتفى كليّة في حالة مهدي جواد– وأشواق الإنسان إلى حياة صحية وعادلة بالرغم مما يحيط به من

---

١) وليمة لأعشاب البحر . مصدر سابق . ص ٣٠٨.

٢) المصدر نفسه .ص ٣٠٣.

٣) المصدر نفسه . ص ٣١٠.

٤) المصدر نفسه . ص ٢٢١.

٥) المصدر نفسه . ص ٣٠٣.

٦) المصدر نفسه . ص ٣٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ظلمات، والتماسك وقت الانهيار، من هنا فإن سقوطه يعني سقوط الحلم وانتهاءه والتواطؤ مع الواقع التعس وانتصار اليأس والإحباط. ونهاية «مهيار» تشترك في الدلالة مع نهاية «مهدي جواد» ؛ التشرّد المستمر في دنيا العرب حيث يعتقل بتهمة المعارضة للنظام الجزائري ونشر الأفكار الثورية «وخلال العام الذي يقضيه في «بونة» كاستراحة محارب قبل أن يعتقل ويطرد من المدينة ليتوه فيما بعد مشرداً ومنبوذاً في بلاد العرب الموحلة والضيقة..»(١).

وبذا تكون شخصية «مهيار الباهلي» موجة أخرى انكسرت على شاطئ الواقع المضاد للإنسان، بعدماتمرّدت وقدّمت تجربة في المواجهة المباشرة مع الواقع بمشاركتها في انتفاضة الأهوار، أما الانكفاء الذي تتعرّض له في اغترابها عن وعيها وتلاشي جذوة تحدّيها وصمودها، فيشير إلى حجم الأذى الذي تتعرّض له الذات حين تقرّر أن تكون ذاتها. إن مقدار ما تعانيه الذات هنا بفعل القمع السياسي والاجتماعي يفقدها شرط وجودها الإنساني (الوعي)، ويخرّب أعماقها للأبد.

- فُلّة بو عَناب

تعيش «فلة بو عناب» طفولة مهددة أثناء الاستعمار، وإذ تنطلق الثورة، وهي في ميعة الصبا، تقرر الانتساب لها، ومع مناضلات ومناضلين تنذر حياتها للكفاح المسلح وتشارك في عدة عمليات للمقاومة ، حالمة مع غيرها ببناء جزائر جديدة حرة يسعد فيها الفقراء وكل من قدّموا العون للثورة. ومع بداية الحكم الوطني ورحيل الاستعمار تدهمها المفاجآت ..تعود الجزائر إلى العصور القديمة ؛ القمع الذكوري والقمع السياسي وانعدام العدالة الاجتماعية والاقتصادية ، فقد كان مطلوباً منها العودة إلى البيت حيث المكان الطبيعي للمرأة، وترك مهمة التفكير والتدبير للرجال « والآن هي هذه الفلّة الجميلة والمتألقة.. لقد أخذوا الوطن وأعطوها البنسيون.. بو خروبة والوزراء ومسؤولو الحزب والضباط والمؤتمرات وقيادات النقابات، تفكر

---

١) المصدر نفسه . ص ١٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عنها.. أما هي فتفتح ساقيها ثم ترفعهما لتهصر بهما ذكر العنكبوت»(١)، هذا التراجع الاجتماعي طال النساء الأخريات اللواتي ناضلن مع «فلة» في حرب التحرير «الثورة الوطنية انتهت والرجال صاروا في مواقع السلطة والتدبير والمسؤولية، وها نحن اللواتي قاتلنا في الجبال والمدن نتحوّل إلى الخدمات المنزلية، أنا مع الاف النساء صرن إلى ما يشبه المومسات أو الزوجات الصامتات المطيعات للرجال، انتهى دورنا الاستثنائي فاستدرنا إلى حيث وظيفتنا الأساسية» (٢) وهذه الرّدة تتعمق أكثر برؤيتها لما آل إليه المجاهدون والمناضلون، والذين قدّموا كل ما يملكون أثناء الثورة . إن حلم الثورة المرتهن بالتغيير الاجتماعي تبدّد وامّحى «الآن قل لي يا سي مهيار، ما الذي ناله هؤلاء ، أكواخ الصفيح ، الذيزنطاريا، والبلهارسيا، القمل وروث الحيوانات والتشرد في زنقات المدن بحثاً عن الخبز في صناديق القمامة ومخلفات المطاعم.. الخدمة كالكلاب في الفنادق والمقاهي والخمارات.. كيف حدث هذا ولماذا؟»(٣). وفي السوق ترى «فلة» إله المال يتجلى في حمّى الشراء والبيع والمساومة، أما السلطة فقد اعتلاها الذين لم يحاربوا، وفي الظل الذي أقصيت إليه «فلة» تحاول أن تعيش وتجد خلاصها بعد احتراق الحلم، تؤجر غرفة في منزلها «البنسيون» لتعيش منها، وتختار مستأجريها من المشارقة لظنها أنهم أكثر تحرراً من الجزائريين، وحين يؤذونها ويروّجون عنها الشائعات، تتحول إلى أنثى العنكبوت، تستدرجهم لمصّ دمائهم. عالم «فلة » انحصر في بيتها وجسدها/ رغبتها «أما وطني أنا فهذا البنسيون وهذا الجسد»(٤) «وبعد أن تكتشف الخدائع الكبرى والصغرى ، فيتمزق حلمها بوطن الحرية والعدالة والحب، ستستسلم لضربة القدرة الأقوى من مقاومة حلمها فتنزوي بعيداً عن العالم الكبير في حيّ جانبي في أقصى بلاد الشرق الجزائري ، تصطاد هؤلاء المشارقة الأوباش»(٥) وبعيداً عن الحلم الكبير تقع «فلة بو عناب» أسيرة جسدها

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ٢٤٨.

٢) المصدر نفسه . ص ١٠١.

٣) المصدر نفسه. ص ٤٩.

٤) المصدر نفسه . ص ٢٤٩.

٥) المصدر نفسه . ص ٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الافريقي المتأجج، وتداوي جراحها بسرد الفضائح «من بين فخذي مرّ كل الغزاة، الأغراب والأشقاء وأبناء الدّم.»(١) إنها بذلك تؤكد معرفتها وكشفها لخورهم وضعفهم، فهي التي فقدت شبابها من أجل حلم اجتماعي جماعي، لا تبالي بهذه الردة الاجتماعية، بل تسعى إلى خرق التقاليد، تدخن في الشوارع وتشتم النظرات المستهجنة بصوت عالٍ «نكاية بهم كانت فلة تنفخ الدخان نحوهم، وإذ يديرون ظهورهم تمدّ لسانها بحركة بذيئة ثم تبصق؛ كل شيء مسموح لهم أما النساء، فليس لهن سوى فتح الفخذين ، يا الحلاليف، ..... تفوه..»(٢).

وتتقاطع شخصية «فلة بو عناب» مع شخصية «مهدي جواد» فكلاهما تعرض لهزيمة الحلم وكلاهما يعيش بلا أمل.يكتشف «مهدي» ألماً سرّياً وراء مظهر«فلة» الواثق الساخر.. «في مكان ما من هذه المرأة شرخ تحاول ستره»(٣) وتوجز «فلة» هذا الشبه « كلانا شجرة عارية، شجرة مجتثة من جذورها ومرمية على سطح الأرض.. نحن مهزومان..»(٤) لقد كانت هزيمة «فلّة بو عنّاب» هزيمتين؛ هزيمة المناضلة ، حيث سُرقت مكاسب الثورة التي ناضلت من أجلها، وهزيمة المرأة التي صودرت انجازاتها، تعيش «فلّة بو عنّاب» على الهامش وعلى حافة الفقر، بردّ فعل على الهزائم، ظاهره اللامبالاة والازدراء لكل شيء، وباطنه الاحتراق والألم الذي لا يهدأ.. وهي حين تقع في دائرة الجسد المغلقة فلأنها لا تملك منفذاً غيره.تحاول «فلّة بو عناب» استدراج «مهيار الباهلي» الذي يسكن بيتها، لإقامة علاقة معها، فقد رأت فيه رجلاً شرقياً يمكن الاستمتاع معه زمناً.. ومع سبرها لصلابته تلجأ للسخرية من فلسفته المتفائلة وأحلامه الطوباوية، وأخلاقه الطهرانية،شاعرة في أعماقها بإعجاب عميق تجاهه. وفيما بعد، تغدو الملاذ والملجأ له بعد أن وقع أسير الحمى والذكريات وتهشّم الحلم والحزن المختزن «لقد غمرته المرأة بالدفء والحنوّ واللذة، أعطته في لحظة الصقيع وتوقف جريان الدم نبضها وحرارة دمه.... وعلى مدى

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق:٢٤٨ .

٢) المصدر نفسه . ص ٧٢ .

٣) المصدر نفسه . ص ٣٤ .

٤) المصدر نفسه . ص ١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشهر الذي تبقى من عمر العام الدراسي، سيظل الباهلي مسحوراً بتلك اللحظة الأسطورية التي استيقظ عليها، بغتة، عقله»(١)، نلاحظ هنا الدّلالة في لقاء «فلّة» بـ «مهيار» عقب انهياره وتوقيته بهزيمته النفسية، إنه لقاء مخذولين وضائعين منفيين عن حلمهما وتوقهما الحقيقي، لقاء ابتدأ بالهزيمة، وانتهى بقرار سياسي حينما طُرد «مهيار» من الجزائر.

حالة الصعود

- آسيا العربي الأخضر

تنهض شخصية «آسيا الأخضر» ابنة الشهيد «سي العربي الأخضر» على النقيض من شخصيتي «فلة » و «مهدي جواد».

تحمل «آسيا» سمات إيجابية، فهي تمثل الجيل الجديد (الحلم) الذي يشيّد الجزائر الجديدة ، ذات الشخصية المستقلّة غير التابعة لا للماضي ولا للاستعمار ، «إنها امرأة عملاقة، جسد في صلابة جذوع الصنوبر ونداوة العشب»(٢) تحلم بالغد الجميل المزهر بعد طرد الاستعمار «آسيا الأخضر المولودة في كهوف جبال بونة الوعرة، الطفلة التي تدمّت بمآسي حرب التحرير كانت تحلم بشموس مضيئة وبشر أنقياء وعالم صحي في عصرالاستقلال المزهر»(٣).

تمتدّ جذور «آسيا الأخضر» عميقاً في مدينتها «بونة» ويظهر هذا التواشج بين الفتاة والمدينة/ الرحم في انتمائها المشاعري لأسرتها ومدينتها «وكما تغلغلت الأسرة في أنساغ دمها، هكذا المدينة»(٤) من أجل والدها الشهيد «سي العربي» ، ترغب بتعلم اللغة العربية وفاءً لذكراه، وتسرد لـ «مهدي جواد» فصولاً من معاناة الشعب ليتفهمه ويغفر له أخطاءه «اغفر

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص: ٣٢٤ .

٢) المصدر نفسه . ص ٢٧٩ .

٣) المصدر نفسه . ص ٣٦.

٤) المصدر نفسه . ص ٢٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهم، أي غريب يتراءى لهم مستعمراً، لم يشفوا بعد من وباء الحرب» (١).

وبعد موت والدها «سي العربي» / الملاذ والمثال الروحي «فقدت الطفلة توازنها مع العالم»(٢) وحين تتعرف على «مهدي» تؤمل فيه صديقاً وأباً بديلاً، ومع تنامي السرد نطل على رحلة الوعي داخل الفتاة، البذرة المهيأة للإثمار والعطاء ، في محاوراتها الطويلة مع «مهدي» تتجه أكثر فأكثر إلى التحديق في شرطها الإنساني الضيق، ومع ابتداء رحلتها نحو ذاتها تصطدم بقيود العائلة وقيود المجتمع، تدرك «آسيا» للمرة الأولى أن الحياة صراع، ومع تفتحها على الحب تتفتح عيونها على ما حولها «لا بدّ أن الحياة غير نقية كما نتصوّرها ونحن أطفال.. والذي يتجلى أكثر عندما نرغب في ممارسة حرياتنا..»(٣). إنها تحاول الإبقاء على الخيط الذي يربطها بالمجتمع، تجبن وتخاف من اختراق القوانين الاجتماعية والعائلية، ففي لقاءاتها مع «مهدي» كانت تختار الأماكن المعزولة، وفي عودتها لا تتأخر عن الموعد المحدد الذي فرضه زوج الأم «يزيد ولد الحاج». إنها تخاف المجاهرة بعلاقتها «تستتر بالظلال والجدران خشية، تسرع خطاها لتخرج من ساحة المدينة وساحة العيون إلى فضاء البحر»(٤) وفي حواراتها مع «مهدي» كانت تصطدم بطرحه الصادم والشمولي وخوفها..«لماذا لا تفهمينهم بالسلوك أنك لست عبدة لرغباتهم، وأن حريتك تخرج من قوانينك الداخلية لا من قوانينهم الدينية العمياء»(٥) أما هي فكانت تخاف إطلاق النار.

وما يلبث هذا الخوف أن يتحول بقوة الحب والإحساس الإيجابي بالذات والجسد والحرية، إلى طاقة جديدة تجعلها تواجه رمز السلطة الذكورية في بيتها وفي الشارع «يزيد ولد الحاج» وتواجه خوفها التقليدي/ تحرر الجسد(٦). في علاقتها بـ «مهدي جواد» تكتشف أنه

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ٢٧٩ .

٢) المصدر نفسه ص ٦٣ .

٣) المصدر نفسه . ص ٢٧٧ .

٤) المصدر نفسه . ص ١٠٦ .

٥) المصدر نفسه . ص ٥٥ .

٦) المصدر نفسه . ص ١٨٠، ٣٤٤، ٣٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليس بديلاً عن أبيها الذي تنتظر عودته، وفي رحلة تحررها تكتشف أنها لا تحتاج إلى أب/ حامٍ فوعيها على ذاتها وانتمائها لغد مدينتها ونجاحها في تعلّم لغتها «العربية» هي الأب الجديد/ الحماية. تواجه الفتاة عبثية «مهدي» وإحساسه باللاجدوى وبضياع جذوره بثقتها بالقادم ورؤيتها المتفائلة «أعرف وتعرف أن هذا لن يدوم، ليس أبدياً»(١) فالمستقبل في رأيها سيشيّد جزائر العلم والعقل ، وهي تحلم بالاستقرار وبالأطفال ولا تريد الحرب «مائة وثلاثون عاماً من الموت.. احفر أية صخرة أو شجرة من وهران إلى عنابة، فلن تلقى سوى العظام ، الآن كفى.. كفى ما قُدّم من الدم والعظام، لقد انتهت الحرب، وبدأت الحياة..»(٢).

كانت «آسيا» تمتلك الأمل بالغد القادم، في حين كان «مهدي جواد» الأكثر خبرة وتجربة لا يرى سوى أفق الحروب الأهلية والمدّ الأصولي القادم وتبدّد الحلم، من هنا يمكننا أن نفهم افتراقه مع «آسيا» الطالعة على الحياة بعيون جديدة، ولمَ لمْ تُعطه علاقته بها إحساس الأمان إذ عاش حصار الواقع الاجتماعي، فالأوطان العربية متشابهة ولا تقدّم لمواطنيها إلا الملاحقة والطرد لذا كان يحلم «أن يجتث من ضلوع هذه المدينة امرأة الحلم: آسيا الأخضر ، يخرجان كالنيزك من مدار سماوات العائلة والوطن والله ونصل الزمان الحاد»(٣) .

تمثّل «آسيا الأخضر» حلم الجزائر الجميل، و «فلة بو عناب» واقعها المؤلم وثورتها المجهضة.

حالة السيطرة

- اللوياثان

خصص الكاتب حيدر حيدر فصلاً كاملاً من رواية «وليمة لأعشاب البحر» لشخصية «اللوياثان» الرمزية عنونه بـ «ظهور اللوياثان» وانسجاماً مع هذه الرمزية، يسرد لنا الأحداث الأسطورية والعجائبية التي رافقت انبثاق هذه الشخصية المرعبة وتحولاتها، مستفيداً من أجواء

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ٢٨١.
٢) المصدر نفسه . ص ٢٤٧ .
٣) المصدر نفسه . ص ٢٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأسطورة الشعبية والحكايا الدينية الحالمة بتجسّد المثل الأعلى على هيئة مهدي منتظر أو نبيّ ملهم. فهذا الكائن المولود من اختمار نباتات صحراوية سامة سيظهر «على شكل قنطور أو لوياثان نصفه الأعلى بهيئة ضبعٍ والنصف الأسفل شبيه سرطان رملي زاحف»(١)، وسيمرّ فيما بعد بتحوّلات ليصبح على هيئة البشر، سيضع لنفسه اسماً «عبيد الله بن أبي ضبيعة الكلبي»، ويتقدم نحو المدن موحياً للعقول المعبأة بالأساطير أنه إحدى الهبات السماوية «وفيما بعد، بعد أن يعتلي عرشه ويوطد ملكه بالقتل والنفي والتجويع، تصبح البلاد تحت سطوته وعيون بصّاصيه، سينْسى أصله الأول وشكله اللابشري»(٢) وهكذا تصاغ الحكايات حول أصله النبوي/ الإلهي وتنشر بين العامة. تتصف شخصية «اللوياثان» بجنون العظمةوالنزوية القاتلة والمغامرة، وتقود الشعب معها إلى مرحلة عبادة الطوطم ممثلاً في الحزب.

إن رمزية هذه الشخصية تكتسب دلالتها في انتسابها–رغم كل ما يحيط بها من لا معقولية– إلى العصور الحديثة وإلى الشرق العربي تحديداً، فهي ترمز بكثافة لاغتصاب السلطة حيث تيولّى دفّة الحكم أشخاص غريبون، ليس عن الشعب فحسب، بل عن الطبيعة البشرية «الأصل الحيواني/ اللوياثان» وتعمق بالتالي مشهد الخوف الذي يرزح تحته الإنسان أمام هذه القوى اللاإنسانية «الدولة القنطورية»، وكذلك بشاعة خنوع الإنسان وتزوير وعيه. والشخصية/ الرمز حاضرة في عمليات الإبادة الجماعية للمعارضة «حكاية قطار الموت ، ومذبحة الأهوار»(٣) وكذلك في شخصية «بو خروبة» وسائر الحكام الطغاة عبر التاريخ؛ الحجاج والسفاح.. الخ «وكانت الدورة القمرية للكوكب العربي تدخل حقبة المحاق مواصلة انهيار الزمن عبر شلالات الدم والانشقاقات الثأرية التي ابتدأت مع خلافة عثمان بن عفان ومعاوية والعباس والسفاح والتي لم تنته بعد بعصر عبيد الله الكلبي ومحمد بو خروبة وسائر السلالة المنحطة التي جاءت بها الصحراء الكاوية وحروب القبائل..»(٤).

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ٢٢٦ .

٢) المصدر نفسه . ص ٢٦٦ .

٣) المصدر نفسه. ص ٢٦٩ – ٢٧٢ .

٤) المصدر نفسه. ص ٣٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ ٠ يزيد ولد الحاج

تمثل شخصية «يزيد ولد الحاج» بكل أبعادها، طبقة التجار الذين أثروا أيام حرب التحرير بتجارتهم غير المشروعة، وكانوا يتمنّون دوام الاستعمار لأنه يدعم مصالحهم. وتظهر هذه الشخصية في تناقض تام وصارخ مع «سي العربي الأخضر» الثائر الشهيد. فبعد موت «سي العربي» تزوجت «لا لا فضيلة» أرملته من «يزيد ولد الحاج» غصباً بسطوة التقاليد الاجتماعية، ليصبح «يزيد ولد الحاج» الرجل المسيطر والآمر الناهي في بيت «سي العربي» الشهيد، يمارس سلطة الرجل الذكورية المدعومة بأمواله، ملوّثاً عقل «لا لا فضيلة» ،منتمياً لقيمة واحدة هي «الفرنك»، داعياً للقيم السلفية في مواجهة قرارات التأميم، ومهرّباً أمواله إلى أوروبا قبل تنفيذ القرارات.

وتتعمق رمزية شخصية «يزيد ولد الحاج» حين يحاصر علاقة «آسيا» بـ «مهدي»، ويتّهم «آسيا» اتهامات لا أخلاقية «كان الألم يصعد في أعصاب آسيا وأعماقها على شكل زفرات ورودد دموية.. الرجل الذي اغتصب الأم والبيت، هذا السيد بسطوة ماله، كان الآن يدمّر أعماق آسيا مكتسحاً ميراث سي العربي ودمه الذي راح هدراً»(١).وتستمد «آسيا» قوة هائلة من روح والدها المحارب تواجه بها «يزيد ولد الحاج» محاولة قتله.. الأمر الذي ينتهي إلى تقزيم حضوره في البيت وانفلات الأولاد من قبضته «فالرجل الذي كان يتباهى كالطاووس في بيت «سي العربي» آمراً ناهياً.. تحوّل الآن إلى قط منهور يتسلل في أواخر الليل بعد أن ينام الأولاد نحو غرفة لا لا فضيلة ليتكور ذليلاً بين فخذيها»(٢) وبالرغم من ذلك ينجح «يزيد ولد الحاج» في إبعاد «مهدي جواد» عن الجزائر وإنهاء علاقته بآسيا عن طريق معارفه ذوي النفوذ في الدولة.

- المكان

يتصف المكان في نص الرواية – رغم توزّعه بلاداً متباعدة كالعراق والجزائر– بسِمات اجتماعية متشابهة، فمثلاً يقترن بممارسات القتل والتهديد والمطاردة وأحاسيس الحصار

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص ٣٢٧ .

٢) المصدر نفسه . ص ٣٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والخوف في العراق كما في الجزائر، حيث تفتح أبواب البيوت ويخترق مكان الإنسان الخاص دونما إنذار(١) ، وفي الشوارع تطارد الإنسان عيون الفضوليين والشرطة ، وتنطلق الشتائم والبذاءات الجنسية(٢)، ويكشف المكان عن حضور إنسان مخترق حتى أعماقه، ما من احترام لخصوصياته «يحس الرجل بأنه مطارد وأن شخصاً ما يتعقبه، رجل لا يعرف ملامحه بدقة، كان ينتظر المفاجأة في المنعطف القادم، إنه يخطو مسرعاً متوجّساً أبداً، متأهباً دائماً..»(٣)، إذن يصبح إحساس الخوف والملاحقة مكوّناً لنفسية الإنسان، يطبعه بطابع القلق والتحفّز ويتعمّق في لا وعيه حتى ليصبح صفة مميّزة له، وحالة مهدي جواد خير مثال على ذلك،يشعر «مهدي جواد» أنه مطرود ومنبوذ طوال إقامته في «بونة»، بعد أن كان ملاحقاً في وطنه العراق، حيث قضى زمناً في السجن وزمناً آخر في التشرد والاختباء ومن ثمّ الهروب.

أما تجربة الكفاح المسلح فتتمّ في الأهوار، تلك المنطقة الغارقة في ضباب التاريخ والأسطورة مما يعمق أسطورية وحلمية الكفاح، ففي تلك الأصقاع المستنقعية المغطاة أبداً بأوراق البردى والقصب، حيث العزلة عن الحياة وعن البشر، كان حلم الكفاح المسلح يغرق في رومانسيته، وكان المكان بأوبئته وصقيعه وغموضه يطبق كمصيدة على مجموعة الرجال ويفتت عزائمهم «امتداد لا يُحدّ من البردي والقصب والماء، يعود لأزمنة قديمة تبدأ من نهاية القرن الخامس الميلادي في عصر قوباذ الأول ملك الساسانيين. فوق هذا الامتداد الأخضر الساكن والشبيه بحيوان خرافيّ من ديناصورات العصور الأولى.. يعيش بشر شبه مفصولين عن عالم اليابسة»(٤)، في هذا المكان تبدأ التجربة وتنتهي حيث يُحاصَر الرجال بالمرض والطين وقوات الجيش المسلّحة جيداً.

وفي «بونة» يحتل «يزيد ولد الحاج» التاجر بيت «سي العربي» الشهيد، وفي ذلك دلالة عميقة على استيلاء الانتهازيين، على البلاد وتجييرهم للقيم الجميلة واستلامهم السلطة بقوة

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص: ٢٨ و ٣٦٠ .
٢) المصدر نفسه . ص: ١٠٨ – ١٠٩ .
٣) المصدر نفسه . ص : ١٠ .
٤) المصدر نفسه . ص : ١٣٧ – ١٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المال والاستغلال، فكما أن رموز الثورة أبعدوا عن مساحة التأثير «فلّة» ، كذلك كان مكان «سي العربي» يُحتل لتترك ساحة الفعل لـ «يزيد» و«بو خروبة». ويتحوّل الوطن بكامله إلى ساحة قتل وإعدام، في العراق والجزائر، حين تسوده «اللويائانات» التي تسعى لأمجادها الشخصية وترى في الوطن ملكاً فردياً أو هبة سماوية.

تتمطى الرغبات المكبوتة في الشوارع والساحات العامة، على شكل دعوة أو صرخة أو اعتداء مباشر يطال المرأة، هذه الشوارع والساحات تشهد أحياناً خروقات للتقليد الذكوري «فلة، مهدي، آسيا» لكنها تظل مغلّفة بالممنوعات والأخطار ومحكومة بقانون المجموع.

يعكس المكان بإحالاته المختلفة، القيم الاجتماعية الثقافية السائدة، وهي قيم ترى في الأماكن الخارجية عالماً ذكورياً، أما المرأة فمكانها البيت، ولا يجتمع الجنسان في فضاء مغلق إلا بالزواج «بدا الحاج محمد مهاناً ، لقد دُنّس بيته بتجاور امرأة مع رجل غير متزوجين بشريعة الرسول»(١).

هوية المكان هنا هي هوية القمع ومصادرة الحريات والتناقض بين رغبات الإنسان وطموحاته وتحققها على أرض الواقع، فالمكان الذي يتعانق فيه «مهدى وآسيا» بكامل غبطتهما، هو المكان الذي يتوجب على «مهدي » مغادرته للأبد خلال أسبوع»(٢). ويظهر هنا التضاد والافتراق البيّن بين فضاء الحرية وفضاء المدينة/ بونة التي ينمو الحب داخلها «نموّ النباتات بين شقوق الصخر، مهدّداً بالموت متى حاول الوقوف تحت الشمس» (٣) لذا يهرب الحب بعيداً «بعيدين عن المدينة، في تلك المساحة العراء ابتدآ يمرحان كطفلين خارج قوس الحصار»(٤)ومن هنا يأتي الاستغراق في تأمل المكان واستنطاقه «مهدي» والنفي والتشرد عبر المدن «مهدي ومهيار».

---

١) وليمة لأعشاب البحر. مصدر سابق ص: ٢٩ .
٢) المصدر نفسه . ص: ٣٦٩ .
٣) المصدر نفسه . ص : ١١ .
٤) المصدر نفسه . ص : ١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الأسلوب

يُلحَظ أن خصوصية أسلوب الكاتب في روايته «وليمة لأعشاب البحر»، وفي أعماله السابقة واللاحقة لها، نابعة من اللغة الشعرية المرتبطة بفضاء إنساني صحي وطبيعي ،حرّ ومفارق لكل ما شاده الإنسان من فضاءات غلب عليها التلوث والتشوّه، ممثلاً في السلوك والشرائع والقيم المناقضة لنمو الإنسان السوي.

وترتبط اللغة الشعرية بأجواء الحرية المعزولة والبعيدة عن المدينة مستمدة مفرداتها من الطبيعة، وبهذه المفردات تحتفي اللغة الشعرية بالجنس باعتباره ممارسة طبيعية حرة خارجة على مواصفات وقيم المدينة المزيفة لها(١)، نلاحظ حضور هذه اللغة في وصف لقاء «مهدي» «وآسيا» في علاقة الحب الخارجة عن التقليد، وبهذا التقابل بين لغة الرغبات الطبيعية والسّويّة النفسيّة ولغة القوانين المدينية المشوّهة، تطرح الرواية التقابل بين ما تريده الطبيعة الإنسانية السوية وما يصنعه الإنسان ويحاصر نفسه به، أي بين تحقّق الذات والاغتراب، ويحمل هذا التقابل إدانة لصنيع الإنسان، ويبرّر الدعوى لهدمه واختراقه وإعادة بنائه من جديد لأنه لا يعبّر عن الإنسان، وإنما عن القوى الظالمة المسيطرة عليه، وإذن تعكس هذه اللغة التقابل بين عالمين ؛ أولهما مسيطِر، غالِب، قامعٌ أسود والآخر قيد الحلم، أبيض وأخضر، يتصل بطفولة البشرية السعيدة، حيث النقاء والصفاء والجمال، وحيث الإنسان يعبّر عن إنسانيته ورغباته بلا خوف ولا خجل ولا تردّد، إنه عالم الصراحة المطلقة والصفاء ويوتوبيا الإنسان السعيد، يقوم صراع شامل بينهما لا يقبل المهادنة، وفي رواية «وليمة لأعشاب البحر» تتمّ الغلبة للعالم الظلامي الذي يسود بإطلاقيته، فيلوّن الأشياء بالأسود.

وتستعين لغة الرواية باللهجة المحكية ، ومصطلحاتها المنفلتة من عقال التقاليد والقيم السائدة لتعبر بها عن التناقض الذي يكتنف هذا العالم الظلامي، فما يسنّه من قوانين ظالمة يطاله خرق مشوّه عبر هذه اللغة التعويضية (لغة الشوارع)، أما البديل الجذري والشمولي الذي هجست به رواية «الزمن الموحش»، فإنه في رواية «وليمة لأعشاب البحر» يتعرض للدمار

---

١) بو تخامت محمد. مرجع سابق ص ٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والهزيمة والتشظي. إن هذا الصراع الذي لا يقبل الهدنة، بين عالمين متناقضين، يحيلنا إلى ما استنتجه «أمين محمود العالم» في تحليله لدلالات الكلمات المتكررة «الطفولة، الأبيض، الطيور» في الرواية. فهذه الكلمات تحيل إلى عالم الطبيعة النقي الذي هو بديل الواقع المشوّه، والمصطدم دائما مع هذا الواقع مما يجعل من الطبيعي «أن تفضي هذه الشخصيات والأحداث إلى ثنائية حادة؛ يستبعد طرف من طرفيها الطرف الآخر ويلقي به إلى هوّة الاغتراب الكامل والفشل المطلق والانتحار الضروري»(١).

إنّ هذا التقابل يعود بنا للفصل الأول : الاغتراب عن المكان، حيث تبدت الفضاءات المصنوعة من قبل الإنسان فضاءات تشوّه وإخضاع وكبت، وتراءى البديل الطبيعي في هدمها – إحراقها – ومحاولة بناء جديد يحتفي بوجود الإنسان وحريته، وتختفي منه مظاهر الاغتراب ، فيبدو وكأنه حلم طوباوي بوجود إنساني يتجاوز اغترابه «التبشير بالقبيلة في قصة الفيضان» . وهذا الحلم المتكرر في أدب «حيدر حيدر» يعطي السمة الأسلوبية الخاصة لأدب الكاتب وهي تَقابل رموز الطبيعة (السوية الإنسانية) مع رموز الواقع المعيش(التشوّه).

---

١) محمود أمين العالم. مرجع سابق. ص ٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخـــاتـــمـــة

عَرَضَ البحث السابق لقضية الاغتراب في أدب القاص والروائي حيدر حيدر، وأظهر عمَق التصاق هذه القضية بأبعادها الفلسفية والفكرية والاجتماعية بأدبه.

ولقد استهدف التمهيدُ توضيح الإطار العام لمصطلح الاغتراب وبيئته الأوروبية، واستخلاص نماذج عامة للاغتراب، يمكن الاستهداء بها أثناء البحث، وكذلك قدّم التمهيدُ ملمحاً عن الاغتراب في الأدب الغربي والعربي ، وبحث الفصل الأول الاغتراب في حياة حيدر حيدر ، وتنامي هذه الظاهرة في أعماله، حيث تبيّن للباحثة هنا سيطرة الاغتراب عن الذات في الأعمال الأخيرة للكاتب وخلوّها من النماذج المتفائلة مما يعكس تفاقماً بالإحساس بالاغتراب لدى الكاتب نفسه.

وقدّم الفصل الثاني تحليلاً للاغتراب عن الذات في نصوص الكاتب معتمداً نماذج ثلاثة، اجتهدت الباحثة في استخلاص أنماطها من مجمل الأعمال المدروسة، وقد ظهر لها أن حالات الاغتراب عن الذات لأسباب اجتماعية هي الأكثر حضوراً في النصوص، مما يشير إلى وجهة نظر الكاتب في الاغتراب، حيث يرى فيه مشكلة ذات أصول مادية كامنة في صلب المجتمع، أي أنها ليست مختصة بطبيعة بشرية أزلية، بل طارئة لأسباب فاعلة في الذات والمجتمع، وأثار البحث كذلك دلالة المحاولات الفردية العقيمة لمواجهة الذات لأسباب اغترابها، فانتهاء هذه الذات بالفشل دائماً يعكس رؤية الكاتب في عقم المواجهة الفردية حين يكون الهمّ جماعياً ويعكس غيابَ ردّ الفعل الجماعي الإيجابي في النصوص إدانة الكاتب للواقع الاجتماعي العربي المغيّب عن الفعل واللاوعي لفداحة اغترابه.

وخلص الفصلُ الثالث المعنون بـ «الاغتراب عن المكان» إلى تبيان سمات الاغتراب في علاقة الإنسان بالمكان، حيث تبدّت المدينة رمزاً مغترباً على امتداد أعمال الكاتب، ونهضت في تقابل معها الطبيعة رمزاً لتجاوز الاغتراب، والذي تمثّل أكثر ما تمثّل، في طبيعة الأماكن المدينية الحاملة لدلالات الحصار وتغييب الإنسان، في حين تمثّل التحقّق«نقيض الاغتراب» في تفرعات الأماكن في الطبيعة وما تحمله من دلالات الحرية والانعتاق من أسر المدينة . وفي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دلالات النهاية أوّلت الباحثة النهايات التي سارت إليها المدينة والطبيعة في النصوص المدروسة.

وخلص الفصل الرابع «الاغتراب عن المجتمع» إلى تحليل الاغتراب في العلاقات الإنسانية من جهة، والاغتراب السياسي من جهة أخرى، فعلى صعيد اغتراب العلاقات الإنسانية تكرّس البحث لتحليل علاقتين هما: علاقة الرجل بالمرأة في ظل سيطرة مفهوم الحلال/ الحرام، وعلاقة القديم بالجديد، وقد أظهر التحليل الأسباب النفسية والحضارية الكامنة وراء هذا الاغتراب وتقديم البديل.

وعلى صعيد الاغتراب السياسي، وضّحت الدراسة أسباب هذا الاغتراب المتبدية في طبيعة السلطة القمعية في المجتمع الذي تحيل إليه النصوص، وفي حالة مجتمع مستغرق في اغترابه، غير واعٍ به، حيث ظهرت حالات المواجهة والوعي بشكل فردي منعزل غير قادر على التأثير والتغيير.

وكذلك حلّلت الباحثة في هذا الفصل، اغتراب الإنسان الفلسطيني كما تبدى في النصوص، واستخلصت ثلاث صور يتبدّى فيها: صورة الباحث عن الخلاص وصورة الثوري المنحرف وصورة الهارب إلى النسيان.

وفي الفصل الأخير الذي اتخذته الباحثة نموذجاً تطبيقياً لتفصيل الحديث عن دلالات الاغتراب في العمل الفني، انطلاقاً من عناصره، حللت الباحثة دلالات الاغتراب في بعض عناصر رواية «وليمة لأعشاب البحر» وهي العناصر التي ارتأت فيها الباحثة دلائل اغتراب .

وخلصت الباحثة إلى أن هذه الرواية تعبّر في تشكيلها الفني وإحالاته الأيديولوجية، عن اغتراب شامل يعيشه العربي في واقعه على المستوى النفسي الذاتي وعلى المستوى الاجتماعي والعلاقات وعلى مستوى المشاركة السياسية والتأثير في المجتمع.

وقد اتضح للباحثة أن الكاتب حيدر حيدر، هو كاتب اغتراب بحق، حيث كانت هذه القضية هي شغله الشاغل الذي حرص على تصوير كافة أبعاده في أعماله المختلفة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ - المصادر

- حيدر حيدر- **حكايات النورس المهاجر**، قصص، ،دار الحقائق، بيروت لبنان ١٩٧٩.
- حيدر حيدر- **الفهد**، رواية، ط٣، دار الحصاد، دمشق سوريا ١٩٩١.
-حيدر حيدر- **الومض**، قصص، اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا ١٩٧٠ .
- حيدر حيدر- **الزمن الموحش**، رواية، ط٤ دارأمواج، بيروت لبنان ١٩٩٣.
- حيدر حيدر- **الفيضان**،قصص ،ط٣، دار الحوار، دمشق سوريا ١٩٨٦.
-حيدر حيدر- **الوعول**، قصص ، دار الحصاد، دمشق سوريا ١٩٨٩.
-حيدر حيدر- **التموجات**، قصتان، ط٢،دار الحوار، دمشق سوريا ، ١٩٨٦.
-حيدر حيدر- **وليمة لأعشاب البحر**، ط١، بترا للطباعة والنشر دمشق سوريا ١٩٩٥.
-حيدر حيدر- **مرايا النار**، رواية، ط٢ بترا للطباعة والنشر، دمشق سوريا ١٩٩٥
-حيدر حيدر- **أوراق المنفى :شهادات عن أحوال زماننا**، مقالات أدبية، ط١ دار أمواج بيروت لبنان ١٩٩٣.
-حيدر حيدر- **غسق الآلهة**، ط١، قصص، دار أمواج، بيروت لبنان ١٩٩٥.

ب - المراجع

١ ــ الكتب العربية

- إبراهيم السعافين، - **تطور الرواية في بلاد الشام**، ط٢، دار المناهل، بيروت ١٩٨٤.
- أحمد بن حنبل (ت ١٦٤)- **مسند الإمام أحمد**، المجلد الأول دار صادر للطباعة والنشر. بيروت. لبنان .دون تاريخ.
- حسن عبد الرزاق منصور- **الانتماء والاغتراب**: دراسة تحليلية، دار جرش، السعودية،١٩٨٨.
ـ السعيد الورقي ـ **اتجاهات الرواية العربية المعاصرة**، ط١ الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، مصر، ١٩٨٢.
- سعيد يقطين- **تحليل الخطاب الروائي**، ط٢ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ١٩٩٣.
- سمر روحي الفيصل- **ملامح في الرواية السورية**، ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٧٩.
- سمر روحي الفيصل- **السجن السياسي في الرواية العربية**، اتحاد الكتاب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العرب،دمشق١٩٨٢.

– سمر روحي الفيصل– **تجربة الرواية السورية**، ط١، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨٥.

– سيد حامد النساج – **بانوراما الرواية العربية** ، المركز العربي للثقافة واالعلوم، لبنان ١٩٨٢.

– السيد علي شتا– **نظرية الاغتراب من منظور علم الإجتماع**، دار عالم الكتب، الرياض السعودية ١٩٨٤.

–عبد الرحمن بدوي– **دراسات في الوجودية**. الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة.مصر.

ـ عبد الرزاق عيد ـ **حيدر حيدر وسيزيفه ، دراسات في الرواية والقصة**، منشورات وزارة الثقافة دمشق سوريا، ١٩٨٠ .

– عبد الفتاح إبراهيم – **البنية و الدلالة في مجموعة حيدر حيدر القصصية « الوعول »** ، ط١، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٨٦.

– عبد الله العروي – **العرب والفكر التاريخي** ، ط٢ دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت. لبنان، والمركز الثقافي العربي. الدار البيضاء ١٩٨٥.

ـ علي زيعور:**الكرامة الصوفية والاسطورة والحلم**، ط ١ ـدار الطليعة بيروت ، ١٩٧٧ .

– محمد برادة – **الرواية العربية**: واقع وآفاق ط١. دار ابن رشد للطباعة والنشر. ١٩٨١

– محمود أمين العالم– **أربعون عاماً من النقد التطبيقي**. ط١ دار المستقبل العربي. القاهرة مصر.١٩٩٤.

– محمود السمرة – **في النقد الأدبي** ، ط١ ، الدار المتحدة للنشر ، لبنان ، ١٩٧٤ .

– محمود غنيمي هلال – **الأدب المقارن**، ط٣ ، دار نهضة مصرللطبع والنشر ، مصر.

– مراد كاسوحة– **المنفى السياسي في الرواية العربية**،ط١، دار الحصاد دمشق سوريا، ١٩٩٠.

– ابن منظور(ت ٧١١ هـ)– **لسان العرب** . دون طبعة دار صادر بيروت. لبنان دون تاريخ.

– نبيل رمزي اسكندر– **الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر**، دار المعرفة ، الإسكندرية مصر ١٩٨٨.

– نبيل سليمان– **الرواية السورية**، وزارة الثقافة، دمشق سوريا ١٩٨٢.

– يونان رزق، **أوروبا في عصر الرأسمالية**. دون طبعة. دار الثقافة العربية. القاهرة مصر، ١٩٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ ـ المراجع المترجمة

– ألن، والتر – **الرواية الإنجليزية**، ترجمة صفوت عزيز جرجس، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد العراق. دون تاريخ.

–باشلار،غاستون – **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٤.

– سارتر، جان بول– **الوجودية مذهب انساني**، ترجمة عبد المنعم الحفني، الدار المصرية، القاهرة مصر ١٩٦٤.

– سارتر، جان بول ـ **الغثيان** ، ت سهيل إدريس ط٣ ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان ١٩٨٦.

– سارتر، جان بول ـ **الأدب الملتزم** ترجمة جورج طرابيشي دار الآداب بيروت ١٩٦٥ .

– شاخت. ريتشارد– **الاغتراب**.ترجمة: كامل يوسف حسين. ط ١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. لبنان. ١٩٨٠.

– فروم. إريك– **الدين والتحليل النفسي**. ترجمة فؤاد كامل.مكتبة غريب، القاهرة. مصر.

– فروم. إريك ـ **المجتمع السليم**. ترجمة محمود محمود. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة مصر ١٩٦٠. ص ٢٨ .

–كافكا. فرانز– **المسخ**. من كتاب «قصص التحول في الأدب العالمي الحديث» دار شرقيات للنشروالتوزيع، القاهرة مصر، ١٩٩٤.

–كامو. ألبير– **الطاعون**. ترجمة سهيل إدريس، ط١ دار الآداب، بيروت لبنان. ١٩٨١.

ـ ماركوز، هربرت ـ **فلسفة النفي**. ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ط ١ دار الآداب، بيروت، لبنان ١٩٧١ .

–ولسون، كولن– **ما بعد اللامنتمي**، ترجمة أنيس زكي حسن، دار الآداب، بيروت لبنان ١٩٦٩ .

ـ ولسون، كولن – **اللامنتمي** ترجمة أنيس زكي حسن ط٣دار الآداب بيروت١٩٨٢ .

ـ ولسون، كولن– **فن الرواية**، ت محمد درويش، دون طبعة، دار المأمون للطباعة والنشر، بغداد العراق ١٩٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ ــ الكتب الأجنبية

1-Felix, R. Geyer (1980). Alienation theories: a general system approach, Oxford,Pergamon.

2-Ollman, Bdrtell (1976). Alienation: Marx's conception of man in capitalist sociey, Cambridge University.

3-Schaff, Adam (1980). Alienation as a social phenomenon, Oxford: pergamon.

4-Shacht, Richard (1971). Alienation with an introductory essay by Walter Kaufmanann, London, Allen & Unwin.

٤ــ رسائل جامعية

– بوتخامت محمد– **تحليل رواية الرمن الموحش: شكلاً ومضموناً**. جامعة الرباط المغرب ١٩٧٩.

ـ محمود الأطرش : **اتجاهات القصة في سوريا بعد الحرب العالمية الثانية** ، رسالة دكتوراة ، جامعة القديس يوسف ، لبنان ١٩٨٠ .

ـ ناجح محمد محمود شاهين : **الإنسان و الاغتراب عند إيريك فروم** ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، الأردن ١٩٩١.

ج ــ بحوث منشورة في :

١ ــ دائرة معارف

ـ جبور عبد النور ـ **المعجم الأدبي**، ط١، دار العلم للملايين، بيروت لبنان. ١٩٧٩ .

ـ فيصل دراج ـ **الاغتراب. الموسوعة الفلسفيةالعربية** ، ط ١ ، مجلد ١، معهد الإنماء العربي بيروت لبنان. ١٩٨٦ .

ـ مجدي وهبة ـ **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، ط٢ مكتبة لبنان ، ١٩٨٤ .

ـ **المنجد في اللغة والأعلام** ، ط ٢٨، دار المشرق بيروت لبنان ، ١٩٨٦ .

ـ **موسوعة المصطلح النقدي** : ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ، المجلد الأول ، ط٢ دار الرشيد للنشر . منشورات وزارة الثقافة والإعلام . بغداد ، العراق . ١٩٨٢ .

The Encyclopdia of Philisophy 1: Alienation, Edward Paul, The Maonilan & the free press, New York

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ ــ كتاب لمجموعة مؤلفين

– براد بري. مالكوم،ماكفارين. جيمس– **الحداثة**،ترجمة مؤيد حسن فوزي، دون طبعة، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد العراق، ١٩٨٧.

– مورس شرودر ، جون هولبرن ، جورج هنري رالي – **نظرية الرواية** ،ترجمة محسن جاسم الموسوي، مكتبة التحرير ، العراق ، ١٩٨٥ . .

– نبيل سليمان بالاشتراك مع محمود أمين العالم ويمنى العيد– **الرواية العربية بين الواقع والأيدولوجيا**، ، دار الحوار، اللاذقية، سوريا ١٩٨٦.

– ويليك ووارين– **نظرية الأدب**، ترجمة محيي الدين صبحي، سوريا ١٩٧٢ .

٣ ــ الدوريات

– أحمد ابو زيد – **الاغتراب :تمهيد**، عالم الفكر، مجلد ١٠، عدد١ ، نيسان ، المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت، ١٩٧٩.

– أحمد صبرة – **جوانب من شعرية الرواية** ، فصول، ، المجلد ١٥ ، ع ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر،١٩٩٧ .

ـ بشير ناصر ـ **الاغتراب كنقيض لتحقيق الذات** ، مجلة جامعة تشرين .مجلد ١١، العددان ١ و٢ ، اللاذقية، سوريا ١٩٨٩ .

– حسن حنفي– **الاغتراب عند فويرباخ**. مجلة عالم الفكر، المجلد ١٠ عدد١، المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت، ١٩٧٩.

– حيدر حيدر– **أسئلة جارحة في أزمنة الظلمة** ، الهدف ، ، ع ١١٣٠ ، سوريا ،١٩٩٢ .

– بوريس زوسبنسكى – **وجهة النظر في الرواية على مستوى المكان و الزمان** ، فصول ، المجلد ١٥ ، ع ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر، ١٩٩٧ .

– سحبان خليفات – **فكرة الاغتراب في الفكر العربي** ، أفكار، عدد ٢٤، ايلول، ١٩٧٤.

ـ سيد بحراوي ـ **وليمة لأعشاب البحر، نموذج للحداثة الحقيقية**، مجلة الهدف ،عدد ١٠٧٢، سوريا ،٦ ـ ١٠ ـ ١٩٩٠ .

– شيرينا– **الاغتراب والأدب المعاصر**، ترجمة نزار عيون السود، الآداب الأجنبية، عدد٢، تشرين أول، ١٩٧٥.

– عبد الهادي شحادة –**حيدر حيدر في غسق الآلهة « صورة فعل الحب والمدينة في تلونات المشهد الروائي »** ، فتح ، سوريا، ع ٣٥٢ ، ٢٨ / ١٠ / ١٩٩٥ .

– فتح الله خليف– **الاغتراب في الإسلام**، مجلة عالم الفكر، المجلد ١٠ عدد١ المجلس الوطني

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للثقافة والفنون الكويت، ١٩٧٩.

ـ فريال جبوري غزول ـ **ايديولوجيا بنية النص**، مجلة فصول، مجلد ١ العدد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ١٩٩٣ .

– فيصل دراج – **حيدر حيدر وتجدد الرحيل** ، الهدف ، سوريا ، ع ١١١٧ ، ٣٠ / ٩ / ١٩٩٣ .

– قيس النوري– **الاغتراب: اصطلاحا ومفهوما وواقعا**، عالم الفكر مجلد ١٠، عدد ١ ، نيسان، المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت، ١٩٧٩.

– مجاهد عبد المنعم مجاهد– **من الاغتراب إلى الإشتراكية الى الاغتراب**، الفكر المعاصر، عدد ٤٤ ، تشرين أول ١٩٦٨.

ـ محمد برادة ـ **حيدر حيدر في روايته «وليمة لأعشاب البحر» افترس الحب والثورة**، مجلة اليوم السابع ، باريس، عدد ٥، ١٩٨٤ .

– محمد زكريا عناني – **الاغتراب في رواية محمود حنفي** ، فصول، مجلد ١٢ ، ع ٢ الهيئة العامة المصرية للكتاب ، مصر، ١٩٩٣ .

– محمد عز الدين التازي– **مفهوم الروائية داخل النص الروائي**، الوحدة، عدد٤٦– تشرين١.

– محمد كشيك – **ملامح البطل المغترب في « ظهيرة لا مشاة لها »** ، للقاص يوسف المحيميد فصول ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، مجلد ١١ ، ع ٤ ، ١٩٩٣ .

– محمود رجب– **هيجل ومشكلة الاغتراب، الهلال**، القاهرة، دار الهلال، عدد٥، ١٩٦٩.

– منى سعيد أبو سنة– **الاغتراب في المسرح المعاصر**، مجلة عالم الفكر، المجلد ١٠ ع١ المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت، ١٩٧٩.

– نبيل راغب – **مفهوم الاغتراب في الأدب** ، الفيصل ، ع ٩٦ ، السعودية ، ١٩٨٥ .

ـ نبيل سليمان ـ **الواقع ،التخييل ، الأدلجة في الرواية العربية** ،المعرفة، عدد ٢٨٦، ١٩٨٥ .

– هدية الأيوبي ـ **الاغتراب في شعر المتنبي** ، الفيصل ، ع ٦٤ ، السعودية ، آب / ١٩٨٢

د – الصحف

– إلياس خوري، مقابلة مع حيدر حيدر، السفير،بيروت، لبنان، ٢٠ ـ٨ ـ ١٩٨٧ .

ـ محمد فرحات ، سبع أسئلة حول الرواية العربيةالسفير،بيروت، لبنان، ١٠ ـ ١٢ ـ ١٩٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملحق

حوار مع حيدر حيدر

بتاريخ:١٧ـ ٨ ـ١٩٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

س١- الكاتب حيدر حيدر، عُنيت في أدبك بطرح حالات إنسانية مغتربة، هذه الحالات انتمت إلى شرائح اجتماعية مختلفة، كان من بينها اغتراب المثقف الثوري عن أهدافه الثورية.. وبوجود فجوة واضحة بين نظريته الثورية وسلوكه التقليدي، كما في «الزمن الموحش» على سبيل المثال، بالإضافة إلى اغترابه عن حلمه لأسباب اجتماعية وسياسية، مما يوقعه في أحاسيس العبث والإحالة الى الزمن الموحش وشخوصها: شبلي عبد الله، سامر البدوي، راني... السؤال الآن، ما هي ملامح الاغتراب كما يعانيها حيدر حيدر الإنسان والكاتب والروائي؟

ج - بداية لا بدّ لي من الاعتراف بأن الانتباه الواعي لموضوعة الاغتراب في الأطروحة التي أقترح أن تُسمّى«رحلة الاغتراب في أدب حيدر حيدر» هي من المفاصل الأساسية والجوهرية في تلك الرحلة الشاقة، وإذا ما تماسّت مع مفصل الحرية الإنسانية كهدف مركزي، فالبحث - الأطروحة يصل إلى الجذور، محور ما أهدف إليه في النهاية.

عندما سأقول عبارة عامة عن الإنسان العربي، والمثقف تخصيصاً بأنه مغترب في عالمه فهذا يعني الاستلاب ونزع الحرية والتهميش.

حين يكون على المثقف أن يجهر بالحقيقة ليكون شاهداً على عصور مزيّفة، وهو الضمير، في أزمنة العسف والقمع الأخلاقي والسياسي والديني، يقال له: أنت خارج . عدوّ للسائد والمألوف وما اجتمعت عليه الأئمة وأولو الأمر.

في فضاءات عالمي الخاص، قبل رحلة الكتابة، كنت خارجياً وملعوناً وغير مألوف.

منذ بدايات الطفولة كنت ولداً برّياً يعشق البحر والوديان والصيد، ولد مُفلتٌ من الأقمطة وتعازيم الآباء ومراسيمهم. أكره المدرسة والعودة إلى البيت في أواخر المساء وأهوى الشجارات مع الصبية الأشقياء في ساحات القرية. والدي المتنوّر نسبياً، والصعب، أعطاني مدى من الحرية الطلقة. لكنه ما كان ليتوانى عن العقاب القاسي حين يدرك اشتطاطي وتجاوزي للخطوط الحمراء المرتسمة في رأسه. وغالباً ما كنت أتخطّى تلك الخطوط بحريتي الداخلية، واندفاع طفولتي نحو فضاءات مغامرة لا أعرف مداها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلوح على شاشة الذاكرة حياة مليئة بالصخب والعنف. الخروج من القرية إلى المدينة كان البداية في رحلة المغامرة والاغتراب، ربما. في المدينة يرون في تلامذة الريف فتياناً غرباء . كانوا ينظرون إلينا كوافدين غُرباء عن المدينة. كنا في المدرسة الثانوية متفوّقين وفقراء وفوضويين ومشاكسين. وكان لا بدّ من الصدام والشجار لتوكيد الذات ودحر الاغتراب وتجاوزه.

في مرحلة الخمسينات كانت القرى والمدن تعيش حالة انفصام وافتراقاً اجتماعياً واقتصادياً، انعكس على حالات الهجرة والانتقال من الريف إلى المدينة. المدينة المركز والريف الهامش.

س٢– نعم، يمكن أن نلاحظ هذه الفكرة ترد على لسان شبلي، الريفي القادم إلى المدينة والخائف منها، لكن حضورها أعمق من ذلك ، إذ يلاحظ قارئ أعمالك هذا التضاد الواضح بين الريف ـ وهو ما أسميته في دراستي الطبيعة ـ والمدينة. الإحالة هنا في رأيي تتجاوز صورة الريف المألوف إلى درجة اعتبار الطبيعة بكل مضامينها مرموزاً واسعاً لعالم المثل والنقاء /الحلم والثورة على النقيض من عالم الواقع المثقل بآلامه وأخطائه واغترابه.على الصعيد النفسي الداخلي للشخوص ، وكذلك على الصعيد الاجتماعي ، السياسي بخاصة.

ج – هذه الحالة انعكست فيما بعد داخل رحلة الكتابة الأولى، بعد الانتماء السياسي والدخول إلى عالم المدينة، اختلفت الرؤية الطفولية الأولى بقي الحنين إلى عالم الريف رمزاً للحرية والانطلاق، وتراءت المدينة كأنها النقيض، لكن الرمز– المديني ترامى في الوعي إلى ما هو أبعد من ذلك.

المدينة – التجارة – السمسرة – العسف السياسي – الزيف – العلاقات المادية – المقايضات ، هذا البعد عما هو جوهري في الإنسان، كان هدف الكتابة والتعبير الثقافي في ما كتبت بعيداً عما فهم بعض النقاد من كتابتي حول تمجيد الريف والعودة إليه أو الحنين إلى ربوعه النقيّة أو الطهرانيّة.

في الذاكرة أصداء طفولية جميلة عن الريف والقرية والطبيعة، لكنني لا أرى فيها أكثر من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أطياف وبروقات جمالية تعبّر عن الانطلاق والحرية الإنسانية، وليس ترسيخاً أو بديلاً.

س٣ – في بحث دلالات النهاية المتعلقة بالمدينة، نلاحظ تكرار الفعل الطامح لتجاوز الاغتراب لدى الشخصيات المدينية وأعني به إحراق المدينة ، حيث يتداخل الحلم بالواقع، فالشخصيات تحلم بالحريق و إشعال الثورة«رقصة البرأري الوحشية» ، أو هي تقوم بالفعل على نحو مليء بالدلالة «أغنية حزينة لزجل كان حيا» ، وتسعى من ثمّ للخروج إلى الصحراء و البراري، أو هي تحرق هويّتها المدينية وتنطلق باحثة عن قبيلة تمثّل الحلم «الفيضان» إن الصورة التي تتبدّى عليها المدينة غارقة في السلب دائماً لا تترك لأفرادها غير المنساقين إلاّ التمرّد أو الهرب، ما رأيك؟

ج – شخصياتي الأدبية تحلم بمدن تسودها العدالة والحرية والتوق إلى كينونة بشرية وحضارية بعيداً عن بازارات وبورصات المال وتشييئ الإنسان وتسليعه،وتحوّل الثقافة إلى سوق والزلفى لسلطة الدولة المستبدة، والرخص الانتهازي الإعلامي.

لذا فالهروب الرمزي ، بعيداً عن المدن الموبوءة المحاصرة بجراثيم رأس المال والنهب ولاستبداد والبوليس، ليس ملاذاً استبدالياً بالريف المتخلّف والكئيب والضجر، بقدر ما هو حالة تنفّس لنوع من الأوكسجين النقي بعيداً عن ثاني أوكسيد الكربون.

س٤ – خلال استقصائي لنماذج الاغتراب الأساسية في أدبك تبيّن لي افتقادها لنموذج المغترب الوجودي بالمعنى الفلسفي كما توضح في نماذج روائية عديدة لدى سارتر وكامو.. إن شخوص القصص والروايات تُلاحَق بواقعها ومآزقها الاجتماعية إلى درجة لا تتيح لها التفكير والتأمل في شرطها الوجودي، أما أحاسيس العبث والقلق واللاجدوى التي نجد أعمق تعبير عنها في مجموعة «غسق الآلهة» وفي شخصيتي فلّة بوعناب ومهدي جواد في «وليمة لأعشاب البحر» فأساسها اجتماعي /سياسي، قبل أن يكون وجودياً ، فهذه الأحاسيس نتاج اغتراب اجتماعي ونفسي عميق لشخوص محاصرة بأسباب عيشها وحقوقها البسيطة لذا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهي لا تملك الوقت للوقوف طويلاً عند شرط الموت على سبيل المثال، فتأمّلها في ذلك الشرط يأتي تحت الضغط الاجتماعي والنفسي القاهر.، لذا تتراوح صورة الموت في القصص والروايات بين الموت المجاني لأسباب القمع السياسي والحروب اللامجدية ، وبين الموت البطولي والملحمي والاحتفالي لشخوص قررت مواجهة العسف والظلم، إذا كنت توافقني على هذه الرؤية فأرجو أن توضّح لي ملامح الاغتراب الوجودي خلال تجربتك الحياتية والإبداعية ومدى تأثيره على اختيارك لشخصياتك الأدبية الممعنة في الاغتراب ، ونهاياتها المأساوية البالغة التشاؤم.

ج – في أصل الاغتراب الذاتي– الموضوعي، كما أشارت الأطروحة، هناك جذر وجودي أو الاغتراب عن الذات. ثمّة إحساس داخلي يشي بالعبث واللاجدوى منالحياة إزاء الموت أساساً. لماذا يموت الإنسان ؟ هذا السؤال الأبدي منذ بداية الوعي البشري يؤرقني. يرميني في فضاءات معتمة،تصل بي إلى حواف الانتحار في لحظات الضيق. هذا السؤال مرتبط أساساً بفكرة الخلود والتوق إليه. أسطورة جلجامش عبّرت عميقاً عن هذه الفكرة. عبّرت في حياتي وتجربتي حالات واقعية حاولت فيها الانتحار احتجاجاً على الموت وعبثية الوجود. لكن الوعي التاريخي، بما هومسؤولية موضوعية، أزاحت الفكرة السوداء ، لكن لم تمحها في طبيعتي وأحاسيسي الداخلية. حين قررت المواجهة وتجاوز هذا الاغتراب دخلت في مناخ تراجيدي وملحمي، هو مناخ الصراع والمجابهة، انعكس هذا المناخ وهذه الحالة على شخصياتي في الأدب: اختياراتي للنماذج والأنماط الإنسانية المغتربة مقصود. مركز اهتماماتي الأدبية منصبّ على البشر المضطهدين والمهمّشين والمنبوذين والمجروحين والخارجين على الأعراف والتقاليد. الناس الذين يتوقون إلى الحرية ، هؤلاء المفعمون بصرخة الغضب والموت وقوفاً في مواجهة اللاعدالة والعسف.

التشاؤم أو السوداوية المخيّمة بظلالها فوق وداخل شخصياتي الأدبية، ذات منشأ واقعي. العالم العربي في تجلياته التاريخية أسود، مرشوم بالإحباط والتسفيل البشري والقمع،والاقتتال الأهلي، وسيطرة الأفكار الظلامية ، واغتيال الحرية والعقل. هذا المشهد المأساوي معروف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وواضح منذ اغتيال الخلفاء الراشدين وفتنة عثمان، عبوراً بكل ما جرى من تشقق وحروب أهلية، واغتيالات المفكرين والأدباء على مدى أكثر من ألف عام حتى الآن.

س٥ – الكاتب حيدر حيدر.. يفجأ قارئ أدبك ويصدم بشخوصك الخارجة على الثالوث المحرّم: الدين ،السياسة ، الجنس. وبطرحها لأسئلة واشكاليات نابعة من هذا التحريم المتجذّر في اللاوعي ، وكذلك تلك البساطة التي يُسرد فيها الحدث العادي والحدث الإشكالي على السواء ، بحيث تخرق اللغة جدار الوعي التقليدي وتقوده لإعادة التفكير فيما يخافه ويقدسه بفعل العادة.. والسؤال هنا: إلى أي حدّ عانى الكاتب حيدر حيدر من الرقيب الاجتماعي/ السياسي بهذا الطرح الاجتماعي/ السياسي الصدامي المتضمّن في أدبك؟

ج – الرقيب الاجتماعي لا يهمّني ولا أبالي به، الرقيب الثقافي السياسي عانيت منه الأمرّين منذ مجموعتي الأولى «حكايات النورس المهاجر» حتى الآن . يكفي أن أقول أن رواية «وليمة لأعشاب البحر» ظلّت ممنوعة في وطني سوريا اثني عشر عاماً . أنا كاتب وأديب موضوع على اللوائح السوداء في معظم البلدان العربية، وكتبي ممنوعة في بلدان الخليج والسعودية والعراق وبلدان أخرى، وهذا لا يؤرقني أبداً. كتبي ورواياتي تتسرّب بطرق وأساليب سريّة وتصل الى القارئ العربي من المحيط إلى الخليج.وفي ظنّي أن مركز الاهتمام بما أكتب يعود إلى مقاربتي الجريئة والفضائحية للراهن الاجتماعي والسياسي، دونما مواربة أوتدليس،كشاهد على الحقيقة وضمير لا يخشى في قول الحق لومة لائم.

س٦ – في بحثي ، الاغتراب عن الذات وعن المجتمع في أدبك، كان البحث يكشف دائماً عن شخصية نمطية متكررة، تمتدّ لتشكل رؤية نمطية للشخصية نراها في مجمل أعمالك، فهناك الملامح المشتركة في أنموذج المتمرّد أبي علي شاهين في رواية «الفهد» وأحمد الجنابي في قصة« الفيضان» مروراً بالأزرق في قصة «رقصة البراري الوحشية» ونافذ علان في «حقل الارجوان»، وصولاً لمهدي جواد ومهيار الباهلي في «وليمة لأعشاب البحر»، ذلك أننا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نرى تشابه الخصائص النفسية لهذه الشخصيات، وكذلك الكثير من أفكارها وأفعالها ومن ثمّ طريقة موتها، فهي حين تقرّر البحث عن ذاتها، تلجأ لمواجهة رموز اغترابها «السلطة الاجتماعية/ الأب، السلطة السياسية/ الحاكم ، الشرطة» وحين ذاك تصبح منبوذة، هاربة، مشرّدة، إلى أن تنتهي بالموت الفعلي، «الفهد، الأزرق، أحمد الجنابي» أوالموت الرمزي «مهيار ومهدي».

ج – إذا عرجنا على نمطية الشخصيات في قصصي ورواياتي، يمكن ملاحظة بعض الحالات المتشابهة في الأنماط الروائية، إنما هناك خصوصيات مميّزة لكل شخصية منشؤها البيئة أو التربية أو عسر الزمن والتاريخ والمواجهات مع العالم. شخصية «الفهد» مثلاً تختلف عن شخصية «مهدي جواد» أو «مهيارالباهلي» أو «خالد أحمد زكي» في رواية «وليمة لأعشاب البحر»، كذلك الحالة لشخصية «ناجي العبد الله» في مرايا النار، تختلف عن الأزرق في قصة «رقصة البراري الوحشية» أو بشر الغزاوي في «التموجات» ونافذ علان في «حقل الأرجوان»، هذه الشخصيات التي تواجه ثم تنكسر في صداماتها، لا ينبغي التركيز عليها وحسب، علينا أن نرى الإشعاعات والأطياف الأخرى التي تنتشر حولها. الفضاءات الاجتماعية والتاريخية والسياسية والأبعاد النفسية وتشريح العالم المحيط بظروفها. قليلاً ما ينتبه الدارس او الناقد إلى الحقب التاريخية المتسلسلة التي تحللها الرواية أوالقصة. لماذا التركيز على الحالة الفردية وحدها؟ هناك محيط موضوعي تتحرّك في مياهه هذه الشخصية وهذا المحيط، بما هو زمن تاريخي معيّن أو مكان جغرافي، أساس في إضاءة المسار الملحمي للشخصية. لماذا يُغفل البعد الموضوعي في التحليل النقدي أحياناً؟

في «الزمن الموحش» أو «وليمة لأعشاب البحر» هناك المدينة وهي شخصية مركزية، قليلاً ما يُنتبَه لها ولما يجري فيها، لماذا؟

س٧ – حين نحدّق في أدبك وعبر مسيرة تطوّره منذ «حكايا النورس المهاجر» وحتى «غسق الآلهة» نتأكد من ملاحقتك الدؤوبة لتشريح حالات اغترابية مغرقة في بؤسها وظلامها وابتعادها عن الانسانية السوية، وحتى إذا ما تتبعنا المحيط المكاني/ الزماني والبيئة الاجتماعية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنماط القيم والاخلاقيات والسّلوكيات التي تعمّق تصوير الاغتراب فإننا نلحظ صراعاً دائراً بين رموز الاغتراب السائدة المدينة بأبنيتها وعلاقاتها الضاغطة على الإنسان، والتسلط الاجتماعي/ السياسي، الذاكرة الغائبة والموت المجاني، وأنماط الشخوص المسيطرة: الأب ، الزوج، الدرك، الشيخ» ورموز الحلم الهاجسة بالتحقق «الطبيعة بفضاءاتها الملوّنة التي تريح أعصاب الإنسان،وأجواء الحرية والسعادة المحيمة، ومن ثمّ التلقائية في السلوك المتحرّر من الكبت والعسف الاجتماعي/ السياسي، وكذلك الذاكرة الوقّادة والموت الذي يكمل دورة الطبيعةويحدث كفعل مشابه لأفعال الحياة الأخرى، وأنماط الشخوص الحاضرة، لأطياف،الروح، الحكماء، الراعي، العشاق». إن هذا الحلم بالسير نحوعالم جديد وقيم جديدة وإنسان جديد يتراجع غالباً أمام حضور الاغتراب.

ج – في بلاد العرب، كما أرى، الإنسان مهمّش ومقموع ومستلب. الخارج عن السلطة منفي داخلياً أو خارجياً،والملتحق بالسلطة منفي عن ذاته وذائب في خطاب النظام، وهو ليس أكثر من بوق يردّد كالببغاء خطاب السلطة.

غياب الديموقراطية هو أساس في نفي العقل والاغتراب.

الحصار واقع في حياتنا من الأسرة إلى الدولة. حصار عمومي أساسه تاريخي، تأسس مع بداية هيمنة الفكر الظلامي الذي حرّم الاجتهاد، ودعا إلى عبادة النصّ المقدّس، والفرد المقدّس نبياً أو خليفة أو ملكاً أو جنرالاً، لأنه وليّ الله على الأرض والحاكم بأمره.

لذا لا حضارة جديدة للعرب في ظل هذا المقدّس المنزّه المحكّم والمغلق إلى أبد الآبدين.

إذن واقعياً وروائياً ، الإنسان داخل هذا الحصار المفروض، وحالة الطوارئ قائمة في بلاد العرب جميعها.

٤٨٢٤١٢

لا أنا ولا شخصياتي الروائية نرى أفقاً ولا شمساً مشرقة في زمن الطوارئ والحصارات. وحده التنوير العقلي والحرية، وارتجاجات الحروب الأهلية، لا بأفقها الظلامي والبربري والمتوحش، يمكن أن يفتح نافذة في هذا الحصار.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

س٨ – حيدر حيدر، ما الجديد الذي تحمله روايتك قيد الإصدار ، فيما يتعلّق بالاغتراب؟

في روايتي الجديدة «شموش الغجر» التي ستصدر هذا الشهر، حالة اغترابية جديدة تولد بين الأبناء والآباء داخل عائلة عربية، الأب فيها كان تقدمياً يتحوّل بفعل ظروف طارئة، ليست جوهرية، إلى إنسان رجعي يتنكّر لتاريخه وينعطف عنه باتجاه موروثه الأولي – التاريخي. بعد الإرتداد إلى الدين ينشأ الصراع داخل العائلة بين القديم والجديد،الجيل الجديد الذي أنشأه الأب بتعاليمه وآفاقه الحرّة إبّان كان ثورياً وتقدمياً، وهو الآن يريده أن يرتدّ ليكون على صورته الجديدة. من خلال الصراع – الملحمي بين الحالتين يحدث نوع من الاغتـــراب الأهلي – الأسري يودي إلى الخروج والعصيان على الأب – البطرك والشيخ.

حالة راهنية تعالجها وتحللها الرواية، ناشرة ضوءاً على ما يجري في بلاد العرب والعالم من ارتدادات وتحوّلات ظلامية ومأساوية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

ALIENATION IN HAIDAR HAIDAR'S LITERATURE
(1968-1995)

Ghada Mahmoud Khalil
SUPERVISED BY:
Dr. SAMIR QATAMI

This theises has been aimed to research the Alienation in Haidar Haidar's literature sence 1968, he wrote throughout this period novellete and short stories, using the stream of consciousness as the main style in his workes.

The researcher has depended on the alienation idiom in her confrontation for the literateur works, because the understanding of that idiom was the special concern for her, because the writer has taken the writing as a way to analyses the effects of alienation, then it was a main idea in the deeps of souls of his characters and their social problems.

This thesis is comprised of a preface, five chapters and a conclusion.

The preface discusses the historical evolution of the concept of alienation and its intellectual and philosophy backround.

The first chapter studies Haidar Haidar as an alienated writer, and the growth of the concept of alienation in his works.

The second chapter discusses self-alienation in three styles: self-indulged sou, self-denial soul and soul-searching self.In the third chapter the resaercher has shed a light on "geographical alienation", as excemplified in the litterature of Haidar Haidar and in the fourth chapter the resaercher has analysed the issue of social alienation presented in two ways: in human relationships and the political alienation.In the last chapter, the fifth,she has analyses the effects of alienation from the standpoint of syntax, narration, style, language, characters, time and place, in Haidar's novel "***Waleema Le A'ashaab Al-Bahr***", and in the conclusion thers is a summarize to all the results she reached.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit